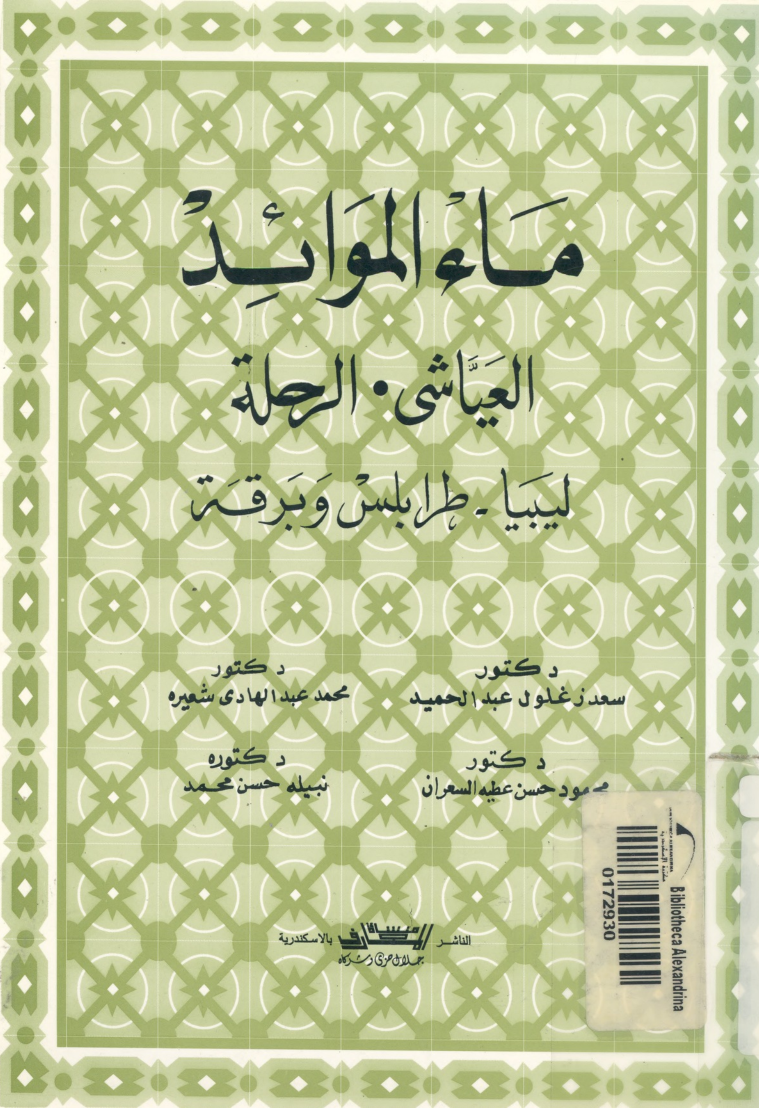

ماء الموائد
العياشى • الرحلة
ليبيا - طرابلس وبرقة
د كتور
سعد زغلول عبد الحميد
د كتور
محمد عبد الهادى شعيره
د كتور
محمود حسن عطيه السعران
د كتوره
نبيله حسن محمد
الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
Bibliotheca Alexandrina
0172930

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
.ل حزى وشركاه
كندرية تليفون / فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

اهداءات ٢٠٠١
أ.د أحمد أبو زيد
أنثروبولوجى

ماء الموائد

العيّاشي • الرحلة

ليبيا - طرابلس وبرقة

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

دكتور
محمد عبد الهادي شعيره

دكتور
محمود حسن عطيه السعران

دكتوره
نبيله حسن محمد

الناشر المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَكُم فيها جَمَالٌ حين تُريحون وحين تَسْرَحون ﴾

« سورة النحل - الآية ٦ »

تقـــديم

ينقسم هذا العمل الى قسمين :

١ ـ المقدمات فى التعريف بالعياشى صاحب الرحلة وبأسرته والظروف التى أحاطت ببلاد المغرب فى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ، من : سياسية واجتماعية وثقافية .

٢ ـ النص الخاص بليبيا وخاصة برقة وطرابلس فى رحلتى الذهاب (فيما بين تونس ومصر) والعودة (فيما بين مصر وتونس) خلال الفترة الممتدة من سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩م الى ١٠٧٤ هـ / ١٦٦٣م .

والعمل الذى نقدمه اليوم قديم جديد معا ، فهو قديم من وجهين ، **أولهما** : أنه يتناول رحلة العيـاشى التى تمت سنة ١٠٧٤ هـ / ١٦٦٣م ، **وثانيهما** : ان الاعداد لهذا العمل بدأ فى سنة ٩ ـ ١٩٥٨م فى مدينة بنغازى باقتراح من الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ـ استاذى الصديق ، رحمه الله ـ تلميذ عبد الحميد العبادى فى جامعة القاهرة ، وتلميذ لوى هالفن (Louis Halphen) فى السوربون بجامعة باريس ، وصاحب « مجموعة شعوب وحضارات » (Peuples et Civilisations) الفرنسية . وكان الاتفاق أن يتم العمل شراكة بينه وبينى بعيداً عن الأضواء ، وان كان الهدف من العمل ـ إلى جانب البحث العلمى ـ خدمة البيئة ، حسب المصطلح الدارج اليوم ، حيث كنا من أعضاء البعثة الجامعية المصرية المعارة للخدمة فى جامعة بنغازى الليبية ، الناشئة وقتئذ .

وكان من دوافع العمل فى رحلة العياشى التى كانت منشورة ، طباعة حجر خطية ، فى مدينة فاس (نسخة مكتبة الأوقاف ببنغازى ، رقم ٣١٨٨) ، ان تلك الطبعة تعانى من النقص فى بعض المواضع والخروم ، مقارنة بنسختين

مخطوطتين فى ليبيا ، إحداهما هى نسخة مكتبة الأوقاف ببنغازى ، والأخرى مخطوط مكتبة الأوقاف بطرابلس .

وبعد أن نسخت المواد اللازمة لتقويم النص ، الأمر الذى وقع على عاتقى اعتماداً على مخطوطى بنغازى وطرابلس وطبعة خط الحجر الفاسية ، وعندما بدأنا العمل سويا فى إعداد النص القويم ظهرت لنا بعض العقبات الخاصة بالتقويم ، من حيث اللغة التى كان يستعصى أحيانا فهمها ، إما بسبب غموض الخط المغربى أو لاختلاف اللهجة . هذا ، إلى جانب كثرة استخدام العياشى للشعر ، من حيث كان نفسه شاعراً ، أو مما درجت عليه العادة من الاهتمام بالشعر ـ ديوان العرب ـ حتى ذلك الوقت . وهنا لم نجد أفضل من دعوة جارنا الأخ الصديق الدكتور/ محمود حسن عطية السعران ـ فقيد العلم والشباب بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ رحمه الله ـ صاحب كتاب « اللغة والمجتمع » .

والمهم أننا نجحنا فى تقويم النص الخاص بليبيا من رحلة العياشى ، فى سفرتى الذهاب والعودة ، ثم كانت عودتنا الى مصر فى ظروف أنستنا ما كنا بدأناه فى بنغازى . فالدكتور شعيرة مع طلبته فى جامعة عين شمس بالقاهرة ، والدكتور السعران وأنا فى شغل عما كنا فيه بأبحاث الترقية الخاصة باعضاء هيئة التدريس بالاسكندرية ، إلى أن تمت الفرقة النهائية بافتقادنا لكل من الدكتور السعران ، وهو بعد فى قمة العطاء ، والدكتور شعيرة وتلاميذه أحوج ما يكونون الى علمه .

ومنذ سنوات عثرت بين أوراقى وكتبى على نص العياشى عن ليبيا الذى قومناه قبيل سنة ١٩٦٠ ، وكنت أظن أنه صغير الحجم ، فإذا به نص محترم يقع فى حوالى عشر كراسات صغيرة قد تتجاوز طباعتها المائتى صفحة ، ولكنها كانت فى حاجة الى مقدمات للتعريف بالعياشى وبالرحلة جميعا ، وهو الأمر الذى تيسر لى مؤخراً . ففى التعريف بالعياشى تمكنا من إعداد عدد لا بأس به

من المصادر والمراجع . وهنا أجد لزاما عليّ توجيه الشكر الى الدكتورة نبيلة حسن، استاذ التاريخ الاسلامى المساعد بكلية الآداب بجامعة الأسكندرية ، المتخصصة فى الدراسات المصدرية والوثائقية ، على معاونتها الثمينة فى اعداد تلك المادة . وفيما يتعلق بالرحلة العياشية استفدنا الى جانب مراجعنا السابقة بالرحلة العياشية التى نشرت مصورة بطباعة الحجر الخطية بمعرفة الاستاذ محمد حجى ، استاذ التاريخ بكلية الآداب بالرباط (١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م) ، فإليها تكون الاشارات فى التعريف بالرحلة .

وهكذا ينقسم العمل الى جزئين ، هما : المقدمات فى التعريف بالعياشى وبالرحلة ، وهى لى ، وتحقيق النص وتقويمه وهو بمشاركة كل من الدكتور شعيره والدكتور محمود السعران .

ونرجو أن نتمكن من اتمام العمل بنشر الرحلة العياشية كاملة ، محققة ومدروسةبكاملها ، وعلى الله التوفيق .

مع الشكر للناشر السكندرى الاستاذ / جلال حزى والعاملين بمنشأة المعارف / بالاسكندرية .

سعد زغلول عبد الحميد
الاسكندرية فى ٢٤/١/١٩٩٦م

أسلوب العمل والمصادر :

كان الهدف من العمل هو إخراج قطعة صحيحة من رحلة العياشى عن ليبيا ، وذلك عن طريق المقابلة بين نسخة طرابلس المخطوطة ، ونسخة بنغازى ، الى جانب نسخة فاس المطبوعة سنه ١٣١٦ هـ ، وهى :

١ ـ نسخة طرابلس : مخطوط مكتبة الأوقاف بطرابلس ، وهى من كتب النائب، ورقمها : خزانة ص رف ١ رقم ٣٤٠ (سنه ١٩٥٨) ، وتقع فى جزئين ، أولهما يحوى ٣٥٧ صفحة وثانيهما ٣٢٩ صفحة ، بخط مغربى واضح وجميل الشكل . والصفحة تحوى ٢١ سطراً ، وفى السطر ١٢ كلمة فى المتوسط . وتمّ النسخ بمعرفة الحاج حسين النائب بمدينة طرابلس سنه ١٢٧٣هـ (٧ ـ ١٨٥٦م) ـ والرمز لها : حرف « ط » . انظر شكل ا ـ أ ، ص ١٤ ، وشكل ا ـ ب ، ص ١٥ .

٢ ـ نسخة بنغازى : مخطوط مكتبة الأوقاف بنغازى رقم ٣٤٦٤ ، ويقع المخطوط بجزئية فى ٢٠٧ ورقة (دون الخرم (القطع) : ٣٨ + ٢١ ورقة) ، منسوخة بخط مغربى دقيق وجميل ، تحوى الصفحة ٣١ سطراً ، فى السطر ١٨ كلمة فى المتوسط ـ والأوراق الأخيرة بخط ناسخ آخر ، أقل جمالاً وأقل وضوحاً ـ وبدون اسم الناسخ ـ والرمز لها : حرف « ب » . انظر شكل (٢) ، ص ١٦ .

٣ ـ طبعة حجر فاس ١٣١٦ هـ ، وهى نسخة مكتبة الأوقاف بنغازى ، رقم ٣١٨٨ ، فى ٢ ج بخط مغربى ، والصفحتان الأوليان فى الجزء الأول الذى رأيناه مفقودتان .

٤ ـ النسخة المصورة الثانية بخط طبع الحجر ، بمعرفة محمد الحجى ، الرباط ، ١٩٧٧ ، وتقع فى جزئين ، الأول فى ٤٥٦ ص والثانى فى ٤٢٢ ص . وهى مذيلة بفهارس للأشخاص والقبائل والأماكن والكتب ـ وكانت الاستفادة منها فى التعريف بالكتاب الى جانب النسخ الأخرى ، وان كانت

الاشارة الى صفحاتها ستكون وحدها فى دراسة الرحلة .

أما عن المراجع المذكورة فى التعريف بالعياشى ، فهى :

٥ ـ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، الملحق ٢ عن «العياشى : أبو سالم» .

٦ ـ بلاشير ، نخب من أهم الجغرافيين العرب فى العصر الوسيط (بالفرنسية) باريس ١٩٣٢ .

٧ ـ بروفنسال ، مؤرخو الشرفا (ء) (بالفرنسية) ، باريس ١٩٢٢ .

٨ ـ ابن جبير ، الرحلة ، ط . بيروت ١٩٧٥ .

٩ ـ جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامه . الدار التونسية للنشر .

١٠ ـ رينو (هـ ـ ب) ، فهرس خاص بالمكتبة الكبرى لجامع فاس (١٢٦٨هـ / ١٨٥١م) ، مجلة هسبيريس ، الجزء ١٨ ، ١٩٣٤ .

١١ ـ سعد زغلول عبد الحميد ، الأثر المغربى والأندلسى فى مجتمع الاسكندرية ، ط . جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ .

١٢ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ، السيد أحمد البدوى .

١٣ ـ محمد ابراهيم الكتانى ، حالة المخطوطات بالمغرب ، مجلة الثقافة المغربية ، وزارة الدولة للشئون الثقافية المغربية ، مارس / دجنبر ١٩٧٠ .

١٤ ـ محمد الأخضر ، العياشى أبو سالم ، مجلة الثقافة المغربية ، نفس العدد السابق .

١٥ ـ المحبى ، خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، طبع مصر ١٢٨٤هـ .

١٦ ـ محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفرانى ، نزهه الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، طبعة جديده عن نسخة هوداس ، الرباط ، ١٨٨٨م.

١٧ ــ محمد بن الطيب القادرى ، نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، تحقيق محمد حجى وأحمد توفيق ، الرباط ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م . والترجمة الفرنسية ، فى الوثائق المراكشية (Archives Marocaines) ، المجلد ٢٤ ، نشر ميشو بللاير (Michaux - Bellaire) ، باريس ١٩١٧ .

١٨ ــ يوسف الياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ط. مصر ، جـ ٢ ، ١٩٢٨ .

١٩ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، جـ ١ ، الفصلة ١٣ ، ليدن ١٩٥٨ .

الأشكال :

١ ــ أ ــ الورقة الأولى من مخطوط طرابلس ، ص ١٤ .

١ ــ ب ــ الورقة رقم ٤٨ من مخطوط طرابلس ، ص ١٥ .

٢ ــ لوحه بخط استاذنا شعيره عند بدء العمل فى مخطوط بنغازى، ص ١٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

قال العبد الفقير الذليل المستجير بالله ور
سوله الملتجئ إلى كرم الله في حصول أمله من
الخير وسؤله أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي
بكر العياشي المغربي المالكي جعل الله تصرفه
فيما يرضيه ابتغاء مرضاته آمين

الحمد لله الذي فرق مشروع السعي محمود القصد وحث عليه في
طلب السعادة فقال تعالى فلا تعلم فيا سعادة من تقرب بالسير إلى البيت
مع ذلك النفر ولم يمل السرى في الليل إذا أدبر والسير في الصبح إذا أسفر
وزين المجاسر في الفيافي دائبا مغتفر وأرواح العاشقين إذا أثيرت
الركاب أطيب لديه من المسك الأذفر لا يصرف عن قصده نضارة
العيش الأخضر ولا ازورار المحبوب الأصفر ولا يميل عن عزمه إعراض
العدو الأزرق ولو كان من بني الأصفر وبالموت الأحمر الأجل دون
مرامه أشهى من الثريد الأعفر وصلاة الله المحيطة بأعلى
رتب الفضل والإحسان المستغرقة لصلاة كل ملك وجان وإنسان
وسلامه المحلوبا بتتر ملابس الإيمان المتوج بأنوار حقائق الإيقان
على نقطة دائرة الوجود ومورد ينابيع الخير والجود وخلاصة أسرار
الملك والملكوت في الركوع والسجود وخير من جعلت الجبهة في

دهله

(شكل ١ – أ) الورقة الأولى من مخطوط طرابلس

فانهم في الغوث في اكرامهم ولا يألون جهدا في افضالهم عليهم وانعامهم ٤٨
ولمدينة المنورة بابان باب الى البر وباب الى البحر لان البحر محيط بكثير
منها تقريبا والحصار الذي فيه الامير متصل بالمدينة من ناحية باب البر
بينه وبين البحر ولامير هذه المدينة نكاية في العدو دمره الله وله
مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر فقلما تسافر وترجع بغير
غنيمة وقلما اسر لهم سفينة الا ان تكون من سفن التجار لا من
سفن الجهاد فجزاهم الله خيرا وامانهم على ما اولاهم من ذلك
وسائر بلاد المسلمين اجمعين وكان عادة الركب اذا دخل هذه المدينة
سيما في الذهاب ان يقيموا فيها نحوا من شهر يستعدون منها للدخول
المفازة التي قل نظيرها وهي مفازة برقة ومن هذه المدينة يشتري
الحجاج ما يحتاجون من الابل والقرب ويتزودون زادا يقوم ثلاثة
اشهر الى مصر ان كان الوقت شتاء وان كان صيفا فنحو من شهرين
وابل عمالة طرابلس غاية في الجودة قل ان يوجد لها نظير شبيهة
بابل بلدنا بل تزيد عليها بكثرة الخدمة فانهم يستعملونها
في سائر الاشياء حتى الحراثة والدراس ويسنون عليها ويديرون
الرحا فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هذا البلد
ونقاوة مائها فيقل فيها الغش ويندر فيها الضعف ولذلك قيل
في امثال الحجاج جمل طرابلس وقربة مصر لان قرب هذه البلد رديئة
الدباغ وما ... المشاغ ومع ذلك لا تمسك الشراب الا
كما يمسك الماء الغربال كما اشكل عليها او سبقت عليه الريح
اول المسافة واوردته ... مواد التلف والمخافة ومن

(شكل ١ - ب) الورقة رقم ٤٨ من مخطوط طرابلس

لغزاوة = الغزاوة الحمارنة : الرحامنة : الجمرد

جحفة

ثم ارتحلنا من جحفة آخر قرى لغزاوة ومررنا ... غالبه الجبل لغزاوة [illegible] ... [illegible]

... [illegible] ... حرارة [illegible] الزمان [illegible] مثل [illegible] ـ [illegible] آخر ـ [illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] ـ [illegible] (الحمارنة ؟) الجمرد ـ [illegible]

... [illegible] ... [illegible]

[illegible] ... في اليوم الثالث [illegible] قبر سيدي [illegible] في قرية [illegible]

[illegible] : [illegible] ... [illegible]

... [illegible] ... [illegible] مراد باي بن محمود باي [illegible]

[illegible] ـ ١٠٦٤ [illegible] ـ [illegible]

[illegible] ـ [illegible] ١٠٦٥ [illegible] ـ [illegible]

والأوقاف [illegible] ـ [illegible]

[illegible] ... أيام كانت الحرب بين عساكر الجزائر وعساكر تونس .

[illegible] ـ [illegible] قرى متعددة [illegible] إلى [illegible]

[illegible] ... [illegible] الأحامرة ... [illegible]

من [illegible] إلى وادي [illegible] ثم ركب [illegible] تونس القافلة من الحجاز ـ [illegible]

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ٦٤ أول يوم من الصيف ... [illegible] ٥٩ [illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible] وادي كبير [illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible] ... [illegible]

[illegible] : [illegible] (والمرج) ـ

[illegible] ... [illegible] ـ [illegible]

ارتحلنا .. [illegible] .. [illegible] .. [illegible] الزوارات الغربية ... ـ [illegible]

[illegible]

[illegible] ... [illegible] ... [illegible] ... [illegible]

إلى طرابلس : [illegible] ـ زواغة ـ زاوية [illegible] ـ [illegible]

[illegible] ([illegible]) ـ [illegible] ـ [illegible]

[illegible] ... [illegible] ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible]

[illegible] ـ [illegible]

[illegible] ... [illegible] ـ [illegible] : ـ مولاي عبد الملك

[illegible] ـ مولاي عبد الملك [illegible] (الغازي) ٩٢٦ ـ ٩٥٨ ـ

(شكل ٢) لوحة خط أستاذنا شعيره عند بدء العمل فى مخطوط بنغازى

الرحلة العيّاشية

تمهيد :

العيّاشى وبشائر عصر النهضة الحديثة :

رحلة العياشى من كتب التراث التى تفخر بها المكتبة العربية ـ المغربية . فرغم أنها من نتاج النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) ، عصر اضمحلال الحضارة العربية الاسلامية ، بعد أن بلغت ذروة النضج فى القرن الخامس الهجرى ـ حسبما نرى ـ لكى تبدأ إثر ذلك حركة التوقف اعتباراً من القرن السادس الهجرى (١٢م) حيث كانت علوم المشرق قد انتقلت الى المغرب الاسلامى ممثلة فى نوابغ رجال المغرب والأندلس ، من : ابن حزم (القرطبى) وابن تومرت (السوسى) وابن الطفيل (الفيلسوف الأندلسى) ، والادريسى (السبتى ـ الصقلى) ، وأبو بكر بن زهر (الطبيب الأندلسى) وابن رشد الحفيد (Averroes القرطبى) ـ فكأنها صحوة السبات والغيبوبة .

واذا كان ابن خلدون قد كسر طوق التخلف الذى كان يخيّم على كل من المغرب والمشرق فى أواخر القرن الـ ٨ هـ / ١٤م بمقدمته الذائعة الصيت ، التى عرّفت بعلوم العرب والمسلمين ـ فيما قل ودلّ من الكلام ـ بشكل رفع من شأنها الى مستوى فلسفة التاريخ أو الاجتّماع الانسانى التى لا نظير لها على مستوى العالم أجمع ، حسب رؤية توينبى المتفائله من غير شك ، فى تقديمه لترجمة روزنتال « للمقدمة » بالانجليزية ، فإن رحلات العياشى الثلاث التى توالت إبتداء من سنوات ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م ، ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣ م ، ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م ، تعتبر من الومضات العبقرية المؤذنة ببدء عهد جديد بالنسبة لعالم الاسلام ، هو عهد « التجدد » حسب المصطلح الخلدونى المعبّر ، وهو اليقظة العربية أو النهضة الاسلامية فى مصطلحنا الحديث .

والحقيقة ان ذلك النوع من فروع علم الجغرافيا العربية الذى عرف أولا باسم « المسالك والممالك » قبل أن يعرف باسم « الرحلة » ، كان قد تحول بفضل العلماء الرحالة من أهل الدين والعلم والآدب ، وعلى رأسهم العياشى الى نوع من كتب التراث الثقافية التى لا تكتفى بوصف البلاد والعباد ، بل تنظر الى الحياة العلمية والثقافية ممثلة فى المشايخ والعلماء ، من أهل اللغة والفقه والدين والكلام والفلسفة والتصوف ، وكذلك أحوال المعاش والثروة والعادات والتقاليد فى البلاد التى زاروها ، وفى دولة الاسلام بعامة ، فكأنها دوائر المعارف بالنسبة لأهل تلك العصور .

ورائد هذا النوع من « أدب الرحلة » ـ رحلة الحج ـ هو ابن جبير الأندلسى من غير شك (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) ، دفين الاسكندرية تحت اسم « سيدى جابر »[١]. وهو أول من دون يومياته ، وسجل أحاسيسه خلال رحلة الحج ، الى جانب وصف الحياة العلمية فى كل قطر من الأقطار ، وكل ذلك كحاشيه لغرضه الأول من رحلة الحج ، وهو تسجيل شعائر الفريضة ، ومشاعر الحاج ، وما استتبع ذلك من وصف الأماكن المقدسة[٢]. وبعد ابن جبير سار على نهجه كل من العبدرى (رحلة سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) ، والبلوى (رحلة سنة ٧٣٧ هـ . ١٣٣٦ م) ، والتجانى (رحلة سنة ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦م ـ ٧٠٨هـ / ١٣٠٨ م)[٣].

---

(١) انظر للمؤلف ، الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى ، ط . جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣٩ ـ وهنا تحسن الأشارة إلى أن أول من لفت نظرى الى ذلك هو الاستاذ بروفنسال ـ له الرحمة .

(٢) انظر الرحلة لابن جبير ، ط . بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٥٩ ـ ٦٦ : عن وصف مكة والكعبة والبيت الحرام .

(٣) انظر للمؤلف ، الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٤ (عن العبدرى والبلوى) وعن التجانى ، انظر الرحلة ، تونس ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م .

أبو سالم العيّاشى المغربى : اسمه ونسبه :

٣٠ شعبان ١٠٣٧ هـ / ٤ مايو ١٦٢٨ م - ١٨ ذو الحجة

١٠٩٠هـ / ٢١ ديسمبر ١٦٧ م .

المشهور عن رحالتنا العياشي ان اسمه ، كما ذكره فى رحلته فى أكثر من موضع ، هو : أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى ، وقد يتبع ذلك إضافة لقبى « المالكى المغربى » [١]. والمعروف ان من كان اسمه عبد الله تكون كنيته « أبو محمد » وتلك كانت كنيته أصلاً [٢]. والمعروف فى حالة العياشى ان كنيته «أبوسالم» التى حملها كانت شرفية ، خاصة للشهرة . وذلك أنه حصل عليها فى مصر من السيد أبى اللطف الوفائى ، استاذه الذى أجازه وشرّفه بها وهو يعطيه إياها بالدعاء له بدوام السلامة فى رحلاته الطويلة التى كانت موضع الإعجاب من غير شك [٣]. والحقيقة ان اسم الشهرة هذا « أبو سالم » أصبح الاسم المميز لرحالتنا دون غيره من الألقاب والأسماء [٤].

واذا كان الفضل يرجع الى الرحلة العياشية فى إلقاء الضوء على حقيقة كنية أبى سالم ، فإن تراجم نشر المثانى للقادرى [٥]. التى تتحدث عن شيخين من العلماء أو المرابطين يحملان لقب العياشى ، وهما : أبو محمد عبد الله (ت

---

(١) انظر الرحلة العياشية ، ط . مصوره لمحمد حجى ، الرباط ١٩٧٧ ، جـ ١ ، ص ٣ ، حيث : أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشي المغربى المالكى وانظر ايضا جـ١ ص ٨٦ ـ حيث كتب العياشى لأهل داره من طرابلس الغرب مانصه : « من العبد الفقير ... أبى سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى

(٢) انظر نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، لمحمد بن الطيب القادرى ، جـ ٢ ص ٢٥٨ ، حسبما سجل فى خطابه الى استاذه عبد القادر بن على بن يوسف الفاسى ، فى أواسط شعبان عام ١٠٦٣هـ/١٢ يوليه ١٦٥٣م ، ص ٢٦٢ .

(٣) انظر محمد الأخضر ، العياشى أبو سالم ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد مارس/دجنبر ١٩٧١ ، ص ٢٠٢ .

(٤) انظر الرحلة ، جـ ١ ص ٨١ ـ حيث كتب اليه سيدى أبى عمرو عثمان بن على رداً على بعض مخاطباته (شعراً) :

أبا سالم انت المحب الى قلبى وان كنت دهرى من عتابك فى حرب

(٥) جـ ٢ ـ الرباط ١٩٨٢ .

وهذا يعنى ان العياشى عندما سجل رحلته فى القرن الـ ١٧م / ١١ هـ ، انما كان يجدد تقليداً مغربيا تليداً ، يرجع الى أواخر القرن الـ ١٢ م / ٦ هـ . فكأنه كان يحيى بعض عناصر التراث العريق والحضارة الاسلامية ـ الأمر الذى لو قدر له الاستمرار لظلت الدماء الفتية تنفث الحياة فى حركة التجديد الاسلامية . ولكن هيهات ان يكون الاسترخاء ، والكسل بديلا للتعب فى الكسب والعرق ـ فى وقت عسر لا تمطر فيه السماء فضة ولا ذهب على غير «المجاهدين» فى الشغل والعمل .

والحقيقة ان رحلة الحج كان لها أهمية كبرى فى تاريخ الاسلام ، وفى تطور الحضارة العربية الاسلامية على مرّ الزمن . وبطبيعة الحال لم تتلخص هذه الأهمية فى أداء شعائر الحج لذاتها ، بل فى كون القيام بفريضة الحج فى واقع أمرها ، رابطة قوية من روابط الوحدة بين أجزاء العالم الاسلامى ، وخاصة بعد التفتت المذهبى والقطيعة السياسية التى ألمت بأطرافه فى عصور الطوائف التالية ، فى كل من الشرق والغرب . وهكذا كانت قوافل الحجاج ذاهبة آيبة من أقاصى المشرق والمغرب الى مهد الاسلام فى الحجاز ، ومنه طوال الشهور وعلى مدار العام وهى تحطم الحدود السياسية الموهومة ، وتؤكد وحدة الدولة الاسلامية ، وتحمل علوم المشرق العربى الى المغرب والعكس بالعكس ، فتعمل على تأكيد عالمية الدائرة الثقافية الاسلامية .

أواخر سنة ١٠٧٣ هـ / يوليه ١٦٦٣ م [١]. ووالده أبو عبد الله محمد العياشى (ت سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م) المعروف بالمجاهد السلوى المالكى [٢].

والحقيقة أنه كان يمكن الخلط بين العياشى الرحالة وبين ابن المجاهد المرابط العياشى (أبو عبد الله محمد) [٣]، وهو أبو محمد عبد الله [٤]. سميّ رحالتنا : اسما ولقبا . وهذا ما نبه عليه القادرى صاحب المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، الذى حاول التفرقة بين العياشيين عنده ، عن طريق تقسيم جماعة العياشيين الى جماعتين ، إحداهما عربية (أو مستعربة) والأخرى بربرية مغربية ، وان أفراد الجماعة الأولى ومنهم المجاهد وابنه عبد الله ، يعرفون بالعياشيين كما يعرف الواحد منهم بالعياشى (بياء النسب) بينما تعرف الجماعة الأخرى (البربرية) بأيت عياش (أى بنى عياش) ، وان الواحد منهم يعرف بـ « أعياش » (اختصار ايت عياش) أو العياش (مع آداه التعريف) . فكأن رحالتنا « أبو سالم العياشى » من فرع العياشه (البربر) وليس العياشية (العرب) ، الأمر الذى لا يؤيده تبحره فى علوم العربية ، ومنها الشعر والأدب فضلا عن العلوم الاسلامية ، من : القرآن والحديث والفقه ، وخاصة فقه مالك ، مذهب أهل المغرب بالامتياز .

وإسم رحالتنا ونسبه كما نقل عنه فى الرحلة وعند المحدثين من الأوروبيين والعرب يتراوح ما بين الاختصار فى شكل « ابو سالم عبد الله بن محمد ــ

(١) نشر المثانى ، جـ ٢ ص ١٣٣ ـ وفيات سنة ١٠٧٣هـ ـ حيث « عبد الله بن المجاهد العياشى » المتوفى ليلة عرفة ١٠٧٣هـ/١٦ يوليه ١٦٦٣م، والمدفون بجوار الولى الصالح الشهيد : سيدى أبى سلهام من بلاد الغرب، وقارن الترحمة الفرنسية، الوثائق المراكشية (Archives Marocaines) المجلد ٢٤ ، نشر ميشو ـ بللير (Michaux - Bellaire) ، باريس ١٩١٧ .

(٢) نشر المثانى ، جـ ٢ ص ٧ ـ حيث النص أيضا على أنه كان يترشح للخلافة (نيابة إمارة المغرب) وانه تصدى للجهاد فى ثغور المغرب ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلم يتم له أمر . والمعروف انه توفى غيلة على أيدى العرب من الخلط بموضع يسمى عين القصب ، وأنه دفن بازاء روضة سيدى أبى الشتاء من بلاد فشتاله . وقارن أيضا ص ١٣٣ ، والترجمة فى الوثائق المراكشية ، جـ ٢٤ ، ص ١ ـ حيث الاشارة الى لقب المرابط الرئيس الذى كان نفوذه يمتد الى فاس .

(٣) نشر المثانى جـ ٢ ، ص ٧ .

(٤) نشر المثانى ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ .

العياشي » [1]، وما بين الأطالة في شكل « ابو سالم عبد الله بن أبي بكر بن يوسف ابن موسى بن محمد بن يوسف » حسبما أورده محمد الأخضر [2]، الذى ربما رجع الى بعض مخطوطات الزاوية العياشية التى بنيت سنة ١٠٤٤ هـ/ ١٦٣٤ م بالقرب من قرية تازروفت ، في بعض أودية أحد روافد نهر زيز ، بمعرفة والد الرحالة محمد بن أبي بكر بن يوسف . هذا ولو أن الزاوية كانت تحمل وقتئذ اسم « زاوية أيت عياش » الذى تحول فيما بعد إلى زاوية سيدى حمزة بن أبي سالم عبد الله العياشي [3]، الأمر الذى قد يعني وجود صلة نسب ما بين العياشيين من آل المجاهد السلوى (أبو عبد الله محمد : المرابط الرئيس) وبين آيت عياش أو العياشين ، آل رحالتنا الذين كان لهم رباطهم أو زاويتهم في منطقة تافلالت (سجلماسة القديمة) .

والمهم ان الاسم الدارج عند الكتاب من معاصرين لصاحبنا العياشي ومحدثين ، أخذوا بالاسم الوارد في الرحلة ، والذى أذاعه بروكلمان في تاريخ الآدب العربي ، وهو : أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي ، والذى أضيف اليه : المالكي ، عفيف الدين ، والمغربي [4].

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، الفصلة رقم ١٣ ، ليدن ١٩٥٨ ، ص ٨١٨ ، بلاشير ، نخب من أهم الجغرافيين العرب في العصر الوسيط (بالفرنسية) باريس ١٩٣٢ ، ص ٣٦٣ .

(٢) انظر محمد الأخضر ، العياشي أبو سالم ، مجلة الثقافة المغربية ، مارس / دجنبر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠١ .

(٣) انظر رينو (هـ ـ ب) ، فهرس مشكوك فيه ، خاص بالمكتبة الكبرى لجامع فاس (١٢٦٨ هـ / ١٨٥١م) ، مجلة هسبيرس ، الجزء ١٨ ، ١٩٣٤ ، ص ٨١ ـ حيث التعرف على تاريخ الزاوية العياشية عن طريق مخطوطة كانت محفوظة منذ بدء بنائها ، وتعرّف بتتابع المقدمين عليها ، ونسبهم الذى يرتفع الى الشرفاء الادارسة . وحيث النص على ان معظم المعلومات أتت من وثائق القسم الاجتماعي الخاص بالشئون المحلية ، ومن المكتبة العامة للحماية ، والدراسات التى قام بها المسئولون في تلك الأماكن .

(٤) انظر تاريخ الأدب العربي ، الملحق ، جـ ٢ ص ٨١ ، سركيس ، معجم المطبوعات العربية ، مصر ١٩٢٨ ، جـ ٢ ص ١٦ ، وقارن ليفي ـ بروفنسال ، مورخو الشرفا (بالفرنسية) ، ص ٢٦٢ .

وهكذا يحمل الرجل إلى جانب كنيته الشرفية « أبو سالم » لقبين دينيين، هما : المالكي نسبة إلى مذهبه ، مذهب أهل المغرب الدارج ، وعفيف الدين الذى يعتبر من الألقاب الشرفية بالمشرق أيضا ، مما كان يعطى لكبار القواد ورجال الدين من زوار بغداد وبلاد الخلافة الشرقية ـ وهى الألقاب التى حملها عظماء القادة من رجال الدولة الى جانب القابهم المدنية أيضا منذ العصر السلجوقي . أما لقبا العياشي ، وهو بالبربرية « عياش أو أعياش » ، والمغربى ، فهما نسبة الى قبيلته من بربر أيت عياش أو العياشين الذين سكنوا مدينة سجلماسة ، فى أقصى صحراء المغرب على حافة المفازة المؤدية الى بلاد السودان وغانة ، حيث كانت من محطات الطريق التجارى الدولي ، الموصل ما بين المغرب والسودان ، من حيث كانت تخرج أيضا قوافل الحاج المغربية كل موسم على مرّ السنين .

الأسرة وتوجهاتها الدينية السياسية :

وعن أسرة رحالتنا فمن الواضح أنها لم تشتهر كأسرة مرموقة إلا بعد نهاية كل من المرابط : الرئيس أبو عبد الله محمد العياشي سمى والد رحالتنا أبى سالم ، الأمر الذى دعا صاحب المثانى الى التنبيه على عدم الخلط بينهما [١] ، وهو الأمر الواضح حقا فى تاريخ الوفرانى [٢] . ونحن نرى أنه ربما اكتسب لقب العياشي لمجاورة أيت عياش أصلا فى منطقة تافللت (سجلماسة) قبل ان ينقل نشاطه الجهادى ضد غزاة أقاليم سبتة وطنجة وسواحل الأطلنطى القريبة ، من : الاسبان والبرتغال ، وغيرهم من الوافدين الجدد على المغرب ، من الانجليز والفرنسيين .

(١) انظر اعلاه ، ص ٢١ والهوامش .

(٢) انظر محمد الصغير بن الحاج الوفرانى ، نزهة الحادى ، بأخبار ملوك القرن الحادى ، عن طبعة الرباط الأولى بمعرفة هوداس ، ١٨٨٨ ، ص ٢٦٠ ، الهامش بخط اليد ـ حيث الاسم : أبو عبد الله سيدى : محمد بن أحمد المالكى الزيانى المشهور بالعياشى

أما عن أصله فهو من عرب المغرب من قبائل مالك ، « وبيته فيهم بيت خير وصلاح من قديم » . أما عن سيدى محمد عند ابن مياره ، فهو : « الولى الصالح السائح ، قطب الزمان وكهف الأمان ، المجاهد ... المرابط فى الثغور ... ذو الكرامات الشهيرة ، والفتوحات الحميدة» (١) . وصاحب الهامش المضاف بخط اليد فى الوفرانى (٢) ، يعجب من ان سيدى محمد العياشى هذا ، الذى طبقت هيبته المشرق والمغرب وبعض دول أوروبا لا يعرفه إخوانه وقبيله أولاد زيان هؤلاء ، بل ولا كذلك بنو مالك أو سفيان ، وحتى قبيلة الخلط التى قتلته ـ وهو الاعلان الذى نعتبره دعوة الى إعادة النظر فى امكانية وجود قرابة ما بين سيدى العياشى المجاهد ، وأصحاب الزواية العياشية من آل رحالتنا (ايت عياش) أبى سالم العياشى ، حيث يمكن أن تكون همزة الوصل اشتراك والد الرحالة وابن المجاهد العياشى فى نفس الاسم مع صفة العلم والفقه .

أما وجه الشبه الشديد فهو بين المجاهد « سيدى محمد » وبين الرحالة سيدى «أبو سالم» العياشى ، من حيث التبحر فى علوم الدين وبخاصة فى التصوف أو علم الحقيقة الذى أخذت مدارسه تنتشر فى الربط والزوايا ، فى كل أنحاء المغرب، إثر التهديد الذى تعرضت له البلاد من قبل اسبانيا والبرتغال ، قبل غيرهما من دول أوروبا الغربية الناهضة . واذا كان « سيدى محمد » المشهور بالعياشى قد اشتهر أيضا بالسلوى نسبة إلى رباطه فى سلا وجهاده ، فإن الرباط المشهور حقا وقتئذ ، كان رباط « الزاوية الدلائية » فى منطقة ملوية ، وهى الزاوية التى كان لها نشاطها الجهادى بعد نهاية رباط سلا العياشى ، وقبل قيام الزاوية العياشية الأخرى ، زاوية سيدى حمزه بن أبى سالم العياشى (انظر أعلاه) . والحقيقة أن الزاوية الدلائية إذا كانت قد عرفت بنشاطها الرباطى أى الحربى ،

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر .

فإن الزاوية العياشية الجديدة عرفت بنشاطها العلمي أى السلمي المتمثل في جهاد النفس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه التفرقة على مستوى التصوف في كل من شكليه الايجابي أى الجهادى الحربي ، أو السلبي أى الجهادى النفسي ، هي التي تفرق بين طبيعة كل من الرباطين : السلاوى المشهور برباط العياشي ، وزاوية أعياش المشهورة بزاوية حمرة (ابن أبي سالم العياشي ، وان كانت النسبة هنا الى ايت عياش البربر أصلا) . فسيدى محمد العياشي (المجاهد) وصل عن طريق رباط سلا الحربي الى مرتبة القطب أو الغوث ، أعلى مراتب التصوف والكشف أو الرؤية التي لا يصل اليها إلا الأولياء حقا ، كما يرى أهل زمانه (١) .

والمعروف ان سيدى محمد العياشي نشأ في كنف العارف بالله سيدى عبد الله حسون ، دفين سلا ، وكان أقرب تلامذته الى نفسه . فسيدى حسون هو الذى زوده بفرس وطلب اليه « بالأمر » ان يسير مجاهداً الى آزمور (ثغر بلاد

---

(١) نزهة الحادى ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ حيث وصف ابن ميارة للعياشي المجاهد « بالولي ، السائح ، القطب ، الكهف ، المجاهد ، المرابط ، ذى الكرامات والفتوحات ، البركة القدوة ، المجاب الدعاء» ، وحيث يصفه سيدى العربي الفاسي بمثل ذلك إلى جانب قوله : ان رئيس الزاوية الدلائية : الولي الكبير سيدى محمد بن أبي بكر المجاطي كان يذيع محاسنه ويطيل الثناء عليه ، ويقول في دعائه : « اللهم جاز عنا سيدى محمد العياشي ، أفضل المجازاة ... واردد الكرة على من عاداه في الحق إنك على كل شيء قدير » . هذا ، كما يورد صاحب نزهة الحادى بعد ذلك نص رساله لسيدى محمد بن أبي بكر الدلائي ، موجهة الى المجاهد العياشي يصفه فيها « بحوطة الاسلام ، وخديم الدين » ، ويدعو بسلامة « جنابه المقدس ، العلمي ، المرابطي ، المجاهدى » ، ويشهد على نفسه بالاقرار بفضله ، ويعتذر عما بدر من جهالة بعض أعوانه ـ من حلفائه الاندلسيين الموريسكيين ، على ما نظن ـ طالبا العفو عنه ، قائلاً : « ولولا الحرارة ما عرف الظل ... وما عرف العفو لولا الاساءة ... فإن خرج عن نظركم فقد أتاه الغلط من حيث لا يحتسب » . أما عن سيدى محمد بن ناصر الدرعي (العالم الحجة) فقد وصف المجاهد السلوى العياشي بـ « أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين » . ويعلق صاحب النزهة قائلاً : « وناهيك بها شهادة على علو منصب الرجل » .

الشاوية) ، حيث ظهرت قوة شكيمته في منازلة العدو الأوروبى ، فطار بذلك فى البلاد صيته [١] ، الأمر الذى أقلق السلطان السعدى مولاى زيدان بن أحمد المنصور بمراكش العاصمة ، وأدى الى سعاية الحاشية فى عزل العياشى عن قيادة الثغر . وأدى كل ذلك الى خروجه من آزمور الى سلا ، حيث ضيق على النصارى ، وأقر الأمن حتى اعترف شيوخ المنطقة برئاسته . هذا ، ولم يمنع الجهاد سيدى محمد العياشى من التفاوض مع الانجليز والهولنديين ، نكاية فى خصومه الدلائية الذين أصبحت لهم السيطرة على كل بلاد الشمال [٢] .

ووسط مكائد المنافسين من الدلائيين ، واضطراب الأعوان من الاندلسيين الموريسكيين بسلا ، والنصارى الطامعين فى ساحل الغرب فى آزمور ، وحاشية السلطان بمراكش ، نكث عرب المنطقة ـ حلفاء الدلائيين ـ بيعتهم للمجاهد العياشى، وتم قتله غيلة بعد أسره على أيدى جماعة الحياينة من عرب الخلط [٣] . وكان اغتياله بموضع يسمى « عين القصب » فى يوم ١٢ من المحرم سنة ١٠٥١ هـ / ٢ مايه ١٦٤١م . وإذا كان للنبأ صداه الحزين لدى المسلمين حتى المدينة المشرفة ، فقد قابله النصارى (الاوروبيون) بالفرح حتى تجار الاسكندرية منهم [٤] .

---

(١) نزهة الحادى ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٢) جوليان ، تاريخ شمال افريقية ، الترجمة جـ ٢ ص ٢٨٤ ، وقارن نشر المثانى للقادرى ، جـ ٢ ص ٢٧ ـ حيث القتال فى ربيع الأول سنة ١٠٥٣هـ/ ابريل ـ مايه ١٦٤٣م ، بين أهل الدلاء وبين سيدى عبد الله بن محمد (المجاهد) العياشى حيث نهبت القبائل .

(٣) نزهة الحادى ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ، وقارن نشر المثانى ، جـ ٢ ص ٧ .

(٤) نزهة الحادى، ص ٢٧١ ـ حيث النص: « وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم : مات زرب الاسلام» ، الى جانب ما قاله أبو سالم العياشى فى الرحلة ، رواية عن الشيخ محمد الفزارى بمكة ، عن رؤية أحد المغاربة فى المدينة المشرفة ، فى السنة التى توفى فيها الولى المجاهد سيدى محمد ابن أحمد العياشى ، فى منامه ، حيث « رأى رجلاً جالساً مقطوع اليد تسيل دماء فقلت له من أنت ؟ فقال أنا الإسلام قطعت يدى بسلا » ، فكان رد الفزارى : « إن الرجل الصالح المجاهد الذى كان بسلا قد قتل » ، وهو الأمر الذى أكده حجاج المغاربة فى آخر العام . أما فى الاسكندرية ، فقد عبر تجار النصارى عن فرحتهم باخلاء انفاضهم ، وقالوا لمن سألهم عن ذلك : « قتل صانطوا فى المغرب ، ومعناه المجاهد (القديس) » .

وبنهاية سيدى محمد العياشي ينتهي رباطه السلوى أو يكاد لصالح كل من الأندلسيين (الموريسكوس) في الغرب ، وبربر صنهاجة أصحاب الزاوية الدلائية في منطقة ملوية ، الى جانب ظهور الشريف السجلماسي الحسنى (١٠٥٠هـ / ١ ـ ١٦٤٠م) مؤسس أسرة الحسنيين الشرفا الذين ينتسبون الى السادة الأدارسة ، والذى نجح فى بسط سلطانه على أقاليم الصحراء المجاورة [(١)] .

وهكذا يصبح القرن الحادى (عشر) / ١٧م في المغرب ، عصر الربط والزوايا ، وجهادها في سبيل الدفاع عن البلاد . والحقيقة أن رباط سلا العياشي ظل حياً في أعين المعاصرين ، طالما بقيت ذكرى مؤسسه سيدى محمد ممثلة في ابنه العالم الفقيه سيدى عبد الله بن محمد بن أحمد العياشي . فهذا ما يفهم من بعض قصائد الأديب البليغ سيدى / أحمد الدغوغى التى نعى فيها المجاهد سيدى محمد العياشي ، حيث يقول :

بعده ما رأينا عين العلا سئموا عيشا فلا عاش مولود ولا ولدا (بيت رقم٢٣)

كل المحاسن مولاها مُحمـدها وكل وجدان حمد بعده فقدا (بيت رقم٣٠)

وعيشكم آل عياشن فلا تهنـوا بعد محمد ان يذم فقد حمدا (بيت رقم٤٢)

بل في ابنه وبنيه الأسدتم لهـم يمن تملأ عيناً بالمنى ويدا (بيت رقم ٤٧)[(٢)]

---

(١) عن قيام الزاوية الدلائية على يد الولى الأشهر أبى بكر بن محمد (٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ م ـ ١٠٢١هـ/ ١٦٠٢م) مريد الشيخ أبى عمر المراكشى (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) الذى « ضمه اليه وألبسه قلنوسته بيده ... ففتح له من الملك والملكوت وعلم الملائكة ثم الغيبة عن ذلك كله » حتى قيل فيه إنه « من أكابر مشايخ المسلمين ... وحيد عصره ... متوسم بالشريعة ، متحقق الحقيقة ... يجد جودا لا ساحل له ... يعطى عطاء لا يخاف الفقر ... اعتصم الاسلام فيه بحصن حصين ... فهو الذى أمسك رمقه » . كما قيل فيه : « أخذ الناس بالأوصاف وأخذ سيدى أبى بكر بالانصاف ... كراماته وبركاته شهيرة » . انظر نزهة الحادى ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦ (عن أهل الزاوية الدلائية ومبدأ أمرهم) . وقارن جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، الترجمة ، ص ٢٨٤ .

(٢) نزهة الحادى ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

والحقيقة ان وصف بني سيدى محمد العياشي ، ومنهم ابنه الأكبر عبد الله؛ بالأسد لايعني ان هذا الأخير اقتدى بوالده في الرباط والجهاد سواء ضد أعداء الخارج من الاسبان والبرتغال أو من الخصوم المنافسين فى الداخل ، من : الموريسكيين الاندلسيين أو البربر الدلائيين . حقيقة انه يوجد ذكر لبعض الأعمال الحربية التي قام بها سيدى عبد الله بن المجاهد العياشي ضد الدلائيين ، كما حدث في سنة ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م ، ولكن من الواضح ان تلك الأعمال كانت مجرد محاولة للأخذ بثأر المجاهد المغدور ، لم يقدر لها التكرار [١]. والحقيقة ان الفقيه العلامة كان يكفيه أن ينظم أرجوزته « في أهل بدر يتوسل بهم الى الله عز وجل في هلاك أولئك الذين تمالئوا على قتل والده » [٢].

والمهم أنه في منتصف القرن الحادى / ١٧ م كانت السلطة في صحراء المغرب قد آلت الى زعيم كل من الزاوية الدلائية : سيدى محمد الحاج (حفيد أبي بكر) ، وصاحب سجلماسة : مولاى محمد بن الشريف ، حيث تم الصلح بينهما على أن يكون جبل بنى عياش هو الحدّ الفاصل بين بلاديهما [٣]. ولكن الصراع الذى عاد بينهما انتهى سنة ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م بانتصار الشرفاء على أهل الدلاء الذين انطمست معالم زاويتهم « وصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس » [٤].

---

(١) نشر المثانى ، جـ ٢ ص ٢٧ ـ حيث عنوان : « قتال بين الدلائيين وابن المجاهد العياشي» .

(٢) نزهة الحادى ، ص ٢٧٢ ـ حيث ختام النص : « فلم يمض إلا مدة يسيرة حتى دارت عليهم (أهل الدلاء) دائرة السوء ، ولم ينج منهم أحد » .

(٣) نزهة الحادى ، ص ٢٨١ ـ حيث انبرم الصلح بينهما على ان من الصحراء الى جبل بنى عياش هو لمولاى محمد بن الشريف ، وما دونه لأهل الدلاء .

(٤) نزهة الحادى ، ص ٢٨٤ .

ولم يكن ذلك نهاية الذكر لنشاط العياشيين في مجال التصوف وطرقه المختلفة وزواياه التعليمية . فبعد فترة وجيزة ظهرت الزاوية العياشية المنسوبة الى أيت عياش ، وهم آل رحالتنا أبي سالم عبد الله العياشي ، الذى عرف بأنه من الصوفية المتضلعين فى علم الحقيقة أو العلم اللدني . وكان ظهور الزاوية العياشية الجديدة على يدى حفيده ، وهو حمزه الذى نسبت اليه الزاوية ، مما سبقت الاشارة اليه . وكان نشاط زاوية حمزة العياشية من نوع الجهاد النفسى ، الذى يمهد الى الوصول عن طريق تزكية النفس ـ الى مراتب الأخوة فى الله والولاية والكشف .

رحلة الحج العيّاشية : ماء الموائد

١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م - ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م

بفضل رحلة « ماء الموائد » يعتبر ابو سالم عبد الله العياشي أشهر من نبغ من العياشيين . فرحلته للحج يمكن أن توضع بين دوائر المعارف الاسلامية القديمة ، فهي من هذا الوجه : دائرة معارف القرن الحادى عشر / ١٧م . وهي تنقسم ابتداء ، كما هو الحال في رحلات الحج ، الى سفرتين ، أولاهما رحلة الذهاب ، والثانية رحلة الإياب ، التي عادة ما تكون سريعة الوصف ، مبتسرة من حيث كونها اختصاراً لسفرة الذهاب الرئيسية ، خاصة فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية الطبيعية التي لا تتكرر ، اكتفاء بالاشارة الى ما يستجد عليها من عوارض الطريق، أو سلوك بعض الطرق الفرعية ، أو زيارة بعض الاقاليم الاضافية، مثلما حدث في رحلة العودة فعلا ، عندما قرر العياشي التخلف عن القافلة لزيارة مدينة القدس وتوابعها من بلاد جنوب الشام الفلسطينية ، الى جانب تفادى الطريق الدولي (المحجة الكبرى) من أجل تفادى برك الماء التي قطعته في بعض المواضع كما حدث على التخوم الجبلية الجنوبية بمحاذاة المغرب الأقصى .

والى جانب طريقي الذهاب والعودة يمكن تقسيم الرحلة الى ٦ (ستة) أقسام نوعية ، هي :

١ ـ البيئة الطبيعية ، من : الطرق والمدن والثروات .

٢ ـ السكان والعادات والتقاليد والمعتقدات .

٣ ـ الحالة العلمية والثقافية بما تحويه من موضوعات تقليدية ، من العلوم الدينية والعقلية .

٤ ـ مسألة الطرق الصوفية وحركة الأخوان والزوايا والربط .

٥ ـ النوازل المستجدة وخاصة شرب القهوة والدخان ولبس الصوف الفاخر (من الجوخ) المستورد .

٦ ـ الأحوال السياسية التى تشير إليها الرحلة على طول الجناح الغربى لعالم الاسلام ، من المغرب الأقصى (الجوانى) وحتى مصر وبلاد الحجاز ما بين سنة ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م ، وسنة ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م ، أى خلال رحلات العياشى الثلاث التى ألف منها رحلته: ماء الموائد (١) .

١ - المعلومات الجغرافية :

وتتلخص المعلومات الجغرافية فى وصف الطريق الصحراوى الدولى ، الذى أصبح يسمى بالمحجة أو المحجة الكبرى بمعنى أنه الطريق الرئيسى للحج ، وهو الطريق التاريخى الممتد عرضا من برزخ السويس شرقا الى منخفض تازا غربا ، والذى تتصل به طرق فرعية رأسية ما بين الشمال وبلاد السودان أشهرها وقتئذ طريق سجلماسة ـ أودغست ـ تنبكتو (غانه ـ تكرور سابقا) .

ومن الواضح ان العياشى وهو يختار اسم « ماء الموائد » عنوانا لرحلته ، إنما يقصد التعبير عن انها رحلة العطش ، خلال الصحراوات القاحلة ، كما فى صحراء برقة التى يقال عنها : « غرقة ولا برقة » (ج ١ ص ٣٧٨) ، وصحراء التيه ، بين مصر وسواحل جنوب الشام (ج ١ ص ١٦٣) . والى جانب العطش كانت القوافل تواجه القحط والمحل وقلة الزاد والوباء ، على طول الأرض، من : سبخة ومرملة ومحجرة ، مما كان يزيد فى متاعب الطريق . فالقافلة لم تستطع الدخول الى الاسكندرية سنة ١٠٧٤هـ / ١٦٦٢م ، وكان على العياشى أن يوجه رسائله الشفهية والمكتوبة الى مقام سيدى أبى العباس المرسى يطلب منه العون والمدد (ج ١ ص ١١٥) .

(١) المرجع هنا : الرحلة العياشية ـ صورة ، نشر محمد حجى فى ٢ ج ـ الرباط ـ ١٩٧٧ .

وكانت طرابلس (الغرب) والقاهرة تمثلان أكبر محطتين فى رحلة الحج المغربية التى كانت تستغرق حوالى ٨ (ثمانية) أشهر ـ من أول ربيع الثانى ١٠٧٢هـ / ٢٤ نوفمبر ١٦٦١م (ج ١ ص ١٣) الى ٥ من ذى الحجة ١٠٧٢هـ / ٧ يوليه ١٦٦٢م (ج ١ ص ١٩٠) ، إذ كانتا تقسمان الرحلة الطويلة الى ٣ (ثلاثة) أقسام منفصلة ـ حيث يتم الاستعداد من جديد للمرحلتين التاليتين ، وكأن كلا منهما رحلة جديدة ، من : إعداد المطايا والأدوات اللازمة للمعاش اليومى ، وخاصة القرب أو الروايا التى يحمل فيها الماء. وفى هذا المجال كان سوق طرابلس يشيد بالإبل المحلية وبالقرب المصرية . حيث كان ينصح المسافر بـ « جمل طرابلس وقربة مصرية » (ج ١ ص ٦١) .

أما أهم ما كان يتزود به حجاج المغاربة من القاهرة فكان الفول الذى تسيَّر أحماله على ظهور الحمير التى يكريها عرب الدرب ، الى بلدة المويلح على ساحل البحر الأحمر ، حيث يكون التسليم لأصحابه من الحجاج ـ وكثيرا ما كان ثمن الشراء أرخص من الكراء (ج ١ ص ١٥٣) .

وإلى جانب مشاهد القاهرة كان حجاج المغرب من تونس والجزائر ومن «المغرب الجوانى » (الأقصى) يسعدون ـ الى جانب المصريين ـ باحتفال خروج المحمل بكسوة الكعبة المشرفة مع ركب الحاج المصرى . ويعتبر وصف العياشى لترتيب خروج المحمل من القطع التى تثرى « ماء الموائد » من غير شك (ج ١ ص ١٥٠) ، ومثل هيا يقال أيضا عن عملية ترميم مسجد (مدرسة) السلطان حسن الذى يوصف بأنه « مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد » ، والذى بلغت كلفة جمع أنقاضه ورفعها من الشوارع فقط ٦٠ (ستين) كيسا من الريالات ، دون تكلفه إعادة البناء (ج ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦) .

وفيما يتعلق بالثلث الأخير من الرحلة ، من القاهرة الى الحجاز ، فإن العياشى يمزج فيه ما بين رحلة سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ورحلته الثالثة والأخيرة

سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م ، كما يستعين ـ الى جانب وصفه الخاص ـ بوصف لمؤلف آخر هو رحلة الشيخ محمد البكرى التى ذكر فيها منازل الحج ودياره ذهابا وإيابا (ج ١ ص ١٥٩) . والعياشى محق فى الاستعانة برسالة الشيخ البكرى ، فهى تتميز عن غيرها من رحلات وصف الطريق الى مكة بالدقة المتناهية . فإلى جانب المنازل والديار يحقق الشيخ البكرى ما فى كل مرحلة من الساعات والدرج والدقائق ، وصعوبتها وسهولتها . وكل ذلك بنثر بليغ ، الأمر الذى كان يستهوى العياشى ، محب الأدب والشعر ، الى جانب العلم والفقه والتصوف .

وهكذا يبدأ العياشى رحلة الخروج من مصر الى درب الحجاز بمقتطفات من رسالة الشيخ البكرى ، عن : « عجرود حيث أتانا أهل بندر السويس وعطفوا علينا انعطاف الأغصان فى الميل والميس ، وأهدوا الينا المشاعل والأغنام ... » (ج١ ص ١٦١) ، ثم يقول : « ولنرجع الى ذكر رحلتنا » (ص ١٦٢) . وهكذا دواليك على طول المراحل ، مع بدء مقتطفات البكرى بكلمة « تتميم أو تتمة » (ج١ ص ١٦١ ، ١٦٧ الخ) .

وعلى هذا المنوال تستمر المراحل جنوب بلاد الشام ، حيث العقبة ، وأرض التيه ، وقلعة نخل المحمية حيث تكثر الفواكه الشامية (ج ١ ص ١٦٥) ، قبل الوصول الى بندر المويلح حيث مخازن الفول المصرى المحمول على الحمير من القاهرة ، وحيث موقع الدركتين : درك أعراب مصر ، وأعراب الحجاز . وبعد ذلك تمثل العقبة السوداء أول أرض الحجاز (ج ١ ص ١٧٦) .

والجو فى المنطقة قارى صعب ، فالرياح باردة صباحاً ، وهى فى وسط النهار سموم لا تحتمل . أما الماء فهو سمّى ، كما فى « السبع وغرات » (ج١ ص ١٧٧) .

وهكذا لا يستبشر الناس الا بعد الوصول الى الينبوع (ينبع) لأنها أول الحجاز حقيقة (ج ١ ص ١٧٨) . ويكون دخول مكة فى ٥ من ذى الحجة

وفمبر ١٦٦٢م ، والدخول الى المدينة فى المحرم ١٠٧٣هـ / ٣ ديسمبر ١٦٦٠م .

وفى مكة والمدينة تكون المزارات أهم ما يشغل بال العياشى .

أما أهم ما يضيفه فى رحلة العودة فهو وصف القدس وما يلحق بها من بلاد سواحل (جنوب) الشام ، من العقبة الى فم النقب والرابية ووادى الفارغ ثم غزه (ج ٢ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣) وعسقلان والرملة ومدينة لدّ (اللّد) ثم القدس الشريف ومسجدها المقدس والمسجد السليمانى الذى تحته (ص ٣١٥ ـ ٣١٦) ثم بيت لحم والمرور بالخليل .

وكانت العودة من غزة الى العريش ودمياط من حيث ركوب النيل الى بولاق (القاهرة) عبر فارسكور وشربين ومنية غمر ، وكرش البقرة (القناطر ؟) ثم الاقامة فى القاهرة ١٤ (أربعة عشر يوما) . وكان الخروج من القاهرة فى النيل الى الاسكندرية حيث النزول فى باب السدرة ، وزيارة العياشى ضريح أبى العباس المرسى ، والشيخة الست نعيمة (ج ٢ ص ٣٦١) .

وكان الخروج من الاسكندرية نحو المغرب فى يوم الجمعة ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٠٧٤ هـ/ ٤ نوفمبر ١٦٦٣م ، عبر بادية برقة المتناهية الأطراف ، المخوفة الأكناف ، عبر العقبتين « نرد المناهل التى ذكرناها فى الذهاب » (فى ١٠ أيام بسبب الوحل) (ج٢ ص ٣٦٩) ، ومقاساة الجوع مع البرد (ج٢ ص ٣٧٠)، الى الجابية (اجدابية) ، آخر الجبل الأخضر ، الى قصور سرت الخالية. وكان المرور بعد ذلك أسفل السبخة ، حذاء قطع الكبريت الى أطراف الشعاب المشرفة على الساحل ، الى حسان (قصور) ، آخر برقة من حيث تبدأ أوائل العمران، حيث «خيّل الينا أن المبانى والنخيل شيء ما عرفناه» (ج٢ ص ٣٧٨).

وكان النزول فى تكيران ، بلد سيدى أحمد زروق ، قبل الوصول الى تاجوراء تحت المطر وخوض الوحل الذى أضر بالأبل (ج٢ ص ٣٧٩) .

وفى طرابلس دخلت الأركاب الآتية من المغرب (للحج) ، من : فاس ومراكش (ج٢ ص ٣٨٠) ، ومن ثم ركب أهل تونس (ج٢ ص ٣٨٢) .

وكان الارتحال من طرابلس فى ٥ شعبان الى مدينة قابس التى تمّ الوصول اليها فى ١٦ يوما (٢١ شعبان) ، عبر : الزاوية الشرقية ، وبرج الملح ، والسوانى ثم حاسى السلطان . أما المحطات من الحامة الى توزر فهى نبش الديب ، ومعدن الزجاج ، وقصر الرمان، وزاوية سيدى حامد ، وزاوية الرمل حيث السبخة الكبيرة، وزاوية سيدى أبى هلال ، ودقيوس ثم غار أهل الكهف (ج٢ ص ٤٠٥) . ومن توزر الى بسكرة يكون المرور بنفطة ، وحاس السلطانية ، والكلابية ، والأعرج من حيث يكون الخروج من الرمل الى أرض صحيحة ثم حيث زبية حامد ، وبلد سيدى عقبة (تاهوده القديمة) (ج٢ ص ٤١٠) .

ومن بسكرة الى الأغواط يكون المرور بقرية مليلى ، وزاوية الشيخ الأخضر، والرويسة ، ووادى سيدى خالد ، وخرزة البطن ، والجرف ثم أولاد سيدى مخلوف (ج٢ ص ٤١٧) .

ومن الأغواط يتجه الطريق الصحراوى القاطع جنوبا بغرب ، نحو وادى مساعد ثم الطلوع الى الحمادة فى منطقة بخيلة تقاسى فيها الإبل من الضعف والجوع ، الى قرية المايه التى لا يعيش فيها إلا رجلان أو ثلاثة ، فى غاية من الضعف والجوع أيضا . ومن هناك يكون الدخول فى الجبل بداية الطريق الى أودية وعرة نحو وادى الغاسول ، من حيث تكون العودة الى طريق الحج الكبير وقرية الكراكه حيث الغلاء على أشده ، ومن ثم الوصول الى الأغواط الغربية حيث يبدأ العمران من جديد ، وذلك فى ٢٨ من رمضان ، فى بئر صمغون من حيث بعث الحجاج يبشرون أهلهم بقرب الوصول الى بلادهم ، سواء فى مكناسة أو مراكش وفاس وتافلالت (ج٢ ص ٤١٩) .

ومن هنا بعث العياشى بكتاب الى إخوانه خرج مع المبشرين فى صبيحة يوم العيد . وتتكون أهم نقاط الطريق النهائى الذى سلكه العياشى على حمار لضعفه عن المشى بعد موت فرسه ، من : قرية سندانه ، وفجيج ، حيث الوصول فى اليوم الخامس من مغادرة بئر سمغون ، وفى طريق تمزوغه وجدوا الرقاصين (الرسل) الذين جاؤا من مراكش ومكناسة (ج٢ ص ٤٢٠) .

وفى ٧ شوال كان المسير فى الطريق من فجيج الى مراكش فى طريق حرشة بين جبلين ، حيث المرور بالثوميات ، ومرغل ، وبوكايس ، ووادى زلموا ، وقرية الحجرى ، والسهلى ، وغدوسية ، وتولال ، وتكر يرن ، حيث لقاء الأخوان المستقبلين ، وكان الوصول الى بلد العياشى ظهر يوم الأربعاء ١٧ شوال سنة ١٠٧٤هـ / ١٤ مايه ١٦٦٤م (ج٢ ص ٤٢٢) .

٢ ـ السكان والعادات والتقاليد والمعتقدات :

وفيما يتعلق بالسكان ، والعادات والتقاليد على طول الطريق الصحراوى الكبير ، لا يهتم العياشى كثيرا فيما يتعلق بأهل البلاد الذين مرّ بهم إلا بما يتصل بتعاملهم معه أو مع أهل القافلة من البيع والشراء أولا ثم الأمن والسلامة ، سواء من قطاع الطريق أو من جباة الضرائب أو من الفتن بين بعض الطوائف والبعض الآخر ، مما يتصل بالغارة أو الأخذ بالثأر أو ما شابه ذلك ، مما يحدث بين بدو العرب أو الأعراب فى مواطنهم بالمغرب أو بسواحل الشام الجنوبية أو بأطراف الحجاز .

فغالب أهل منطقة توات ـ مجمع قوافل تنبكتو ـ عوام أهل تجارة ، وجل معاشهم على التمر . والعياشى لم يجد بينهم أهل صلاح أو علم ، فكأن رحلة الحج قد تحولت عنده الى رحلة فى طلب العلم . والذهب فى توات أرخص منه فى تافلالت (سجلماسة القديمة) ، وصرف المثقال عندهم ٢٤ (أربع وعشرون)

موزونة (ج١ ص ٢٠) . أما عن النساء فى توات فالنشوز عندهن ظاهرة معروفة ، يتم مكافحتها (ج١ ص ٢٤) .

وأهل الواحات فى المغرب الأوسط يعيشون على النخل والتمر . وهم أهل مودة وحسن عشرة . والإباضية منهم ، مثل أهل وارجلا يسمون أشياخهم بعم فلان ـ فكأنهم أسرة واحدة . وهم من البساطة فى أمور العلم والدين حتى ان خطبة الجمعة عندهم تقام باسم الخاقان العثمانى وباسم المهدى الذى يظن انه محمد بن تومرت شيخ الموحدين (ج١ ص ٤٦) . ومن العادات المستغربة أنهم يلقون بثياب موتاهم عند باب المدينة (ج١ ص ٤٨) ـ فكأنها صدقة فى متناول من يحتاج إليها . ولضعف العلم أيضا والبساطة يصف العياشى أهل وادى ريغ ، ببلاد الرمل بالامتياز (ج١ ص ٥٢) ، فهم يسكنون فى زرايب جريد النخل (ج١ ص ٤٦) . أما علماؤهم فهم بله لا يكادون يفقهون حديثا (ح١ ص٥٠) .

أما أهل نفزاوة فهم يحرثون على البقر ، وفرسانهم يهوون ممارسة رياضة الصيد بالصقور وهم على ظهور الخيل (ج١ ص ٥٥) ، بينما كان أهل سوف يعيشون على الصيد بالكلاب التى يقتنونها ويعتنون بتربيتها (ج١ ص ٥٢) . أما بلاد الجريد فهى الى جانب النخل والتمر تعتبر بلاد البغال والحمير ـ التى يسافرون عليها حتى طرابلس .

ومن أهم معالم طرابلس الغرب زاوية سيدى عبد السلام الأسمر حيث حلقات الذكر ، وسماع المدائح النبوية طوال الليل على النقر بالطار المزنج (المصنج) (ج١ ص ٩٥) . أما عن عرب برقة الفقراء ، فلا يوصفون إلا بالكفر والنفاق، حيث أنهم لا يعلمون حدود الله (ج١ ص ١٠٦). ولما كانت برقة وخاصة جبلها الأخضر بلد الرعى بالامتياز ، فقد كان للابل والغنم راعيها (وحارسها) ، وهو سيدى عزيز ، صاحب القبر الموجود فى سطح العقبة (ج١ ص١١٠) .

وفى القاهرة لفت نظر العياشى عادة خروج النساء الى المقابر يوم العيد،وهو يعتبر ذلك من العادات المذمومة (ج١ ص ١٣٢) . هذا ، الى جانب عادة شرب القهوة التى كان الشاذلية أول من استعملها (ج١ ص١٣٣) حيث كانت تعين على السهر فى حفلات الذكر .

أما عن يوم الزينة فى احتفالات المحمل فقد أثارت قريحة العياشى حتى وصف تلك الاحتفالات وصفا عجيبا (ج١ ص ١٥٠) ، الى جانب احتفال ركب الحاج المصرى بضرب المدافع على طول الطريق (ج١ ص ١٦٧) [١] .

وفى منطقة العقبة السوداء ، ما بين درك أعراب مصر ودرك أعراب الحجاز كانت تنتشر جماعات من الحرامية قطاع الطريق (ج١ ص ١٧٦) . أما موضع السقائف بعد الينبوع (ينبع) فكانت فيه دار الوقود التى يشعل فيها الشمع المجلوب من مصر . وعند جبل الرمل المشرف على موضع بدر (الغزوة) كانت تسمع الطبول (ج١ ص ١٨١) ـ على ما هو دارج بين الناس هناك ، فكأنها صدى لطبول المجاهدين الأوائل . هذا ، ولو أنه من الأمور المستغربة ان بعض الرجال من شباب الينبوع عندما سئل عن مكة قال للعياشى : « ما حججت قط» ، وبينه وبين مكة ٨ (ثمان) مراحل ، كما يذكر أيضا أن الرجل قال انه لم يدخل المدينة إلا مرتين أو ثلاثة ، وبينه وبينها ٣ (ثلاث) مراحل فقط (ج١ ص ٣١٢) .

أما عن أغرب مشاهد الحرم المكى الشريف فى الرحلة العياشية فهو أعجوبة الرجل والمرأة اللذين وجدا مجتمعين فى الحرم ، وفسرا فعلتهما الغريبة بالرغبة فى الإنجاب الذى تعذر عليهما ، تبركاً بالمكان المقدس (ج١ ص ٢٤٤) . والروافض من الشيعة يعرفون فى الحجاز باسم النخاولة بسبب اشتغالهم بغرس النخيل ورعايته (ج١ ص ٢٧٢) .

---

(١) هذا ، وتتكرر قطعة خروج المحمل فى الجزء الثانى ، من ص ١٥٠ الى ص ١٦٠ .

وفى المدينة كانت الصلاة على الجنائز تتم بالحرم الشريف الا الروافض كالنخاولة . وكذلك الأمر بالنسبة لعقد القران حيث كان يؤتى بأطباق الرياحين واللوز والسكر بين الصفين (ج١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦) .

ومع قدوم فصل البرد كان أهل المدينة يتدثرون بالثياب الكثيفة ، الأمر الذى جعل أهل المدينة من أرفه الناس . وتظهر الرفاهية عند سيدات المدينة بصفة خاصة ، وذلك عندما كن يطالبن بعادة الشخشخة ، التى كانت تسمح للمرأة بالحصول من زوجها على مبلغ مناسب من الريالات ، ثمنا لشراء الأزهار والرياحين (ج١ ص ٣٠٣) .

أما عن وصف الهريسة ، وهى الطبخة الحجازية المفضلة فى المدينة والمكونة من القمح واللحم فيمكن اعتبارها من غرائب التقاليد فى دنيا الطبيخ (ج١ ص٢٧٥) .

ومن الاعتقادات الشعبية الغريبة أيضا أن مرض الحمّى المتوطن بالمدينة مقبول على أنه محنة لتمحيص الذنوب (ج١ ص ٢٧٨) .

وفى المدينة كان من عادات الصوفية تقديم القهوة للضيوف (ج١ ص ٣٢٩) . هذا ، كما انتشر شرب القهوة فى المقاهى التى أصبحت مواقف للاستراحة فى الطريق من المدينة الى مكة ، وشرب القهوة (ج٢ ص ١٠٢) . وبلغ الأمر فى ارتياد المقاهى الى حد ترك العير تسير وحدها ليلاً وعلى ظهورها أحمال البز الغالى الثمن ، المستورد من الهند ، وأصحابها فى انتظارها بالقهوة ، دون قلق (ج٢ ص ١٠٩) . والى جانب الابل كانت الحمير تمثل وسيلة المواصلات المعتادة بين مكة وجدة ، وكان أصحابها يمثلون ما يمكن ان يوصف بشركة تضامن لنقل الركاب بين المدينتين ، حيث كان مستأجرو الحمير يركبون وحدهم ثم يطلقون الحمير فتعود وحدها إذ لكل واحد من أصحاب الدواب نائب فى غير البلد الذى هو فيه (ج٢ ص ١١٠) .

ومن احتفالات الاسكندرية السنوية التى شاهدها العياشى فى طريق العودة، مولد الاخوان الشاذلية السنوى بالقلعة الشرقية (باب شرق حاليا) (ج٢ ص ٣٦٤). كما اشتهرت وقتئذ بالاسكندرية الشيخة الست نعيمه التى كانت تتنبأ بالمستقبل ، والتى زارها بعض أصحاب العياشى ، وعرفتهم أنهم سيبقون بالاسكندرية ٧ (سبعة) أيام بدلا من يومين أو ثلاثة ، كما كانوا يريدون (ج١ ص ٣٦١) .

وكانت العادة عندما تضلّ جماعة من أهل الركب عن القافلة ليلاً ان توقد النار ، ويرفع مصباح مضىء على رمح ، ويضرب بالطبل والمدافع (ج٢ ص ٣٧٧) .

٣ ـ الحالة العلمية والثقافية :

تدل الرحلة العياشية فى بعض المواضع على أن رحلة الحج لم تعد قاصرة على وصف مراحل الطريق الى الحرمين الشريفين الى جانب التعريف بمناسك الحج ، بل أصبحت نوعا مما كان يسميه المغاربة « الفهرسة » التى تعنى عرضا لاساتذة المؤلف والعلوم التى أخذها عنهم ، وكذلك من وقفوا منه موقف المتلقين: رواية أو قراءة أو إجازة .

وأهم المراكز العلمية فى الرحلة أربعة ، اثنان منها على طول الطريق ، وهما طرابلس (الغرب) والقاهرة ، وهما الموقفان الرئيسيان ، حيث يتجدد إعداد الركب من أجل استئناف السفر ، من حيث آلات الركوب ، وحمل الماء والطعام على وجه الخصوص ، أما المركزان الآخران فهما مكة المكرمة حيث الوافدون من علماء الحجاج من أرجاء الدنيا ، والمدينة المشرفة حيث المجاورون منهم لمقام النبى الشريف ــ وهم كثيرون ، وكان منهم العياشى نفسه أثناء رحلته الثالثة ، حيث جاور بالمدينة عدة أشهر (ج٢ ص ٣٨٠) .

وفى المرحلة الأولى من الرحلة ، فى بلاد الحَمادة والرمل ، توصف قرى العمران فى وادى الساورة بأنها ذات نخيل وبساتين . وهناك تم لقاء سيدى ابراهيم السوسى الذى كان على دراية بالشعر حتى سئل عن جواز اللحن فيه (ج١ ص ١٠٩) . ولم يمنع ذلك من وصف أهل توات بعد ذلك بأنه لا يوجد بينهم « من ينتسب الى ولاية أو صلاح ، أو من أهل العلم والفلاح ، وأن غالب أهلها عوام أهل تجارة ... » . وهكذا كان خطيب توات يقرأ من ورقة بين يديه ، ومع ذلك فهو يكثر اللحن فى الخطبة التى ختمها بقوله : « فقد نصحكم الواعظ يا أهل الاسلام ، فاقبلوا النصيحة والسلام » (ج١ ص ٢١) .

أما عن قرية والن من بلاد أوجرت (أوكرت) ـ بعد بحار الرمل ـ فلم يكن بها الا نخلات معدودة ، ورجل واحد معه عدة نساء من قرابته . وفى ضريح سيدى محمد بن موسى مؤسس تلك القرية ، وجد العياشى سفراً من نوازل البرزلى عليه اجازات بخط مشرقى ، الأمر الذى أثار عجبه ، وجعله يظن أنه من كتب سيدى محمد بن اسماعيل المتوفى بتاجوره سنة ١٠٦٤هـ/ ٤ ـ ١٦٥٣م، والذى كان قد أوصى بكتبه للروضة النبوية ، وأوصى بأن يحنّط (يصبّر) جسده، ويحمل الى المدينة المنورة ويدفن فيها . وفعلا عندما مرّ سيدى على بن الشيخ الحفيان للحج حمل الكتب الى المدينة ، وضاع كثير منها بسبب ذلك (ج١ ص ٤١) .

ورغم وصف أهل تكرت عاصمة وادى ريغ بأنهم بله لا يكادون يفقهون حديثا كما قال العياشى ، فالظاهر ان ما وجهوه إليه من كثير الأسئلة جعله يظهر كل ما لديه من معلومات شفهية ومخطوطة ، فقد استحسنوا قصائده الوتريات ، كما أخذ منه سيدى محمد بن ابراهيم الكراسة التى كان قد جمع فيها معانى «لو» الشرطية ، وكراسة « الزهد فى الدنيا الفانية » ، وأعطاه فى مقابل ذلك تأليفا له اغتبط به العياشى كثيرا ، كما يقول . وهناك أيضا قرأ عليه سيدى

محمد بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الاشبيلي في ألقاب الحديث (ج١ ص ٥٠) .

وفي بلدة زريق التونسية رأى العياشي سنة ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م سيدي عبدالله بن عبد العزيز، أحد سادات الحمارنة ، وصاحب الزاوية التي عرفت باسمه، وكان مولعا بعلم أعداد الحروف حتى قيل ان ذلك كان السبب فيما ورثه من الضعف والمرض . أما أخو الشيخ فكان يشتغل بعلم الحدثان وعلم الزايرجه (ج١ ص ٥٥) .

ومن كبار المشايخ الذين يأتي ذكرهم قبل دخول طرابلس : سيدي محمد بن مساهل الذي كتب اليه العياشي يعرفه بقدومهم ، ويرجوه معاونة صاحبهم الذي أرسلوه اليه في قضاء حاجاتهم من مسكن وغيره (ج١ ص ٥٩) .

وفي طرابلس وأثناء ، فترة الاستعداد للمرحلة القادمة لم يتباطأ في الكتابة الى اشياخه وأصحابه بالمغرب نثرا ونظما . ومن ذلك ما كتبه الى قاضي القضاة ابن سوده بفاس ، يقول له : شيخي وشيخ مشايخي ، ويصفه بحبيبه من أهل التقى (ج١ ص ٦٩) . أما عن سيدي أبي عمرو عثمان بن علي فقد كتب اليه باسم الأخ الصالح ، وضمّن كتابه فنونا من المخاطبات والمداعبات والمعاتبات ، نظما ونثرا ... (ج١ ص ٧٦) .

هذا في طريق الذهاب ، أما في طريق العودة فقد التقى بطرابلس بالحاج عبد الله بن غلبون في منزله بقصر أحمد ، وسيدي أبي العباس خادم سيدي أحمد زروق (ج٢ ص ٣٧٨)، ثم سيدي محمد اليربوعي ، والشيخ الصيدلاني وولده عبد الحفيظ (ج٢ ص ٣٨٠) .

وممن لقيه أيضا في طرابلس الشيخ عاشور القسنطيني الذي كان سائرا للحج في ركب تونس ، وهو ينوي المجاورة في المدينة المنورة . والقسنطيني يروي عن التواتي والسنوسي والسوسي والسنهوري . وعندما كتب له العياشي يطلب منه

الاجازة اعتذر بضيق الوقت (ج٢ ص ٣٨٢). ومن العلماء الذين التقى بهم العياشى فى طريق العودة بطرابلس مفتيها الشاب الظريف سيدى محمد المكى ، وبيتهم بيت علم منذ أسلافهم . وهنا يلاحظ العياشى انه لم تكن للرجل رحلة فى طلب العلم ، فكأنه لم يكن من المبعوثين الى أوروبا أو أمريكا ، كما هو معروف اليوم . والمكى هو الذى ولى الفتوى فى طرابلس بعد ابن مساهل (ج٢ ص ٣٨٤) .

وفى طرابلس كان اللقاء مع أمير ركب الحج الجزائرى ، الشيخ الفقيه سيدى محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطينى (ج٢ ص ٣٩٠ .. حيث القسمطينى) . وكان العياشى قد أخذ عن والده عبد الكريم الفكون القسنطينى عندما حج معه فى سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م ، وطلب منه الدخول على يديه فى الطريقة الشاذلية ، كما أخذ عنه بعض مؤلفاته ، مثل : شرحه لأرجوزة المكودى ، وديوانه فى مدح النبى صلعم (ج٢ ص ٣٩١) .

وواضح من رحلة العياشى ان البلاد الصحراوية فى كل من طرابلس وافريقية التونسية ـ الجزائرية كانت تنعم بمستوى ثقافى جيد فى ذلك الوقت من القرن الـ ١١ هـ / ١٧ م . فمدرسة زنزور توصف بأنها من أحسن المدارس التى فى تلك السواحل . وكان من العاملين فيها حينئذ سيدى محمد بن بلقاسم الغريانى الذى يوصف بالنسك والخشوع (ج٢ ص ٤٠٣) . وفى منطقة حاسى السلطان كان أحد تلاميذ العياشى ، وهو سيدى محمد المعمرونى ، لديه بعض الكتب ، مثل مختصر معالم الايمان (لابن ناجى) (ج٢ ص ٤١٤) .

أما قابس فكانت شاغرة من العلوم الى حدّ أن قاضيها سيدى عيسى بن على العبسى كان مغربيا من بلد دكالة (ج٢ ص ٤٠٥). وعلى العكس من ذلك كانت توزر مركزا علميا لا بأس به ، إذ كان فيه بعض المبرزين من الطلبة ، مثل: سيدى أحمد المولى ، الذى وصف العياشى علمه بأنه « لا بأس به » ،

والذى سأل عن بعض المسائل الفقهية التى أظهرت أنه « بَحَث بَحْث مستفيد عالم بقواعد البحث » (ج٢ ص ٤٠٧) .

أما عن نفطة وتوابعها من منطقة الزاب ، وهى بلاد الرمل ، فيقل فيها التحصيل (ج٢ ص ٤١٠) حتى أن وجود رجل من الصالحين فى بسكرة ، يجمع بين العلم والعمل ، كان حدثا يستحق التسجيل ـ وان كان ذلك ربما كان بسبب وفاته فى الوباء (ج٢ ص ٤٢١) .

وفى خارج الزاب فى قرية مليلى كان للشيخ عبد الرحمن الأخضر مكانة علمية حسنة ، فهو صاحب زاوية أى مدرسة صوفية ، كما يوصف بأنه إمام جامع بين علمى الظاهر والباطن ، فهو صاحب منظومة فى المنطق تسمى «السلم المرونق» ، كما ألف منظومة فى السلوك تشابه المباحث الأصلية . هذا ، كما كان له مقدمة مشهوره عند أهل ذلك البلد (ج٢ ص ٤١٣) ، والمشهور عنه أيضا أنه أظهر القبر الذى فى بلاد الزاب ، المنسوب لنبى الله خالد بن سنان (ج٢ ص ٤١٤) ، فكأنه من رجال الكشف عن الآثار حسب المصطلح الحديث .

أما عن القاهرة فقد كان الأزهر الشريف مركزها العلمى بالامتياز ، وكانت المنطقة المجاورة له تعرف بالمجاورين نسبة الى سكانها من العلماء والغرباء من الطلبة والفقراء ، الوافدين من شتى أرجاء عالم الاسلام . وهكذا كانت سكنى العياشى قرب الأزهر بمحل يقال له « البردكية » . وفى نفس اليوم الذى وصل فيه العياشى التقى بالشيخ عبد الجواد الطريينى ، والشيخ أبى ابراهيم الميمونى : شيخ مشايخ الاسلام ، كما قام بعد ذلك بزيارة شيخ القراء ورئيس التجويد الشيخ سلطان . ولاحظ العياشى ان التعليم فى الأزهر كان ليلاً ونهاراً ، وهو من هذا الوجه « عديم النظير فى مساجد الدنيا » (ج١ ص ١٢٦ ـ ١٢٧) ، تماما كما كانت « مصر أم البلاد شرقا وغربا ، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خير وشر » (ج١ ص ١٢٢) .

وبمناسبة نهاية شهر رمضان كان ختم المشايخ لدروسهم فى الأزهر بختم الشيخ عبد السلام اللقانى . ورغم رؤية هلال شوّال الذى كان يتحدد بالنظر المباشر ، كان للفلكيين دورهم فى تحديد نهاية رمضان فى اليوم الـ ٢٩ (التاسع والعشرين) ، وهو يوم الختمة (ختمة القرآن) ، إلا أنه لم يؤخذ بهذا الرأى ، الأمر الذى ارتاح له العياشى ، إذ يقول : « فكذب الله أقوال المنجمين » (ج١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠) .

والى جانب التدريس بالأزهر كان المشاهير من المشايخ يقومون بالتدريس فى دورهم . وهكذا كان على العياشى ، على أواخر أيام إقامته بالقاهرة حضور دورس الشيخ الميمونى : شيخ مشايخ الاسلام ، فى صحن داره ، حيث كانت قراءة مختصر السعد ، بحضور أكابر الطلبة . والى جانب الحديث كان الشيخ الميمونى ضليعا فى تاريخ مصر والخلافة العباسية (ج١ ص ١٤١ ـ ١٤٢). والى جانب كل من قاضى المالكية الشيخ عمر فكرون الذى يوصف بشيخ الشيوخ (ج١ ص ١٣٨) ، والعلامة الشيخ البيضاوى ، عرف العياشى الشيخ ابا الحسن على الأجهورى بأنه شيخ مشايخ الاسلام ، كما عرّف بأنه من كبار المفتين الذين عرفهم الأهر . وفى ذلك يذكر العياشى غريبة الطالب المغربى الذى ضرب الشيخ الأجهورى بالخنجر أثناء حلقة الدرس فكاد يتلف يده ـ ليس لشىء إلا أنه لم يرخص له بطلاق زوجته (ج١ ص ١٣٧) .

وفى طريق العودة يعتذر العياشى لأنه لم يتيسر له لقاء إلا القليل من مشايخ مصر، حيث لم يقم بالقاهرة إلا آسبوعين فقط (ج١ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

أما عن مكة فقد لقى بها العياشى الشيخ العلامة أبا مهدى عيسى بن محمد الثعالبى (الجزائرى) ، المجاور وقتئذ بالحرمين (ج١ ص ١٩٢) . أما عن المدينة فكان أقدم المجاورين فيها هو الشيخ محمد الفزارى المالكى ، مرشد العياشى الى أشهر المزارات هناك (ج١ ص ٢٣٧) .

وفى المدينة يظهر العياشى بمظهر الزعيم الدينى لجماعته من المغاربة المالكية . فهو بعد الصلاة خلف إمام الحنفية ، يأمر أصحابه من المالكية بالإعادة (ج١ ص ١٩٣) ، وان كان يقبل صلاة الحنفية رغم الاختلاف فى هيئتها ، فى موضع آخر ، إلا أنه يشير الى ان بعض المالكية عندما صلى فى بعض أطراف الشام ورأوه سادلاً يديه ، ظنوا أنه رافضى (ج١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢) .

وهو يقوم بالتدريس فى مؤخر المسجد النبوى ، فيقرأ مختصر الشيخ خليل فى فقه مالك ، وذلك فيما بين العصر والمغرب (ج١ ص ٢٧٦) ، وكذلك مقدمات الشيخ السنوسى . وهنا لا يعرض العياشى لبعض الموضوعات التى لم يكن قرأها ، فلا يقرؤها (ج١ ص ٢٧٨) . هذا كما كان يجلس مجلس التلميذ من المشايخ والأقران (ج١ ص ٢٧٩). ومما يرويه العياشى فى هذا الشأن تعرضه لنقاش فلسفى مع بعض مشايخ الشيعة الأصفهانية . فقد أظهر الرجل أنه مالكى، لكى يفاجىء رحالتنا بعد ذلك بسؤاله : « ما معنى الله » ومن ثم «ما معنى العلم » . وبطبيعة الحال تحيرّ العياشى فى أول الأمر ثم أنه تمالك وأجاب بما يعرفه من ان الله : « علم على الذات الواجب الوجود الى آخر ما يقال فى ذلك»، وان فهم بعد ذلك ان الأصفهانى كان « يريد البحث فى مسألة الاسم ، وهل هو عين المسمى أو غيره ، وانه انتقل الى الكلام فى مسألة الصفات التى دار حولها حوار مع الشيخ أحمد بن التاج رئيس الموذنين بالحرم الشريف (ج١ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣) .

وكان بدء شهر ربيع الأول الذى يسميه العياشى « ربيع النبى » أشبه ما يكون ببدء السنة الدراسية فى الحرم النبوى ، الذى نظف وفرش بفرشه المعهودة من الزرابى المبثوثة الحسان ، والتى كان بعضها من الحرير الهندى الخالص . وهكذا أخرجت الكتب ، وشرع الأئمة فى القراءة والتدريس (ج١ ص ٤٨٤) . وهنا يقرر العياشى ان العطلة الاسبوعية للدراسة فى الحرم المدنى ـ الذى ظهر

وقتئذ بمظهر الجامعة ـ كانت يومى الثلاثاء والأربعاء ـ أى وسط الاسبوع ـ مقارنة بالعطلة فى بلاد المغرب المراكشية التى كانت فى يومى الخميس والجمعة ـ أى عطلة نهاية الأسبوع (ج١ ص ٢٨٧) .

أما عن المشايخ الذين أخذ عنهم العياشى ـ بالمدينة ـ وأخذوا عنه ، فيذكر منهم الشيخ أبا الحسن على بن محمد اليمنى ، الذى التقى به فى رحلة سنة ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م ، وقد أجاز له ـ وكانت تلك الاجازه من المواد التى زود بها كتابه فى فهرسة اساتذته التى سماها « اقتفاء الاثر » . وأما الملا (الشيخ) ابراهيم بن حسن الكورانى الشهرزورى فقد اشتهر بالتصوف ، كما اشتهر بتدريس الحديث المسلسل بالأولية بشرطه (ج١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٩) .

ومن الشيوخ اللامعين ، الشيخ زين العابدين الطبرى الحسينى ، مفتى الشافعية ، الذى لقيه العياشى سنة ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م ، وقرأ عليه ونال إجازته، ولو انه لم يتمكن من القراءة عليه فى رحلة سنة ١٠٧٤هـ / ١٦٦١م لكثرة مشاغله (ح٢ ص ١٢٥) . والى جانب العلامة سيدى أبى محمد عيسى الثعالبى الجعفرى ، لقى العياشى ثعالبيا آخر من نفس الأسرة ، هو سيدى عبد الرحمن صاحب الشهرة مثله ، كما لقى من علماء الجزائر أيضا سيدى سعيد بن ابراهيم قدوره ، وسيدى سعيد المقرى (ج٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧) .

أما أشهر علماء غزة ـ التى تظهر فى شكل عاصمة الساحل الشامى الجنوبى ـ فكان الشيخ عبد القادر الغصين « صالح العلماء ، وعالم الصلحاء » (ج٢ ص ٣٠٣). وفى الرملة كان اللقاء مع الفقيه الصالح ، السيد : محمد بن أبى الوفاء الأشعرى الحسينى (ج٢ ص ٣١٠). أما ألمع أعلام القدس فكان الشيخ محمد العلمى الذى خلفه ابن أخيه عمر العلمى (ج٢ ص ٣٢٣) بينما كان قاضيها الشيخ محمد النفاثى التونسى (ج٢ ص ٣٢٤) .

٤ ـ الطرق الصوفية وحركات الأخوان فى الربط والزوايا :

أصل حركة الربط أو الخلوات والزوايا هى الفتوح الاسلامية الأولى ، حيث كانت العسكرة على الحدود من أجل مدافعة العدو ، فى البر أو فى البحر . ونتيجة لكثرة المغانم التى حققها المسلمون فى فتوحاتهم ، وخاصة من الأموال والنساء ، ظهر الميل الى التمتع بمباهج الحياة بين النخبة من الفاتحين . وكرد فعل لحياة المتعة والترف ظهر بشكل معاكس الاتجاه الى التقشف والميل إلى الزهد فى الدنيا ، وخاصة فى أوساط المجاهدين من العباد فى الربط والمعسكرات ، فكأن الزهد والتصوف ونقيضه من أتجاه المتعة والترف كانا توأمين لأب شرعى واحد ، هو الجهاد .

وهكذا عندما توقفت الفتوح وبدأت حرب الاسترداد التى نهضت بها أوروبا اعتبارا من القرن الخامس الهجرى / ١١ م ، سواء فى المغرب والأندلس وصقلية أو فى بلاد الشام قلب العروبة والاسلام ، كانت تلك الهجمة الأوروبية من عوامل انقسام الجهاد ـ قاعدة الاسلام السادسة ـ المتأزم الى شطرين ، أحدهما ايجابى يتمثل فى جهاد العدو فى ميادين القتال ، والآخر سلبى يمثل جهاد النفس عن طريق تعذيب الجسد فى سبيل تزكية النفس ، بالحرمان من متع الحياة أياً كانت الى جانب أداء الفرائض واقامة حلقات الذكر وتلاوة الأوراد والاحزاب فى الربط والزوايا ، التى أصبحت تقام للمشايخ والأولياء ، والاعتقاد فيما ينسب إليهم من الكرامات والمعجزات .

وهكذا ، ومع ضعف الدويلات الاسلامية وعجزها عن حماية أرض الاسلام ، زاد ازدهار حركة الطرق الصوفية التى أخذت على عاتقها عبء الجهاد، وخاصة فى بلاد المغرب ، بعد انهيار الأندلس فى القرن الـ ٩ هـ / ١٥م . وهكذا كان التصوف فى القرن الـ ١١هـ / ١٧ يمثل شكل الاسلام الحىّ ، من حيث التفتت الى طرق صوفية يعدد منها العياشى ٤٠ (أربعيين)

طريقة ، أخذ بعضها على عاتقه الاشتغال بالسياسة والحرب ، كما اشتهر بعضها بفضل مشاهير مشايخها من أهل العزم والكرامات والحزم . وكان لهم ، أحياءً وأمواتاً ، نوع من القداسة التى يرتجى منها إقبال الخير ودفع الشر .

ومعظم الطرق المغربية متفرعة عن الطريقة الجيلانية القادرية البغدادية ، مثل : الدلائية والعياشية ، أو التى أتت بعدهما ، من التجانية والسنوسية .

والمبهم فى رحلة العياشى الذى كان ميالاً للتصوف أنه يعرف بالطرق المشرقية التى لم تكن معروفة بشكل كاف فى المغرب ، كما يعرف بنظمها وتقاليدها المختلفة ، من : المؤاخاة ، ولبس الخرقة ، وإقامة حلقات الذكر ، وتلاوة الأوراد والأحزاب ، كما يعرف بالمصطلحات الصوفية ، من : القطب والغوث والوتد والبديل ، والمقامات والأحوال وغيرها .

وزوايا العباد عديدة على طول الرحلة ، وأولها زاوية سيدى أحمد بن عبد الصادق ، قبل الدخول الى سجلماسة (ج١ ص ١٦) ، وزاوية سيدى أحمد بن موسى ، قبل توات (ج١ ص ٢٠) ، وزاوية سيدى عبد الله بن عبد العزيز ، أحد سادات الحمارنة فى قرية زريق بعد نفزاوة (ج١ ص ٥٥) . وفى زليتن زاوية سيدى عبد السلام الأسمر ، التى لقى العياشى فيها المجذوب السالك ، سيدى : أحمد بن محمد بو مجيب ، الأمر الذى ذكر العياشى بلطيفة تنسب الى الشيخ اللقانى تنص على أن الوزغ يتغذى بعينية وهو فى السقف ! وكانت العادة فى زاوية سيدى عبد السلام سماع الذكر بصحبة النقر على الطار المزنخ (المصنج) كل ليلة (ج١ ص ٩٥). وكانت زاوية سيدى أبى العباس أحمد بن أحمد زروق بمسراته ذات شهرة عريضة هى الأخرى (ج١ ص ٩٦) .

ورغم ان العياشى مسلم ورع متمسك بأداء الفرائض ، فهو فى نفس الوقت معتدل يميل الى اليسر فى العبادة . فهو فى درنة يفطر لأنه على سفر ، وعندما احتج على ذلك بعض الإخوان ، وقالوا : « ما أفطرك إلا الشهوة » ، رد

عليهم قائلا : « ان الله لم يجعل لهذا الشهر (رمضان) فى السفر حرمة : وحرمة الشهر والحمد لله ، معلومة للمسلمين لا يزيلها إفطار مفطر ولا يزيدها صوم صائم ، ومن يقتدى به هو الذى ينبغى له الإفطار ، وان لم يتضرر بالصوم لأن كثيراً من الناس يعتقدون حرمة الإفطار أو قبحه فيتحملون من ذلك مشقة عظيمة ، حسبما شاهدت ذلك مراراً فى الأسفار » (ج١ ص ١٠٩) .

وفى الاسكندرية كان للمغاربة عقيدة كبيرة فى سيدى أبى العباس المرسى الذى توجه اليه العياشى برسائله الشفهية وقصائدة الشعرية المكتوبة ، والتى ألصقت بجدار القبة على يمين المحراب ، يطلب منه الغوث والسلامة من الوباء الذى كان قد انتشر وقتئذ ، فى الاسكندرية والبحيرة (ج١ ص ١١٢ ـ ١١٣) . ومن القصيدة التى وجهها له العياشى :

ملاذى إذا ضاقت بكربتها نفسى   وغوثى أبو العباس سيدنا المرسى

رئيس ذوى العرفان فى كل بلدة   ووارث علم الشاذلى بلا لبس

فأكرم بها من قـولة بلغت به   الى رتبة من دونها رتبة الشمس(x)

وفى مصر يروق للعياشى فكر الصوفية هناك ، ومنهم الشيخ أبو الحسن على الشبراملسبى الضرير ، الذى يبلور التصوف حول شخصية النبى ، ويقول : ان أول ما خلق الله نور محمد ، وان نوره هذا انقسم فكان منه نور الشمس للشرق فى الأهلة والكواكب.ورحالتنا يسجل إعجابه أيضا بصاحب «منارات السائرين الى الله» ، لما قرر معنى كون «النور المحمدى أصل الموجودات» (ج١ ص ١٤٧).

وفى مكة كان دخول العياشى فى ٤ (أربع) من الطرق الصوفية دفعة واحدة . فقد أخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ جمال الدين الهندى وذلك بالمدرسة الداودية ، كما أخذ ٣ (ثلاث) طرق أخرى هى : القادرية والسهروردية والكبردية ، على يدى الشيخ زين العابدين الطبرى الذى أجازه بلبس الخرق الثلاثة .

(x) (ج ١ ص ١١٥ ـ ١١٦) .

والظاهر أن الدخول فى الطرق الصوفية كان مسألة شكلية لا يترتب عليها كثير من الواجبات ، أكثر من الأخوة فى الله ، حسب الأصول المتبعة فى كل طريقة . فالأمر المستغرب ان العياشى لبس بعد ذلك الخرق الثمانية التى تشبه الإجازه العامة فى الدخول فى كل الطرق المعروفة ، وذلك على يدى شيخه الثعالبى (الجزائرى) الذى أجازه بها عن الشيخ القطب أحمد بن محمد المدنى القشاش . والوسائط الثمانية للخرق الثمانية ، هم : الخضر ، وإلياس ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلى (باب مدينة العلم) ، وابن عباس (ترجمان القرآن) ، وابو الدرداء (دفين الاسكندرية ؟ ـ سيد أهل الصفة) وأخيرا قطب العارفين ، أبو البيان تباء بن محمد بن محفوظ القرشى الذى ألبسه النبى الخرقة فى اليقظة عيانا (بيانا) . أما الواسطة العظمى فسيدنا محمد (ج١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩) .

ولما كانت الطريقة النقشبندية غير معروفة فى بلاد المغرب ، رأى العياشى أن يعرف ببعض أصولها ، وهى :

١ ـ طريق الوصول الى الله تعالى .

٢ ـ طريق سبب الوصول وحصول المعرفة .

٣ ـ طريق الرابطة بالشيخ الذى وصل الى مقام المشاهدة (ج ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٥) .

ومن الواضح ان التصوف المشرقى الذى عرفه العياشى بمكة كان فارسيا يستخدم اللغتين الفارسية والعربية . فالملا ابراهيم بن حسن الكورانى الشهرزورى أقرب المشايخ الى نفس العياشى كان مشهوراً بالمتصوف ، وكان رحالتنا يدعو بأن « يزيد الله فى نوره القدسى على نوره النفسى » ، وينص على أنه « لم يترك من العلم علما إلا أخذ منه نصيبا » . وزعم أن الملا ابراهيم كان لا يحسن اللسان العربى إلا القراءة فى الكتب ، ولكنه عندما دعى الى التدريس سهل عليه الأمر

بعد أيام (ج ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٦). وتلميذ الملا ابراهيم هو الشيخ محمد والعياشي يشير إلى فصل الخطاب في طريق الخوجه عبد الخالق ، حيث الكلمات القدسية الثمانية ، والمصطلحات الثلاث التي يعبر عنها بثلاث كلمات، هي : وقوف زماني، ووقوف عددي ، ووقوف قلبي ، فكلها ١١ (احدى عشرة) كلمة (ج١ ص ٢١٦ ـ ٢١٨) .

ومن مقالات مولانا سعد الدين الكاشغري : ان طريق تعليم الذكر أن يذكر في قلبه أولا « لا إله الا الله ـ محمد رسول الله » . وينبغي للمريد ان «يحضر قلبه على مقابلة قلب الشيخ ، ويغمض عينيه ، ويطبق الفم والنفس مع السر » . هذا ، ولمولانا سعد الدين أيضا قوله : « الذكر طرد الغفلة » (ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١) .

هذا ، ومن أقوال مولانا ، علاء الدين ، من أصحاب مولانا الكاشغري : نكان داست (بالفارسية) ، وهي عبارة عن مراقبة الخواطر في أثناء الذكر .

ومن مقالات مولانا يعقوب الخوفي قدّس الله سره : « أمرني شيخي في حالة القبض بالاستغفار ، وفي حالة البسط بالشكر » . أما عن الوقوف العددي ـ الذي سبقت الاشارة اليه ـ فهو عبارة عن رعاية العدد في الذكر . وفي ذلك قال الخوجه نقشبندي قدّس الله سرّه : « ان رعاية العدد في القلب لاجتماع الخواطر المتفرقة » (ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣) .

وهنا يعتذر العياشي عن الإطالة التي كانت لأجل ما اشتملت عليه من الفوائد التي لا توجد في غيرها . ويتبع ذلك بالقول : « وقصدي انشاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة ، وان وجد الأمران فيها معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها سيما إن كان للتلذين . وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونبع لا يوجد في غيره ـ والله المسئول ان يلهمنا رشدنا » (ج ١ ص ٢٢٤) .

وفى المدينة يعرض العياشى مرة أخرى للتصوف ـ أملا فى ان تصبح رحلته « ديوان علم » كما يريد . فينقل عن الشيخ محمد بن شيخ فضل الله (تلميذ الملا ابراهيم) نبذة من الكلمات فى علم الحقائق ، عن : مراتب معرفة الحق ، وهى :

١ ـ مرتبة ان لا تعين .

٢ ـ مرتبة التعين الأول .

٣ ـ مرتبة التعين الثانى .

٤ ـ مرتبة الأرواح .

الى جانب أقوال الأئمة الدالة على وحدة الوجود ... ، حيث لا يتوقف إلا خوف الملل ، وضيق الوقت (ج ١ ص ٣٣٩ ـ ٤٤٦) .

ومع ذلك فهو يرجع الى الموضوع بالكلام فى أشهر متصوفة الاسلام ، وهو الشيخ محى الدين بن عربى ، وفوائد من كتابه الشهير فى : « الفتوحات الملكية » . حيث القول : « وعندى ان البسملة متعلقة بالحمد لة ... ، ومن كتاب : « الدائرة المباركة ، حيث دعاء بعد الصلاة بنية رجال الغيب (ج ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥) . أما الشيخ أبو الحسن الشاذلى فله : « إنا لننظر الى الله ببصر الايمان والايقان ، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان (ج ١ ص ٣٦٦) . وهو خلال ذلك يعرض لأقوال الحكماء ، من : أنه « لابد للجوهر من وقفة بين كل حركتين » بمعنى أنه لوذرة صاعدة لقيت جبلا هابطا فلابد للجبل من التوقف ، لأن الذرة لا بد لها أن تتوقف قبل الهبوط » (ج ١ ص ٣٧٢) ـ ليزيد فى علمانية رحلته ، كما يريده .

وهو بعد أبيات من الشعر للملا ابراهيم فى تاريخ وفاة القطب أبى الحسن الشاذلى ، يتكلم عن شيخه وقدوته فى العرفان ، وهو الشيخ صفى الدين أحمد

بن محمد بن يونس ، الملقب بعبد النبى ، ابن القطب أحمد بن على القدسى الدجانى ، إمام العلوم الظاهرة والباطنة مع علوم الحقائق .

وعن هذا الطريق كان يمزج الحقائق الصوفية بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، كما كان حال الشيخ الشناوى (ج ١ ص ٣٩٧ ـ ٤٢٠) .

وهذا النوع من التصوف السنى ـ كما نرى ـ هو نوع الوسط الذى كان دارجا بين عامة الناس فى عالم الاسلام . والسنة هنا لا تعنى تقاليد أهل المدينة : دار الهجرة ، بل تعنى « الجرى مع المعتاد » ، كما يقول فقيه مصر المشهور فى ذلك الوقت : الشيخ أبو الحسن الأجهورى (ج ١ ص ٣٤) .

ففى غزة التى وصل إليها العياشى بعد المجاورة ، يصف الشيخ عبد القادر الغصين بأنه صالح علماء غزة (ج ٢ ص ٣٠٣) ، كما يصف عالم الرملة : السيد محمد بن أبى الوفاء الاشعرى الحسنى بالفقيه الصالح . أما الشيخ خير الدين الرملى فقد كان عاملا مجتهداً فى الزراعة ، حتى انه ينسب اليه انه غرس بيده المباركة ...ر..١ (مائه ألف) شجرة ـ فكأنه يجمع بين أعمال الدين وأعمال الدنيا . وفى القدس كان عمر العلمى خليفة جده الشيخ محمد العلمى، صاحب رسالة « معالم التصديق لمعرفة دخول الفقير فى الطريق » ، هو القائم على « تربية المريدين » من حيث كان خليفة جده فى ذلك (ج ٢ ص ٣١٠ ـ ٣١١) . ويؤكد فكرة التصوف السنى فى القدس ، إقامة مجالس الذكر (فى الأقصى) فى إدبار الصلوات (ج ٢ ص ٣٤٧) .

والذى يمكن الخروج به من كل ذلك أنه رغم تفوق العلوم الدينية وخاصة التصوف ، فقد كان للعلوم المدنية التى عرفت من وقتئذ باسم « العلوم الرسمية » ، مجالها وأهل الاختصاص فيها من « المريدين » أيضا ، مثل علوم : الحساب والتنجيم والسيمياء ، وعلم الحدثان (المستقبلى) والزيارج والتوقيت . وفى العلم الأخير كان للشيخ شهاب الدين التاج ، رئيس المؤقتين بالحرم الشريف

تأليف معروف . أما تأليف الشيخ الروداني (سيدى محمد بن سليمان) : ابن مدينة تارودانت عاصمة بلاد السوس الأقصا ، فى موضوع التوقيت فكان بمثابة الاختراع الذى لفت اليه الأنظار . وكان ذلك التأليف يحمل اسم « الأدلة النافعة فى علم التوقيت والهيئة » ، وفيه يقول العياشى انه « ابتكره بفكره الفايق وصنعه الرايق » .

ويتكون هذا الاختراع من كرة مسطرة بالدوائر والرسوم ، تصحبها رسالة فى وصفها وكيفية العمل بها بأسلوب مبتكر .

والحقيقة ان الروداني كان نموذجا من الرجال الموهوبين فى دراسة العلوم الرسمية ، بمعنى العقلية . فهو بعد ان خرج من بلده وسار الى زوايا بلاد درعة وسجلماسة ومراكش ، حيث درس علوم الدين ، لم تطمئن نفسه الى ذلك فسار الى فاس قصد تعلم العلوم الرسمية ، سيما الحكمة (الفلسفة) ، من هيئة وتنجيم وحساب ومنطق ، وما شاكل ذلك .

ورغم المعارضة الشديدة التى لقيها من العارف بالله سيدى محمد بن عبدالله ، الذى زجره أشد الزجر عن تعاطى هذه العلوم ، بل ورده الى أهله ليعدّلوا مسار دراسته ، فإن الروداني لم يمكنه إلا الاستمرار فى دراساته العلمية العقلية . فبعد سياحة فى المغرب سار الى المشرق وطوّف بالحجاز ، بل ووصل الى عاصمة الامبراطورية العثمانية (الخاقانية) حيث دخل فى مناظرات علمية صاخبة مع العلماء أظهرت علو درجته . هذا ، كما كانت له آراؤه الخاصة فيما كان قد نزل بعالم الاسلام وقتئذ من النوازل المستجدة كالقهوة والدخان وغيرهما ـ مما رفضه معارضا فى ذلك كبار فقهاء العصر ، الأمر الذى أثار عجب العياشى.

٥ ـ النوازل المستجدة : عادة شرب القهوة والدخان ، ولبس الصوف المستورد :

المقصود بالنوازل كما نرى ، هي المشاكل الطارئة التى تلم بالمجتمع الاسلامى ، وتثير الجدل حول الحلول المناسبة لها ، فهى أشبه بالبدع التى تثير الخلاف بين أفراد المجتمع من حيث قبولها شرعا أو رفضها . وأهم النوازل التى عرض لها العياشى فى الرحلة إما نظرية مثل الخلاف فى ماهية الذات الإلهية مما يتعلق برؤية الله وصفاته ، الى جانب مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو عملية مما يتعلق بعادات الطعام والشراب واللباس ، كشرب القهوة والدخان ولبس الجوخ الفاخر المجلوب من بلاد الأناضول (الروم) .

الرؤية :

ففى رؤية الله وهل تكون فى اليقظة أم فى المنام ، وقريب منها رؤية الرسول ، يعرض العياشى لأقوال العلماء المختلفة من الحافظ ابن حجر والقاضى عياض والقرافى . وهو كمالكى ينتهى الى القول بأن الحديث يصرح بصحة الرؤية مطلقا . أما عن رؤية النبى فى المنام وهل يجب تنفيذ وصاياه أو أمره ونهيه، فهو بعد عرض آراء كل من النووى فى فتاويه ، والاستاذ أبى اسحق الاسفرايينى فى كتاب الجدل ، وما نقله الشيخ الزركشى عن الشيخ عز الدين خطيب الأشمونين ، وما قاله الأبى فى شرح مسلم ، قبل ان ينهى الجدل فى المسألة بمقالة النووى : « ولنقصر عنان الكلام فإن للعلم فى مباحث هذه المسألة مجالا واسعا ، وللنظر فيها مرمى شاسعا ... ولو تتبعنا ما خطر لنا فيها ... لطال المقال وتعارضت الأنقال وتضارب ما بين الأصل والفرع بشواهد العقل والشرع ، والله يستنزل عزيز التوفيق ويستهدى سواء الطريق (ج١ ص ٣٣ وما بعدها) .

ولما كانت رؤية الله مرتبطة بصفاته ، كانت الصفات هى الأخرى من الموضوعات التى شغلت العياشى .

ويدخل فى مجال تعظيم النبى أيضا والسعى الى اكتساب شفاعته فكرة ارتباط الحج الى بيت الله الحرام بزيارة الحضرة النبوية الشريفة ، حتى أصبح مفهوم الحج لدى كثير من الناس هو الزيارة قبل أداء الفريضة التى أصبحت بالتبعية هى الأخرى بمثابة زيارة لبيت الله . ففى مدينة طرابلس (الغرب) عندما طلب البوابون الضريبة (المكس) المقررة على أساس أنه يوجد مع الحجاج بعض أمتعة التجار ، رفض أهل الركب أن يدلوهم عليها ، حيث قالوا : « نحن لا يمكننا منع أحد التجأ الى حرم رسول الله صلعم » (ج ١ ص ٨٩) ـ فكأن الحج فى عرفهم هذا ، هو الزيارة قبل الفريضة أو التجارة .

الأمر بالمعروف :

وفيما يتعلق بالأمر المعروف والنهى عن المنكر فقد دار السؤال حوله فى بلد تكرت (تجرت) ، قاعدة وادى ريغ ، إذ كان من بين الأسئلة التى وجهت الى التياشى : إن كان يحل لأهل وادى ريغ حرب أهل وارجلا على أساس تغيير المنكره فكان ردّ رحالتنا « إلا ان من شرط المنكر ان لا يؤدى الى منكر أعظم منه» (ج ١ ص ٥٠) .

الوباء بالاسكندرية :

أما عن نازلة الوباء التى ألمت بالاسكندرية والبحيرة ومصر فكانت مواجهتها بطلب الاستغاثة والمدد من سيدى ابى العباس المرسى ، القطب والغوث والبديل ، الى جانب الاستغاثة ببقية أولياء مصر ، من : سيدى أبى الحسن الشاذلى ، والسيد البدوى ، وابراهيم الدسوقى ، الذين يستمدون كراماتهم وشفاعاتهم من النبى الكريم ، الذى يعتبر أصل التصوف من حيث هو صاحب علم الحقيقة ، وأنه أصل الوجود . فهو فى قصيدة ينادى المرسى قائلا فى البيت الأول :

ملاذى إذا ضاقت بكربتها نفسى   وغوثى أبو العباس سيدنا المرسى

ثم يقول :

فأنت رئيس الأوليـاء فكن لنـــــا   بفضلك من شر الوبا أعظم الترس

وفى قصيدة أخرى يقول :

١٧ ـ يارب بالمختار خـير الـــورى   محمد قبـلة أهــل الوصال (x)

١٩ ـ بالعلمــاء العاملـين بمن   هـذبت طرا نعـيم الخـلال

٢٢ ـ مثل الجنيـــد ومشايخـه   وصحبه ومن بهـم خـير تـال

٢٧ ـ بالبدوى بالدســوقى بمـن   فى السهل منهم أو رؤوس الجبال

٣٠ ـ سكن وأمن روعة الناس من   هذا الوباء شـديد المحـــال(x)

القهوة والدخان والجوخ :

ومن النوازل البدعية التى استرعت انتباه العياشى : انتشار شرب كل من القهوة والدخان . فهو يبين كيف تم انتشارهما عن طريق الطرق الصوفية . فعن البن وشرب القهوة ينص العياشى على أن الشاذلية هم أول من استعملوها لأنها تعين على السهر (فى الذكر) . وفى ذلك يسجل مقولة ابن حجر المكى : « ان القهوة شراب الصالحين » (ج١ ص ١٣٣) . ولهذا السبب ورغم ان العياشى كان يحرم شرب الدخان ويريد تطبيق ذلك على القهوة (ج١ ص ١٣٤) ، فإنه كان واقعيا لا يطلب المستحيل . فهو عندما استقبله بالمدينة الملا ابراهيم ، خليفة الشيخ محمد الخلوتى ، صاحب الطريقة الخلوتية المحمدية (ج١ ص ٣٢٥) فى مكانه الذى كان يجلس فيه خارج زاوية الشيخ ، وبعد ان قرأ قصيدة فى مدحه ، دعا الشيخ له بالخير ، وبالغ فى إكرامه ، فقدم له «كسراً من الكعك مع ملح وسعتر» . ثم « أوتى بالقهوة على ما هو المعتاد منهم ، وكنت (العياشى) غير راغب فيها، لكن تناولت منها مساعدة » (ج١ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩) .

ومن المهم الإشارة هنا الى أن القهوة كانت قد انتشرت فى الحجاز ، فى الطريق ما بين مكة وجدة ، حيث عدّد العياشى « ثمانية قهاوى ينز لها المارون

(x) (ج ١ ص ١١٥) .

(x) (ج ١ ص ١١٣) .

فيستريحون ويشربون القهوة » (ج٢ ص ١٠٢) ، كما كان بعض التجار أو أصحاب الجمال يسبقون إبلهم المحملة بالمتاجر تقطع الطريق (ما بين مكة وجدة) وحدها ، ويسترخون فى تلك المقاهى لحين وصول بضائعهم ـ مما سبقت الاشارة اليه .

وهكذا اعتبر البعض ان شرب القهوة ، الى جانب عادة شرب الدخان (الوافد من العالم الجديد : أمريكا) من النوازل التى ألمت بالعالم الاسلامى ، والتى تحتاج الى الدراسة من أجل إقرار مشروعية شربها أو تحريم ذلك . وهنا يشير العياشى الى واحد من نابغى المغرب هو سيدى محمد بن سليمان الرودانى (نسبة الى تارودانت) ـ الذى سبقت الاشارة اليه ـ والذى يضفى عليه صفات « حكيم الاسلام ، وأحد العلماء الأعلام ، المتوقد فطنة والمتوهج ذكاء ، الممتلىء حكمة وايمانا .. والذى توغل فى أقطار الأرض ... » . فالرودانى عندما دخل الى اصطنبول ، وقعت له هنالك وقائع مع بعض علمائها (ج٢ ص ٣٠ ـ ٣١) . ومن جملة ذلك ما حدث عندما دخل على أحد المفتين هنالك ، فقدم له الرجل ، كما هى العادة عندهم ، القهوة والدخان ، « تجلة وتكريما ، فامتنع (الرودانى) من ذلك . وألح عليه فلج فى إبائه » . فلما قال المفتى « أزهداً أم تزهداً » ، رد عليه : « بل فراراً من حرام أو شبهة » . ولما كان الرودانى قد فرغ لتوه من دراسة القراءات (القرآنية) ، كما كان قد اتقن طرفاً من أصول الفقه والمنطق ، فإنه نجح ، كما يقول ، فى ضحض كل ما أتى به المفتى من الأدله وأبطله (ج ٢ ص ٣٢) .

والمهم أن الرودانى الذى درس المنطق ، وبالتالى كان ينبغى ان يكون عقلانيا معتدلا ـ كما رأيناه من قبل ـ يراعى فى أحكامه مقتضى الظروف والأحوال، لم يظهر تشدده فقط فى كراهية القهوة أو تحريم الدخان وحده ، بل أضاف الى ذلك « النهى عن لباس ثياب الصوف الرائق الذى يأتى من برّ الروم

(الاناضول) منسوجا ، وتتخذ منه الجوخات وغيرها ، ويرى بطلان الصلاة فيه ، قائلا : إنه استيقن الخبر من أهل البلد التى يأتى منها ، انهم ينتفونه عن الغنم حيّة ، وأنه لا يكون إلا كذلك . وبذلك يصير فى تلك الحال من الرطوبة والرقة، واذا ثبت أنه كذلك فهو نجس .

ومن المهم فى هذا الموضوع ان الروداني (الرحالة أيضا) عندما كان فى صعيد مصر ، كتب سؤالا فى ذلك الى شيخ المالكية فى مصر : ابى الحسن على الأجهورى ـ الذى كان قد صار شيخ مشايخ الاسلام . وكان الجواب من الأجهورى : « انه إن ارتبت ذلك فيخرج على أحد الأقوال فى النجاسة ، من سنة واستحباب لعموم البلوى فيه (ج ٢ ص ٣٢) ، فكأنه أجاز لبس الجوخ الفاخر المستورد من بلاد الترك على أساس ما سبق من تعريفة « للسنّة » بأنها الجارى مما أتفق الناس عليه ـ كما سبق ، ٥٤ .

وهنا لا بأس من الاشارة الى ان الروداني كان ـ فى ذلك الوقت ـ يحط من قدر الأجهورى الذى كان قد طعن فى السن ، ومن أصحابه أيضا . ولكن العياشى ينبرى للرد على الروداني بالقول بأنه إذا كان الصوف منتوفا فالمتنجس منه جزء قليل من أصوله ، وهو أضعف ما فيه ، وماسواه يظهر بالغسل ... الخ (ج٢ ص٣٢) .

وإذا كان العياشى يظهر متسامحا فى شرب القهوة ولبس ثياب الجوخ الرايق ، فإنه يقف الى جانب المتشددين فى تحريم الدخان ، ومنهم سيدى محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطينى ، شيخ الطريقة الشاذلية التى سمحت بشرب القهوة . والظاهر ان القسنطينى الذى بدأ معتدلاً عقلانيا انتهى به الحال الى الانقباض والانزواء عن الخلق ، ومجانبه علوم أهل الرسوم بعد ما كان إما ما يقتدى فيها به (ج ٢ ص ٣٩٠) . وهكذا ، وقف ضد شرب الدخان ، وألف فى ذلك رسالة فى تحريمه ، سماها « محدد السنان فى نحور إخوان الدخان » ـ

فكأنه يعارض نوعا ما الشاذلية فيما سمحوا به لأنفسهم . وتحوى تلك الرسالة مقولة الأجهورى ، أحد كبار علماء العصر ، بأن « الدخان ليس مسكراً » ، الى جانب آراء كل من القرافى فى « الذخيرة » ، والشيخ خليل فى « التوضيح » ، وابن غازى فى « تكميل التفسير » ، وغيرهم (ج٢ ص ٣٩٦) ثم ان الرسالة تنتهى باجتناب الدخان (كالخمر) ، من ثلاثة أطراف ، هى : ذاته وصفته وعوارضه... (ج ٢ ص ٤٠٢) .

٦ - الأحوال السياسية على طول الرحلة :

يعتبر القرن الـ ١١هـ/١٧م من فترات الضعف السياسى فى عالم الاسلام بعامة وفى بلاد المغرب العربية بشكل خاص . فسواحل المغرب من أقصاها الى أدناها كانت مهددة من قبل القوى الاستعمارية الناهضة فى أوروبا الغربية ، من اسبانيا والبرتغال فى مواجهة المغرب الأقصى وحتى طرابلس وبرقة ، ومن المنافسين الجدد من الانجليز والفرنسيين والهولنديين . وفى مواجهة هذا الخطر الداهم لم تكن الدويلات الاسلامية الافريقية ، من العلويين الشرفا فى المغرب الأقصى والى جانبهم بعض إخوان الطرف الصوفية ممن كانت قد ضعفت شوكتهم ، أو من باشوات العثمانيين فى كل من الجزائر وتونس وطرابلس فى حالة تسمح لهم بالدفاع . والحقيقة انهم إذا كانوا جميعا يستمدون العون من بعض المنظمات البحرية الحربية ــ من حرة أو نظامية ــ أو من بعض قبائل العرب المتفرقين على طول البلاد وعرضها ، فإن غزاة البحر ومجاهدى العرب كانوا فى نفس الوقت شوكة مؤلمة فى وظهور هؤلاء الأمراء والباشوات ، فى كثير من الأحيان . ومثل هذا يمكن ان يقال عن عدم الوعى السياسى والقومى لدى كثير من عامة أهل البلاد.

فعندما خرج العياشى فى رحلته الثانية سنة ١٠٦٩هـ/١٦٦٠م كانت أحوال المغرب الأقصى مضطربة سياسيا واجتماعيا ، حيث يقول : وفى تلك السنة

« دبت فى مغربنا عقارب الفتن ، وهاجت بين الخاصة والعامة مضمرات الإحن، فانقطعت السبل أو كادت ، وماجت الأرض بأهلها ومادت ، فكربت (قربت) أيأس من بلوغ المرام ... ولم يزل أمر الفتن يتفاقم ويربو ... إلى أن كان أوائل سنة ١٠٧٢هـ / ١٦٦٣م أحسن الله عاقبتها ، وكفى المسلمين غائلتها ... الى أن قرب أوان السفر ... » وترتب على ذلك أن « أضرم الجوع فى سائر الأرجاء ناره ، فتولد منه من الفتك والحرابة ما أعلى تفريق الكلمة مناره ، وتطاير فى كل أفق شراره ، وأهان خيار كل قطر شراره ، واتخذت البدعة شعاراً والزندقة دثارا ، وفر الساكن من بلده ، والوالد من ولده ... » . « فلأجل ذلك أشار بترك السفرن من لا تعصى له إشارة ... » (ج١ ص ٥ ـ ٦) .

وهكذا عندما قرر العياشى السفر « اتهمه البعض ـ وان كان دعابة ، كما يقول ـ أنه يفر من تلك السنة الشهباء التى أكثرت فى القرى حرقا وفى الأقوات نهما » . وهو فى ذلك يقول شعراً :

وقالوا فررت وليس الفرار … لمثلك فى القوم من فعله
فقلت فررت الى المصطفى … ومثلى يفر الى مثله(x)

والحقيقة انه على طول الطريق ، وفى المناسبات المختلفة كان العياشى يكاتب أصدقاءه العلماء فى كل من مكة والمدينة ، يطلب منهم الدعاء شاكيا اليهم ما وقع فى المغرب من الفتن ويطلب منهم رفع الأمر الى الحضرة النبوية .

هذا فى الاضطرابات الداخلية ، أما فى قلة الوعى السياسى بين الناس ، فمثله ما حدث فى وارجلا من واحات جنوب الجزائر من الدعاء على منابرها للمهدى محمد بن تومرت ، شيخ الموحدين فى مطلع القرن السادس الهجرى / ١٢م ، كما يرى العياشى ومن بعده للخاقان الذى يقصد به السلطان العثمانى فى أصطنبول ، وهو يومئذ محمد بن ابراهيم بن مراد ، ومن ثم لسلطان البلد : مولاى علاهم .

(x) (ج ١ ص ٨) .

والحقيقة ان وارجلا كانت تعانى من الاضطرابات التى أشار اليها العياشى حيث ينص على ان البلد كان قد « خلا كثير منها بسبب فتنة قبل قدومنا بنحو الشهرين ، وذلك ان طائفة منهاهم بيضة البلد وعصبية أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه ، فاتفق مع رعيته على قتلهم كلهم ... ، وتقدم الى من هو خارج البلد من الأعراب ان يرتصدوا خارج السور ، فمن أفلت من البلد قتلوه ... فقتل منهم مقتلة عظيمة نحواً من المئتين ... وهى فعلة شنيعة ، عدت من هفوات ذلك الأمير ، وأسقط ذلك من منزلته عند كثير من الناس ، مع انه معروف قبل ذلك بحسن السيرة. وأورث ذلك شحناء بينه وبين أخواله: أولاد الشيخ أحمد ابن جلاب ... وكانوا قبل ذلك شيعة له ، وبهم ملك البلد (ج١ ص ٤٦ ـ٤٧).

والى جانب ذلك كانت الفتنة قائمة بين أهل وارجلا وأهل وادى ريغ الذين طلبوا الفتوى من العياشى فى مسألة إعلانهم الحرب على الورجلانيين ، على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الأمر الذى لا يجوز القيام به إذا كان يؤدى الى منكر آخر أعظم منه ـ مما سبقت الاشارة إليه .

اللصوص :

هذا وكان الخوف من اللصوص على طول الطريق الصحراوى الكبير ، فى كل مكان ، وخاصة فى البلاد البخيلة على أهلها بالرزق ، الأمر الذى يعنى ان معظم اللصوص كانوا من أعراب الصحراء الفقراء ، الذين وجدوا فى كل مكان . فأول ذكر لهم يأتى عند مغادرة قرية سيدى عبدالله بن عبد العزيز فى وادى السمار ، فى الطريق الى طرابلس ، حيث خرج اللصوص على مقدمة الركب وسلبوهم . ولكن أمير الركب تبعهم وحده واستطاع ان يستعيد ما كانوا سلبوه (ج١ ص ٥٦) . وفى الطريق من جنوب الشام نحو الحجاز ، كان الأعراب يختفون فى رؤس الجبال غير بعيد من اصطبل عنتر للأذى ، وكان الحرامية يهاجمون آخر الركب فى بندر الوجه حتى اضطر أمير الركب ، فى الطريق الى المويلح ، الى مطاردتهم بالمكاحل (البنادق) ج ١ ص ١٧٦) .

هذا ، كما كان اللصوص لا يخيفون الطريق فقط فى صحراء ينبع القريبة من المدينة ، بل كانوا يغيرون فعلا على مؤخرة قافلة الحجاج فى منطقة شق العجوز ، حيث دار قتال حقيقى بينهم وبين حراس الركب ، انتهى بأن أخذوا نحو ٣٠ (ثلاثين) من الإبل بأحمالها ،ودخلوا بها فى بعض مضايق الشعاب هناك ، الأمر الذى نسب الى ضعف الحماية فى « ركب حجاج هذا الموسم » بسبب الأمان فى الموسم السابق (ج ٢ ص ٢٩٩) .

أما فى منطقة النقب فكان العرب يفرضون ضرائب المرور باسم الخفارة ، بمعدل قرشين على كل جمل ، وثلاثة قروش على جمال الفلاحين (ج٢ ص٣٠٢) .

وهكذا ، لم يكن من الغريب ان يحاول والى غزة الذى يحمل لقب باشه، ان يؤمن منطقة حكمه بارسال العساكر لتعقب العرب المضطربين هناك ، ولو أن القلق كان سائدا فى المنطقة لعجزه عن فرض سلطانه عليهم بالقوة (ج٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥١) ، وهكذا ، ولكى يطمئن العياشى فى مسيره من غزة الى مصر كان على الباشا فى غزة ان يرسل كتبه الى الأغا على ، المسئول عن الخان (خان يونس) ، والى الأغا أحمد ، المسئول عن العريش (ج٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢) . فكأن الوالى العثمانى على القطر كان يحمل لقب باشا بينما حمل معاونوه المسئولون عن المدن الاقليمية لقب الأغا .

ومن الواضح ان الدولة العثمانية كانت تعمل على اقرار حكمها عن طريق اثبات جدارتها بالدفاع عن البلاد ضد العدو الخارجى ، عن طريق إعلان ما كانت تحققه من انتصارات فى العواصم العربية ، حيث يكون الأمر بإقامة الزينات فى مثل تلك المناسبات . ففى طريق العودة ١٠٧٣هـ / ١٦٦٤م ، حضر العياشى الزينة الكبيرة التى استمتع بها أهل القاهرة لمدة ٧ (سبعة) أيام ، والتى أقيمت بأمر الخاقان (السلطان العثمانى) احتفالاً « بفتح مدينة عظيمة » (ج٢ ص٣٦٠) .

وعندما بلغ العياشى مدينة طرابلس كانت الأوامر قد وصلت إلى عصمان باشا الوالى عن طريق البحر ، بإقامة مثل احتفال القاهرة فى تلك المناسبة (ج٢ ص ٣٨١) ـ فكان من حسن حظ العياشى أن يسعد مرتين باحتفال النصر السلطانى .

والحقيقة ان حكومة اصطنبول المجاهدة لعدو الخارج كانت تلقى المتاعب فى بلاد العرب فى الداخل . وكانت أشد العناصر إثارة لقلق الخاقان (السلطان) هم قبائل عرب الصحراء الفقراء . ففى الحجاز كان العرب يستثمرون ما قد يقع من الخلاف بين حكومة مصر وإمارة الشرفاء التى كان يرأسها الشريف زيد (ج١ ص ١٩٩) . وهنا لا بأس من الاشارة الى ما كان يحدث من خصومات بين رجال الدولة ، مثل عزل أمير الحاج المصرى (الأمير ابراهيم) سنة ١٠٧٣هـ / ١٦٦٤م ، على ان يحل مكانه الأمير أبى الشوارب عبدان ، إذ أبى المعزول نفاذ الأمر حتى كادت تقع بينهم الفتنة . وعندما مات الأمير ابراهيم فى المدينة بعد شهر من عزله أو أكثر ، ورجع من كان معه من أولاده وخدامه الى مصر ، قيل إنه مات مسموما (ج١ ص ٢٣٦) ـ اشارة الى انتقام الدولة ، كما نظن .

وفى الجبل الأخضر من بلاد برقة كان العرب من السعادات والهنادى والجبالى يسببون المتاعب للحاج محمود عامل عصمان باشا والى طرابلس (ج٢ ص ٣٧٠ ـ ٣٧٦) .

السياسة الخارجية :

أما عن السياسة الخارجية والأمن الجهادى ، كما تظهر فى الرحلة العياشية ، فإلى جانب ما سبقت الأشارة اليه من تهديد القوى الأوروبية الناهضة لسواحل المغرب الأقصى ـ المعروف وقتئذ بالغرب ـ كانت كل السواحل المغربية عرضة لنزول العدو البحرى ، إما فى غارات عدائية أو بناء على اتفاقات سلمية أو عقود مشروعة . ففى شمال سوف كان مرسى برج الملح من الموانىء الجيدة التى

ينزلها النصارى لأخذ الملح من السبخة هناك ، وذلك بإذن من أمير البلد (ج ١ ص ٥٧) ـ نظير دفع الثمن والضرائب المقررة .

أما عن مدينة طرابلس التى كانت قد تداولتها ، قبل الحكم العثمانى ، أيدى المسلمين والنصارى مراراً عديدة ، أشهرها ما يذكره ابن بطوطة فى منتصف القرن الثامن الهجرى / ١٤م ، حين استولى عليها النصارى أيام سلطان مراكش المرينى : أبى عنان (ج١ ص ٦٦) ، فقد سقطت بين أيدى العدو فى يوم ٢٠ من المحرم سنة ٩١٦هـ / ٣٠ ابريل ١٥١٠م ، ولم يتم افتكاكها الا بعد ان مكثت بين أيدى العدو أكثر من ٤٠ (أربعين) عاما ، وذلك فى سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م ، وذلك على يدى درغوت باشا والى جربة ، ومراد باشا والى مسلاتة (ج ١ ص ٦٦) .

وبصفة طرابلس مركزا رئيساً على طريق الحج المغربى ، ونتيجة لصلاتها البحرية المباشرة بأصطنبول ، لم يكن من المستغرب ان تكون محطاً للمشتغلين بالسياسة ـ من طلاب الانقلابات الدولية . ففى سنة ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م كان لقاء العياشى بسيدى محمد بن اسماعيل الذى طوف فى البلاد شرقا وغربا ما بين المغرب الأقصى وافريقية والسودان واليمن ، كما جاور فى مكة والمدينة ، ودخل العراق وانتسب الى سيدى عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة القادرية ، كل ذلك وهو يدعو لنفسه بالامارة باسم المهدى ، غير متهيب من صولة السلطان . والظاهر ان الرجل كان واقعا تحت تأثير دعوة المهدى محمد بن تومرت ـ التى كانت اصداؤها مازالت ترجع فى ورجلا ، مما سبقت الاشارة إليه . ومن الواضح ان الرجل لم يجد أذنا صاغية من رحالتنا العياشى (ج ١ص ٤٠ ـ ٤١) الذى كانت زاويتهم فى بلاد سجلماسة قد تحولت من طريقة جهادية الى مدرسة صوفية تدعو الى جهاد النفس ، على طريقة الخانقاوات الشرقية .

هذا إلى جانب الاشارة الى كتاب « نزهة الناظرين عند ذكر السلاطين » للشيخ مرعى الحنبلى ، حيث نبذه عن السلطان سليم بن سليمان تنص على ان ولايته كانت سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م . وفى أيامه كان فتح حلق الوادى ببلاد تونس من استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص (فى تونس) ، فصار بعضهم يتقوى على بعض بالافرنج ، وأطمعوهم فى بلاد المسلمين ... الخ .

وهكذا ، أخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف فى رقاب أهلها . فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل ٢٠٠ (مائتى) غراب مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب ، وصحبه سنان باشا ، وقلج على باشا ، وكانت غزوة مشهورة ... سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٣م . ووصلت الأخبار للسلطان سليم وكان فى نفسه فتح الأندلس .

أما عن طرابلس المدينة التى رأها العياشى فهى وان كانت مدينة مساحتها صغيرة إلا أنها ذات خيرات كثيرة ، ونكايتها فى العدو شهيرة . وهى أنيقة البناء ، فسيحة الفناء ، عرفت بحصانتها ، وهى برية بحرية ، عالية الأسوار ، لها بابان : واحد الى البر ، وواحد الى البحر .

والحصن الذى فيه الأمير بعيد عن المدينة ، وان كان يتصل بها من ناحية باب البر ، بينه وبين البحر . وأخيراً « فلأمير هذه المدينة نكاية فى العدو ـ دمرهم الله ـ وله مراكب قل نظيرها ، معده للجهاد فى البحر ، قل ما تسافر وترجع بغير غنيمة » (ج ١ ص ٦٠) . وهكذا كان يحق لطرابلس ان تشارك اصطنبول أفراحها بانتصاراتها وفتوحها فى بلاد العدو ، كما كان الحال فى مصر التى انفردت بإقامة احتفالات المحمل وكسوة الكعبة الشريفة ـ مما سبقت الاشاره اليه .

وهنا لا بأس من الاشارة الى إن أعمال الدولة العثمانية الجهادية التى كانت موضع احتفالات شعبية كبيرة فى كل من مصر وطرابلس أثناء الرحلة العياشية ، لم تمنع « متنبئة » الاسكندرية الشهيرة الشيخة الست نعيمة التى كانت تبلغ من العمر ١٠٤ (مائة واربعة) من الأعوام ، من التبشير بقرب سقوط الدولة العثمانية لما تقترف في البلاد من أعمال الظلم (ج ٢ ص ٣٦٧) ـ الأمر الذى يعنى اتجاهات وطنية مناهضة للنظام العثمانى والمبشرة بمقدم العدل من بلاد المغرب ! .

وهكذا يتضح من عرض عناصر الرحلة العياشية المختلفة ، من : وصف الطريق الصحراوى الدولى الكبير عبر شمال افريقية وبرزخ السويس والتخوم الجنوبية لبلاد الشام حتى صحراء الينبع فى الحجاز ، والتعريف بالأحوال الثقافية من علوم الدين والعلوم الرسمية (المدينة) الى جانب التصوف الذى كان قد أصبح فى القرن الحادى عشر الهجرى / ١٧م ممثلا للاسلام الحى بالنسبة لحياة الناس اليومية ، والعادات والتقاليد ، والاشارات الخاصة بالأحوال السياسية والاضطرابات الاجتماعية ، ان العياشى كان محقا فيما كان يرجوه من ان تصبح رحلته « ماء الموائد » ديوان علم وتسلية ـ إذا لم تصبح دائرة معارف مصغرة للوطن العربى فى القرن الـ ١١هـ / ١٧م ، كما نرى .

رحلة العياشي

الذهاب عبر ليبيا إلى الاسكندرية

(*)... ثم ارتحلنا من جمنة وهي آخر قرى نَفْزاوة، ومررنا بأرض طيبة ذات مزارع وعشب كثير، ووجدنا غالب أهل نفزاوة يحرثون بها على البقر (١) .

غريبة : وقد وجدنا في تلك المزارع قوماً يحرثون ببقرة واحدة، ولم يعهد مثل ذلك في بلدنا، ومازلنا نتعجب منه حتى رأينا (٢) آخر يحرث ببعير فأنسانا الأول. وطال تعجبنا منه مع أنه اشتهر من أمثال العامة في بلدنا : حراثة الجمل شئ يفسد أكثر مما يصلح (٣) . وما قضينا العجب منه حتى رأينا أعجب منه : إنسان يحرث بإنسان آخر ؛ يمسك أحدهما المحراث ويجر الآخر؛ ولم نملك لأنفسنا أن نزلنا عن (٤) الرواحل للتفرج فيهم. وأعانهم على ذلك أن أرضهم كما ذكرنا طيبة لينة ، يكتفي فيها بأقل الحرث؛ ولا يكفي مثل ذلك من الحرث في غيرها من البلاد (٥) .

غريبة : وقد خرج (*) معنا رجل من أهل الزاوية المذكورة (٦) ممن ينتحل الفقه ومعه بعض الحمارنة، قدموا هناك يمتارون تمراً (٧) ؛ وسألهم أمير الركب أن يدلونا الطريق إلى بلادهم فساروا معنا. فبينا أنا أسير في اليوم الثاني ضحى إذ بهم قد جاءوا على خيلهم وبأيديهم صقر يسألون عني في الركب حتى

(*) ورقة ٤٢ ظهر . الترقيم هنا يشير إلى صفحات مخطوطة طرابلس (ط) التي اتخذت أصلاً .

(١) ط : على البغال.

(٢) ط : رأيناه.

(٣) ط : حراثة الجمل للشئ حراثة للشئ يفسد أكثر مما يصلح.

(٤) ط : على .

(٥) ط : الد .

(٦) يقصد زاوية جمنة.

(*) ورقة ٤٣ وجه

(٧) تميارون تترا.

وجدونى، فسلموا على بعدما نزلوا عن [1] خيلهم . فلما ركبوا قال لى المتفقه منهم : أريد أن تأذن لى فى سؤال عن مسائل فقهية. واستحسنت أدبه فى الاستئذان [2] فى السؤال، واستقحبت فعله فى سؤاله إياى وهو راكب وأنا ماش. فأذنت له فى السؤال حياء من رده، فأخذ يسأل عن مسائل من العبادات. فبينما أنا أخوض [3] معه فى ذلك إذ لمح [4] الركب أرنباً، فتصايح الحجاج عليها يميناً وشمالاً. فلما رأى ذلك أرسل عليها الصقر، وأخذ يركض فى إثرها، وذهب وتركنى، ولم يسمع تمام الجواب عن مسائله. فتعجبت من [5] استئذانه فى السؤال، وذهابه من غير استئذان من قبل إتمام الجواب؛ فعلمت أن الرجل فى الغالب أخرق، وأن استئذانه أولاً لم يكن عن أدب وإنما هو شئ رآه من غيره أو سمع به فعلق بذهنه.

وفى اليوم الثالث من رحيلنا من نفزاوة تركنا جبال مطماطة عن يميننا، ومررنا ضحى بقبر سيدى كنّاو وهو فى قرية خالية فضاء من الأرض، مدفون بإزاء مسجد حسن عتيق عليه بهاء ورونق. وأهل تلك النواحى يحترمونه كثيراً، ويأثرون عنه [6] كرامات عظيمة؛ منها أن الناس يقصدونه من سائر النواحى بصدقات كثيرة من زرع وتمر (*)وإدام ولحم. ويوضع ذلك فى بيوت خارج المسجد، ومن جاء أكل منه حاجته ولايرفع منه شئ، ومن رفع شيئاً منه عطب فى الحين. واشتهر ذلك منه وذاع على ألسنة الحجاج وغيرهم من أهل البلد؛ وكان فى الركب [جماعة] من الصعاليك فتسارعوا إليه أمام الركب رجاء أن يجدوا فيه شيئاً من ذلك، ولم يصادفوا منه شيئاً لأن السنة كانت سنة قحط وجوع.

---

(١) ط : على . (٢) ط : الاستيذان.

(٣) ط : أخود. (٤) ط : نفح .

(٥) ط : عن . (٦) ط : عليه.

(*) ورقة ٤٣ ظهر .

ووجدنا عامل مدينة تونس، مراد باى[1] بن حمود باى [1]، قد نزل بعسكره بقابس، وأمر ببناء ذلك المسجد وتجديده وحفر بئر [2] هناك لأن الموضع لا ماء فيه. ووجدناهم قدحفروا فى البئر نحو مائة ذراع وأكثرها فى حجر أبيض كأنه رخام، ولم يصلوا إلى الماء ، وهم جادون فى العمل فى ذلك اليوم.

وجئنا إلى قرب زريق، وهى بلدة فيها زاوية سيدى عبد الله بن عبد العزيز ابن يحيى بن عبد الرحمن بن جابر، أحد السادات الحمارنة[3] ، ومن أفاضلهم. وكان ولده قدم معنا من نفزاوة، وتقدم هو إلى بلده. وهذا السيد قد أدركناه حياً سنة ٦٥ [١٠هـ] [١٦٥٤م] ، وزرناه إذ ذاك وهو فى مرض معطل، طال به نحواً من خمس وعشرين سنة، فى غالب أوقاته مضطجع دائم الاضطراب. وكان سبب مرضه - والله أعلم - أنه كان مولعاً بعلم أسرار الحروف والأوفاق، وتعاطى من[4] ذلك كثيراً، وجمع من كتبه جملة، ولم يكن ذلك منه على يد كامل عارف، فأورثه ذلك ضرراً فى بدنه إلا أنه والحمد لله معافى فى عقله ودينه. وكان له أخ يتعاطى علم الحدثان، واشتغل بعلم الزايرجة ونال منه حظاً كما نال أخوه حظاً من علم الحروف والأوفاق، وربما يتصرف بذلك فى بعض الأحيان فيظهر أثره فى الوجود[*] فى قهر ظالم أو ما يشاكل ذلك. وقد أخبرنى شيخنا سيدى محمد بن مساهل عن أخيه الذى اشتغل بالزايرجة بأمور غريبة أخبره بها أيام كانت الحرب بين عساكر الجزائر

---

(١) ط : يىّ. فى الهامش : قف لتعرف وأن عامل تونس ووليها فى سنة ١٠٦٤هـ هو مراد باى بن حموده باشا :

(٢) بير .

(٣) ط : فى الهامش : قف بلدة اسمها زريق فيها زاوية سيدى عبد الله بن عبد العزيز الحمروى.

(٤) ط : : تعانى عن. وفى الهامش : اعرف ماوقع من تعاطى علم الأوفاق وما أخبر به فى الحرب .

(*) ورقة ٤٤ وجه

وعساكر تونس، وأن الغلبة لأهل الجزائر. وأخوه [1] المذكور اسمه - في غالب ظني - سيدي أبو القاسم بن عبد العزيز، ولم ندرك حياته بل توفي قبل هذا بأزمان. وأما سيدي عبد الله بن عبد العزيز فقد توفي - في غالب ظني - قبل الـ ٧٠ [١٠هـ] [١٦٥٩م] هو وجملة أولاده في مدة قريبة، ولم يبق منهم إلا ولده سيدي محمد الصالح. وقد أخبرني عن والده أنه في مدة مرضه كلها، مع تطاوله وغلبة الوجع، كان ثابت الذهن[2]، يدرس عنده كتب الفقه، ولم يترك أوراده ولا حزبه من القراءة، في أوقات الصلاة يجلس حتى يصلي ؛ وولده هذا من أهل الخير متمسك بسيرة أسلافه. وقد تعرض لنا يوم مرورنا بإزاء قريته، وأتى لنا ولشيخ الركب بتمر وشعير، فجزاه الله خيراً. ثم مشى معنا أميالاً كثيرة وودعناه وأودعناه الدعاء[3].

ومررنا ذلك اليوم بقرى متعددة ولم نبت [4] إلى عرام[4]، وهي قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادات الحمارنة [5]، إذ بها مقابر أسلافهم سيدي يحيى وغيرهم من أكابرهم. وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة إلا سيدي عبد الله بن عبد العزيز المتقدم فإنه دفن بجانب زاويته بزريق.

ثم ارتحلنا من قرية عرام، ونزلنا قرب واد يقال له[6] وادي السمار؛ ثم ارتحلنا منه ولقينا ركب أهل تو س القافلين من الحجاز، لم يكن فيهم أحد[7] ممن نعرفه حتى نستقصي منه الأخبار. وبالجملة أخبرونا عما استقبلنا [*] من

---

(1) ط : وأخيه.
(2) ط : الدهن.
(3) ط : الدعا .
(4) ط : ثبت . عدام.
(5) ط : الاحمارنه.
(6) ط : لها.
(7) ط : أخذ.
(*) ورقة ٤٤ ظهر .

البلاد بخبر الخير من الخصب والرخاء والعافية – نسأل الله الكمال. ورحنا تلك الليلة إلى ماء يقال له النبش، وهو أحساء متعددة فى أصل واد، ولذلك تتردم كثيراً، قل ما يوجد منها مصلوحا إلا واحد. وقد لا يوجد فيتعب الحجاج فى إصلاحه ومع ذلك فماؤه ليس بذلك، تغلب عليه الحمأة فيتغير بها لوناً وريحاً وطعماً. وقد وردناه سنة ٦٤ [١٠هـ] [١٦٥٤م]، أول يوم من الصيف، فكاد الناس أن يموتوا عطاشاً وهم نزل عليه لقلة الماء وخبثه. وكذلك وردناه [1] قبل ذلك سنة ٥٩ [١٠هـ] [١٦٤٩م] ولقينا فيه مثل ذلك أو أشد . وفى هذه السنة جئنا أوائل الربيع والبرد غالب فلم يضطر الناس إليه كل الاضطرار.

ثم ارتحلنا منه وسرنا يوماً إلى قرب العصر، وخرج لصوص على بعض الصعاليك ممن تقدم أول الركب فسلبوهم، فبلغ الخبر إلى أمير الركب، واتبعهم وحده حتى استنقذ منهم ما أخذوه؛ وفيه نجدة وكفاية فى الأمور المهمة، فكم له من مثل هذه الفعلة الجميلة – جزاه الله خيراً. وبسبب ذلك نزلنا ذلك اليوم قبل وقت النزول فى شفير واد كبير ابج تحف به [2] مزارع كثيرة من الجانبين، إلا أن ماءه ملح أجاج لايساغ ولو مع الضرورة. وقد يجمد أيام الحر فيصير سباخاً.

وفى الغد ارتحلنا منه وبقى لنا جمل نحره أصحابنا من الحجاج وتأخرنا بسببه ولم نلحق بالركب إلى سوانى بن كردان، وهى آبار كثيرة غزيرة الماء فى بسيط من الأرض كثير المزارع. وفيه آثار قرى خالية ومسجد ومزارة، ولا تخلو هذه البلدة غالباً من قوم ينزلونها من الحمارنة(*) أو غيرهم من بوادى تلك الناحية. وعادة الحجاج أن يأخذوا من ذلك المحل ماء يومين، فلأجل ذلك وقف الركب فيه برهة ريثما أخذ الناس حاجتهم من الماء وسقوا دوابهم واستقوا [3] وساروا.

---

(١) ط : وردنه.

(٢) ط : ابح تحف فيه.

(*) ورقة ٤٥ وجه .

(٣) ط : واستاقوا.

وبتنا تلك الليلة قريباً من الحجر الذى هو منتصف الطريق بين السوانى وبرج الملح، لايخلو فى الغالب من ماء المطر إلا أن الطريق لما كانت مسلوكة لايوجد فيها غالباً إلا ماء قليل [١] لايكفى القليل من الناس فضلاً عن الركب.

وفى الغد ارتحلنا من هناك فلما كان قريباً من الظهر بدا لنا البحر عن يسارنا ودنونا منه، فتسارع إليه من لم [٢] يعرفه من الحجاج، ولم تزل الطريق تقرب منه إلى أن مرت بإزائه كرمية حجر عند برج الملح. ونزل غالب الناس هناك عن رواحلهم للوضوء ولأخذ المحتاج من الملح. وفى ذلك المحل مرسى جيدة ينزل بها النصارى بأذن أمير البلد يأخذون الملح من سبخة كبيرة هناك فيها ملح عجيب. ثم تجاوز الناس ذلك المحل قرب العصر ولم يكن عند الناس ماء وهم طامعون أن يصلوا إلى الماء ولو بعد المغرب حتى ظهر فى بعض الإبل جفال ونفور، ورفع كل بعير رأسه كأنه فتاة[٣] نفور، فأكثرت العدو لما استقلت الخبب[٤] ، ولم يعلم الناس فى ذلك ما السبب. فمن قائل إن سبب هذا الأمر[٥] المفجع استيحاشها برؤية البحر المفظع [٦]، ولم تكن رأته قبل ذلك الأوان ولا عهدته فى سالف الأزمان، فارتاعت لرؤية شئ لم تَرُع بمثاله إذ غالبها من صحراء المغرب الأقصا وجباله، لا تعرف إلا الهضاب والتلول[٧] والمراتع المخصبة وأفنية [*] الطلول. ومن قائل إن الشبع والطرح أحدث فيها النشاط والفرح [٨]، ورب طرب أدى إلى هرب. وذلك لأنها وجدت الكلأ فى

---

(١) ط : غالب إلا بال قليلاً.

(٢) ط : ولم .

(٣) ط : فتات .

(٤) ط : الجيب.

(٥) ط : السبب هذا الأمير .

(٦) ط : المفضع.

(٧) ط : التالول.

(*) ورقة ٤٥ ظهر .

(٨) ط : الفرج.

تلك الأيام على أغراضها واستراحت بذلك[1] من تعبها ومرضها. وكلا القولين أنسب، والأول أقرب. ولم يهتبل الناس بنفور ما نفر منها ورأوا أن الرأى فى الأعراض عنها إذ لم يعهدوا ذلك منها فيما مضى، وظنوا أنها ترجع إلى حالها المرتضى من التؤدة فى المشى والسكينة لما بها من الضعف حتى لا تكاد ترى فيها سمينة. فبينما هم على ذلك الحال، وحال تلك عن نفورها ما حال، إذ أجفلت إبل الركب كله [2] أى إجفال كأنها اتفقت على ذلك بلا إغفال، فلا يعلم لها إدبار من إقبال. ورمت ما عليها من الأحمال، ولم تلق لما ألقت من الأمتعة من بال، ولم تبال قطع جديد[3] من الحبال ولا بال ، ولم يبق على ظهورها حقير من المتاع ولا ذوبال؛ وكان ذلك وقرص الشمس للغروب قد مال، فلا تسمع إلا صياح الحجاج على اليمين والشمال، كأنهم رافعون أصواتهم بالإهلال. وتلفت فى ذلك البضائع والجمال، ولم يسلم فى ذلك إلا من بادر إلى إناخة إبله وعقلها، وأخذ فى جمع ما سقط من الأمتعة ونقلها، وبات مكانه متفرداً[4]، وإلا صار من ماله وإبله متجرداً. وكنا ممن لطف الله به ففعل مثل هذا الفعل فلم يضع لنا بفضل الله بعير ولا حمل. وبات الناس تلك الليلة يترددون فى الطرقات، ويجمعون ما تساقط من الأمتعة فى الفلوات. وتفرق الناس فى النزول شذر مذر[*] ولا يغنى حذر من قدر. فلم يسأل جار عن[5] جاره، ولم يبحث أحد عن محل داره إلى أن أصبح الناس وقد عمّهم الطيش كأنما دهمهم الجيش. ولم يسلم من الضياع إلا القليل وحار فى أمرهم الدليل، فمن قائل نرحل حتى نصل الماء والعمارة، فنبعث [لطلب] مابقى [من] بعض السيارة؛ ومن قائل نقيم هنا ونستقصى فى الطلب، ونبعث من يأتى بالماء فى

---

(١) ط : من ذلك.

(٢) الركب كله مكررة هنا.

(٣) ط : جريد.

(٤) ط : منفرداً .

(*) ورقة ٤٦ وجه .

(٥) ط : من .

القرب. فكان الرأى ما رآه واتبع الناس هواه، فركب أصحاب الخيل والنجائب وساروا فى طلب ما تلف من الأمتعة والركائب، فجمع الله الإبل كلها عليهم. إلا جملين. وأما الأمتعة فضاع منها نحو من وقرين. ومن جملة ما استولى عليه الضياع بضائع لبعض (١) الحجاج أخرجت من وسط المتاع، فاتهم فى أخذ ذلك الصعاليك الذين فى الركب، وظن الناس أن ذلك يظهر بالقرب، فلم يظهر ذلك إلا بعد مدة ودخول الحجاج إلى مصر فى العودة.

ثم ارتحلنا غداً وعادت الإبل إلى عادتها الأمسية من النفور حتى كأنها ليست من الأنعام الإنسية، وكان المحل كثير العشب سيما شجر البرواق، فإذا مشت الإبل فيه لا تسمع إلا طاق طاق، فحاق بالإبل (٢) من ذلك رعب شديد ولحق أهلها منها عناء مديد. فاتخذ الناس لها أرسانا يقودونها بها أزماناً إلى أن خرجت من ذلك المكان، وسكنت بعض السكون بالدخول بين المساكن والسكان. فحصلت لها بعض الدعة (٣) بعد أن أتلفت أيضاً فى ذلك اليوم بعض الأمتعة.

ونزلنا الزوارات الغربية (٤) قبل الظهر، ثم ارتحلنا منها غدا ومررنا بالزوارات الشرقية . ومر الركب خارج البلد، ودخلت أنا وبعض الأصحاب إلى البلد على رجلى، ولم ألحق (*) بالركب إلا بعد تعب وعناء. وكان من لطف الله بالناس ذلك اليوم أن هبت ريح قوية جاءت من ورائنا فأذهلت عما خامراً شرارها من النفور، والناس مع ذلك لايهدأ (٥) لهم روع بسببها. وبتنا تلك الليلة بإزاء

---

(١) ط : لبعت.

(٢) ط : مخلق الابل.

(٣) ط : الذعة.

(٤) ط : العربية .

(*) ورقة ٤٦ ظهر .

(٥) ط : لا يهدى .

المسجد الذى بين الزوارات وزواغة، وهو [1] مسجد صغير محكم الصنعة فى أرض مرتفعة ، وحوله أثر بناء، ومحل لماء المطر فى صفاة[3] واسعة. والمسجد كله ملبس بالجص الأبيض، وله إشراق وبريق يظهر من مكان بعيد، وبينه وبين البحر نحو من ميل. وقد أخبرنا أن بعض الصعاليك فى بعض السنين آواهم الليل إليه فباتوا، فجاء مركب النصارى إلى مقابلتهم فى البحر، ونزلوا لأخذ الماء ولغير ذلك فوجدوهم فى المسجد فأسروهم، ولم يشعر بهم أحد لبعد المكان عن العمران.

ومن هـذه المرحلة تقدم بعض أصحابنا إلى مدينة طرابلس لتهيئة المحتاج إليه من مسكن وغيره، وكتبت معه كتاباً لشيخنا سيدى محمد بن مساهل [4] لنعلمه بقدومنا والوقـوف مع أصحابنا فى محنتـنا [5]، ومن جملته [6] أبيات أولها :

١ – أسيدنا مفتى الـورى ابن مـساهل	ومنهل فضل فاق كل المنـاهل
٢ – عليك سلام الله ممن غدت[7] لكم	عليه أيـاد فى الفصـول الأوائـل
٣ – بنورك يستهدى إذ الأرض أظلمـت	على أهلها بالجهل أهل السواحـل
٤ – فكم قد أنلت العرف سائله وكـم	منـنت بلا سؤل وجـدت بنائـل

فى أبيات أخر لا استحضرها.

وبعـدمـا ارتحلنا من هذه الدار ، ووصلنا أوائل بلد زواغـة، لقـينا ركب الحجاج المغاربة الهابطين من أهل مراكش ومن انضاف إليـهم، وشيخهم أقدم

(١) ط : وهى : فى العودة – تصحيح زواره يصبح زواغة.
(٢) ط : صفات.
(٣) ط : امسهل.
(٤) ط : مهنتنا .
(٥) ط : جملة.
(٦) غادت.

أهل تلك الخطة في ولايتها (*) وأولاهم بالتقديم لحفظ حدودها ورعايتها، الشيخ ابراهيم الفران ومعه الحاج منصور الغسال، وركبهم ليس بالقوى. وتلقفنا منهم خير ما استقبلناه من البلاد[1]، ولقينا معهم بعض أهل بلدنا، وبعثنا معهم كتاباً إلى من خلفناه ببلدنا من الأهل والعشيرة والأصحاب، وسيأتي ذكرها عند تعرضنا لذلك.

وكان لقاؤنا للركب المذكور في أشد مايكون من القلق، ولم يستوعبوا لنا الأخبار التي تتشوف النفوس إليها بل وقفوا هنية ريثما [2] دفع لهم من تيسر له كتاب إلى أهله، فتفرق الفريقان. وسرنا ذلك اليوم وبتنا بزاوية صرمان. ثم في الغد مررنا صباحاً بالزاوية الغربية، وزرنا سيدي يحيى الكمودي، ودعا لنا بخير وودعناه. وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب أهل الجزائر القافلين من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ بن الولي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي، خرج معهم يشيعهم إلى جربة، ومعه جملة [3] من أولاد سيدي حامد القاطنين بجربة. وكان تزوج منهم امرأة وله دار عندهم هناك بجربة يأتيها الفينة بعد الفينة[4]. وهو ممن نفع الله به العباد في تلك النواحي، وجمع الله القلوب على محبته، وهابه الأمراء وانثال [5] عليه للتبرك الأغنياء والفقراء. ولما التقينا به جلس معنا ساعة وزرناه ودعا لنا بخير. وأمير ذلك الركب سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي محمد بن المسود، من بلاد مروكال، وله رباع ببسكرة، وربما استوطنها. وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح وممن كان يتردد بالركب إلى الحج الشريف. وتأكدت بينه وبين

(*) ورقة ٤٧ وجه.

(١) ط : البلد.

(٢) ط : ربما. هنيئة.

(٣) ط : حمدة.

(٤) الفيئة بعد الفيئة.

(٥) ط : واتثال.

سيدى محمد الصيد الصحبة فلذلك نشأ (*) الولدان على طريق والديهما فجزا الله ولداً (١) أنهج له والده سبيل الخير فاقتفاه، وقام بالعهد فى اتباع سلفه الصالح ووفاه.

وممن لقيناه فى ذلك الركب الحاج الأبر، الشيخ ابراهيم بن جلاب الريغى(٢)، أخو الأمير العادل الشيخ أحمد، والد أمير بلاد ريغ فى هذا العهد. وكان مجاوراً بالحرمين عدة من السنين، وبيننا وبينه معرفة من قبل هذا. وهو الذى شفانا من الأخبار؛ وأخبرنا بموت شيخنا القشاشى - رضى الله عنه - بالمدينة، وبموت الغوث الأعظم بمكة، السيد محمد باعلوى؛ وبموت الشيخ أبى الحسن الطبرى بمكة أيضاً، وغير ذلك من الأخبار. ثم ودعناه وسرنا يومنا، وبتنا قرب جنزور (٣)؛ ثم ارتحلنا منه قاصدين إلى مدينة طرابلس - أمنها الله - ، وبينها وبين هذه البلدة نحو من اثنى عشر ميلاً.

ذكر وصولنا إلى مدينة طرابلس - حماها الله من الأغيار .

وكان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء ١٧ رجب الفرد. وهى مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة. ومآثرها جليلة ومعائبها قليلة؛ أنيقة البناء فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها(٤)، سهل طروقها؛ إلى ماجمع لأهلها من زكاة الأوصاف وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المعتافين بأنواع المبرات عائدة. لاتكاد تسمع من أحد من أهلها لغواً إلا سلاماً، ولو لمن استحق ملاماً؛ سيما مع

(*) ورقة ٤٧ ظهر .

(١) ط : والدا .

(٢) ط : الريغ .

(٣) ط : نزور .

(٤) ط : طروقها.

الحجاج الواردين ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين (*) فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهداً في إفضالهم عليهم وإنعامهم.

ولهذه المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر؛ لأن البحر محيط بكثير من جهاتها. والحصن (١) الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر، بينه وبين البحر. ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو - دمرهم الله -، وله مراكب قل نظيرها، معدات (٢) للجهاد في البحر؛ قل ما تسافر وترجع بغير غنيمة، وقل ما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد - فجزاهم الله خيراً وأعانهم على ما أولاهم من ذلك، وسائر بلاد المسلمين أجمعين.

وكان عادة الركب إذا دخل هذه المدينة سيما في الذهاب أن يقيموا بها نحوا من شهر، يستعدون منها لدخول المفازة التي قل نظيرها، وهي مفازة برقة. ومن هذه المدينة يشترى الحجاج مايحتاجون من الإبل والقرب، ويتخذون زاداً نحواً من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاء؛ وإن كان صيفاً فنحواً من شهرين. وإبل عمالة طرابلس غاية في الجودة، قل أن يوجد لها نظير، شبيهة بابل بلدنا بل تزيد هي عليها بكثرة الخدمة. فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراس، ويستقون عليها ويديرون (٣) الرحا؛ فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هذا البلد ونقاء مرعاها. فيقل فيها الغش، وتندر (٤) أمراضها، ولذلك قيل في أمثال الحجاج : جمل طرابلس وقربة مصر. لأن قرب هذه البلدة ردية الدباغ، وماؤها خبيث المساغ، ومع ذلك لاتمسك من الشراب إلا كما

(*) ورقة ٤٨ وجه .

(١) ط : الحصار.

(٢) ط : معداة.

(٣) ط : يزيدون.

(٤) ط : وتندر .

يمسك الماء الغرابيل ، من اتكل عليها أوسعت عليه الرِّى أول المسافة، وأوردته آخرها موارد [١] التلف والمخافة. وهذه[*] المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين فى أمر معاشهم، فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآيبين خمسة أو ستة، ويصادف ذلك فى كثير من الأحيان خروج عسكرهم البحر للجهاد، ومع ذلك لايزيد فيها السعر على ماكان فى كل مطعوم بل ربما نقص فى الغالب، مع أن البلد فى أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله إلا أن أهلها مستكفون بها غاية، وراضون بها إلى النهاية؛ وهى جديرة بذلك. وإذا اجتمع الأركاب فيها كثر الزحام على الأراحى غاية فيلاقى الحجاج من ذلك مشقة، ولولا ما جبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج أخذ [٢] الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين، سيما من لم تطل إقامته كركبنا فى هذه السنة. فإنا لم نقم بها إلا نحو العشرة أيام، وذلك شأن ركب الإبل الواردين فى كل سنة، فإنهم يتأخرون ويستصحبون معهم جل مايحتاجون من إبل وبقر ، فلا يزيدون منها إلا قليلاً. وإنما يحتاجون فيها إلى اتخاذ الركب فقط [٣]. وأما ركب الجريد، أهل البغال والحمير، فتطول إقامتهم بها فى الغالب، وربما أقاموا الشهرين أو أزيد لبيع الدواب وشراء ماتقدم ذكره، فكأنهم يستأنفون [٤] منها سفراً آخر غير السفر الذى كانوا فيه قبل ذلك لأنه مخالف له فى كثير من أحواله حتى كأنه لايشاركه إلا فى مطلق السفر. ولذلك تجد كثيراً ممن لم يتقدم له حج يشق عليه الخروج من طرابلس أكثر من الخروج من بلده، وكذلك الخروج من مصر بالنسبة إلى ماقبله – نسأل الله العون والتوفيق على سلوك أحسن طريق.

---

(١) ط : مواد .

(*) ورقة ٤٨ ظهر .

(٢) « أخذ » مكررة فى ط .

(٣) ط : إذ فقط .

(٤) ط : يستقفون.

وكان نزولنا يوم دخلنا طرابلس فى المحل الذى(*) كنا ننزل فيه قبل ذلك، فى مضربة (١) على باب المسجد المسمى بجامع الحاج إبراهيم، بأقصى المدينة قرب ضريح ولى الله تعالى سيدى سالم المشاط. وكان إمام هذا المسجد صاحبنا الفقيه النبيه الأورع النزيه سيدى أحمد بن عيسى اليربوعى، وكان من أماثل هذا البلد علماً وورعاً وذكاء أخلاق وطيب أعراف. وكان أبوه سيدى عيسى هو قاضى المدينة منذ أزمان كثيرة؛ فلما توفى أبوه تولى هذا القضاء، وحمدت سيرته فيه، وتحلى بحلية العدل ثم استعفى منه فأعفى. ثم أعيد ثانية، وعظم صيته وانتشر الثناء عليه، وكثر حامدوه إلى أن توفى قبل وصولنا بأشهر قليلة؛ وكثر تفجع الناس عليه، وأعقب الذكر الجميل فيهم. فلما سمعنا خبر موته تفجعنا لفقده، وكان لنا فى تلك المدينة أحسن رفيق وأعظم معين فى النوائب شفيق - رحمة الله عليه تترى (٢) ورضوانه دنيا وأخرى. وبعد وفاته لم يجد أهل حرمته أفضل من ولده سيدى محمد بن أحمد لتوليه المسجد المذكور والصلاة فيه فقدم لذلك؛ وهو سائر - إن شاء الله - على سيرة أبيه - والله يعينه على ما تولاه، ويرزقه القيام بشكر ما أولاه. وقد تلقانا يوم قدومنا أحسن الملاقاة، وقام ببعض الواجب مما كان يقوم به والده رحمه الله؛ وهيأ لنا المنزل وأعان فى المحتاج من اتخاذ الزاد بالميسور من سمن (٣) وتوابعه.

ولما اطمأن بنا المنزل ذهبنا لزيارة شيخنا مفتى البلد سيدى محمد بن أحمد بن مساهل - رضى الله عنه -، فلقينا أحسن الملاقاة (٤) ، وفرح بقدومنا - فجزاه الله خيراً. ووجدناه - رضى الله عنه - قد استعفى من الفتوى فأعفى (٥)،

(*) ورقة ٤٩ وجه .

(١) ط : مصرية .

(٢) ط : تترا .

(٣) ط : طحن .

(٤) ط : الملاقات.

(٥) ط : فأعفا.

وبقى ملازماً لداره ومسجده للتدريس فيه، مستريحاً (*) من التكاليف مشتغلاً بمطالعة التآليف. ولا يقطع (١) القراءة فى الغالب صباحاً ومساء، شتاء وصيفاً، يقرأ ماتيسر من فقه ونحو وما يشاكل ذلك؛ ويختم بشئ من كتب الوعظ والتذكير. وهذا الشيخ - رضى الله عنه - من أحسن من رأينا سمتاً ودلاً، وأحذقهم (٢) قولاً وفعلاً، له مشاركة فى العلوم وحسن إطلاع على فروع المذهب؛ طالت ولايته للفتوى نحو الأربعين سنة، وحمدت سيرته فيها. وله مع ذلك ميل قوى إلى طريق القوم، وقد أخذ الطريق على ولى الله بلا نزاع بين أهل تلك البقاع سيدى محمد الصيد - رحمه الله ورضى عنه. والصيد فى لغة أهل هذا (٣) القطر هو الأسد، وسمى بذلك لكثرة ردعه للظلاّم وقهره للجبابرة حتى كان لايجترئ أحد على معارضته فيما أمر به، ولا يتعرض لمن انتسب إليه، وظهرت له(٤) كرامات. وقد أخذ الطريق عن سيدى عيسى بن محمد التلمسانى المشهور بأبى مغرة؛ وهو أخذ عن الولى الكبير والعالم الشهير سيدى أبى عمرو القسطلانى المراكشى، ولأجل هذه النسبة لم يزل والد الشيخ المذكور سيدى عبد الحفيظ يبالغ فى تعظيم أولاد السيد أبى عمرو بل فى تعظيم كل من ينتمى إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك. وإن اتفق قدوم أحد منهم عليه لايبقى (٥) ولا يذر فى إكرامه، والمثول(٦) بين يديه كأصغر الخدام وأحقرهم. ولقد حج معنا سنة ٦٠ [١٠هـ] [١٦٥٠م] سيدى محمد بن أبى القاسم من أولاد سيدى أبى عمرو، وتلقاه بالبر والتعظيم وأنزله عنده وأبلغ فى إكرامه ، وشيعه فى الذهاب والإياب نحوا من سبع مراحل . ولقد أخبرنى من حضره ذات يوم وقد

(*) ورقة ٤٩ ظهر .

(١) ط : تقطع .

(٢) ط : وأحدقهم.

(٣) ط : هذه .

(٤) ط : إليه .

(٥) ط : ولا .

(٦) ط : والمتولى .

غسل سيدى محمد بن أبى [*] القاسم يده صباحاً ورأسه من حناء كان بها فى [1] إناء، فأخذ سيدى عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة فى ذلك الإناء وشربه - نفعه الله تعالى بحسن اعتقاده. ولهذا السيد اعتقاد حسن فى كل من ينتسب إلى الصلاح، ولقد نفعه الله بذلك، فطار صيته، وانتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه، وهابه الولاة فمن دونهم. وله كما قيل دنيا عريضة من كل المال، قد أتاه الله نعماً وحرثاً وغيرهما، يطعم منها الواردين ويواسى المحتاجين - أعانه الله على مابه تولاه، ورزقه الشكر على ما أولاه.

وتوفى الولى أبوه سيدى محمد الصيد سنة ١٠٥٠ هـ [١٦٤١م] ، وقد أخبرنى شيخنا سيدى محمد بن مساهل أنه منذ عرفه لم يترك صلاة الجمعة عنده إلا لعذر ظاهر. ولم يزل على ذلك إلى الآن منذ [2] أزيد من أربعين سنة؛ يذهب كل يوم جمعة ضحى إلى محل الشيخ المذكور بالقرية المسماة بالهنشير، وبينها وبين المدينة ستة أميال، فيصلى هناك الجمعة، ويدرس هناك فى مسجد الشيخ إلى أن يصلى العصر ويرجع إلى المدينة، لا يترك ذلك دائماً.

لطيفة : أخبرنى شيخنا هذا أن شيخه المذكور قال له إن لأهل الله مراغة كمراغة الإبل لايمر بها أحد إلا تمرغ بها، وإنى لأرجو [3] أن يجعلك الله مراغة لأوليائه. ولأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب إلى هذا الطريق المبارك إلا كان إيواؤه إلى هذا الشيخ، إما بنزول عنده أو التردد إليه. وكان - رضى الله عنه - يقوم بحوائجهم قدر الإمكان ويواسيهم - نفعه الله بقصده الجميل. ولقد وجدناه فى هذه السنة منقبضاً منزوياً عن أكثر الناس

(*) ورقة ٥٠ وجه .

(١) ط : من .

(٢) ط : منذ .

(٣) : ط : لا أرجوا.

(*)لأجـل ماحصل له من التوجع على صهره، زوج ابنته. وكان من شأنه أنه كان هـو وأخـوه من طلبته، وكان من أنجب طلبة الحنفية، وزوجهمـا الشيخ ابنتيه، فلم يزل حالهمـا في الرقـي إلى أن تولى أكبرهما فتوى الحنفية. وكانت له المنزلة الرفيعـة في البلد وعنـد العسكر. وكان الشريف المتولى لطرابلس قبل محمد باشـا[1] المقتول سنة ١٠٤٠هـ [١٦٣٠م] قد خلف ولداً صغيراً وبقى في كفالة خديمه محمد باشا [1] الذى تولى الإمارة بعده. فلما مات وأفضت الإمارة إلى عثمان باشا مملوك الشريف المذكور رفع بضبعي ولد سيده، ورقاه مراقى الرياسة. فلما تمكنت قهرة الرياسة الممزوجة بحداثة السن من رأسه منته نفسه الثورة على مملوك أبيه، عثمان باشا. وظن أن المراتب الدنيوية بالاستحقاق، وأن نسبه الرفيع يحصل له في شرف الولاية النِّفَاق [2]، ولم يعلم أن الناس أعوان من والته دولته، وهم عليه إذا خانته عوّان [3]. وصادف ذلك ملال من الرعية لولاية هذا الأمير، لكثرة ظلم أعوانه فى الجباية، فمالت نفس كثير منهم إلى مقاتلته مع الشريف[4]. ورجح ذلك عندهـم تآزره [5] واعتضـاده بولد نويمر رئيس عرب الناحيـة الغـربية من طرابلـس، وكان ذا شهامة وبأس شديد، وقد أظلم الجـو [6] بينه وبين أمير البلد . فاتفقت كلمته وكلمة الشريف ومن دان بدينهم من الرعيـة كأهل تاجورة وساعدهم على ذلك مفتي الحنفيـة المذكـور وطائفة قليلة من العسكر. فلما كاد أمرهم أن يتم ونمت[7] على سريرتهم أسارير وجههـم، وإشـارات[8] أقوالهـم، أوحـى بذلك إلى الأميـر بعـض بطانتهـم

(*) ص ٥٠ ظهر .

(١) ط : باش .

(٢) ط : سرق الولاية النفاق.

(٣) ط : ط : إذ خانته عوان.

(٤) ط : مقاتلة الشريف.

(٥) ط : ورشخ ذلك عندهم تأزره.

(٦) ط : الجد.

(٧) ط : وتمت .

(٨) ط : أشارت.

ممـن أراد بذلك اتخاذ يد(*) عنده. فأوجس الأمير فى نفسه خيفة منهم، وكان ممن لايقعقع له بالشنان. فاحتال فى القبض عليهم خفية، وأظهر التجاهل والغفلة عن أمـرهم، وبادر بالخـروج إلى ناحيـة تاجـوراء (١) حيث محـل (٢) ربطهم وحلهم. وأوعز (٣) إلى بطانته بعد تحصين البلد بالقبض على الشريف والمفتى ومن ساعدهم، إثر خروجه. وأظهر للرعية عدم المبالاة (٤) بذلك. وقال قد علمت أنكم براء مما نسب إليكم، يخدعهم بذلك لئلا يثوروا ثورة واحدة. واستعان على تسكين روعتهم بالشيخ سيدى عبد الحفيظ، وخضع له وتذلل. فلما رأت الرعية استكانته لجانب الأشياخ اطمأنوا، ولم يزل كذلك إلى أن فرغ من أمر الشريف وأتباعهم فكر على الرعية بقتل ذوى الرأى، وإغرام أتباعهم بما جعلهم عبرة لغيرهم. فلما خلا له الجو من هذه الطائفة أخذ يتجسس عن كل من (٥) مالأهم بكلمة أو إشارة (٦) ، فربما أشير إليه أن شيخنا سيدى محمد بن مساهل ممن له فى ذلك إشارة، مرجحاً (٧) ذلك بأن صهره مفتى الحنفية لايقطع أمراً دونه فتنكر (٨) له الأمير فى باطنه ، ولم يبده للناس لوجاهة الشيخ فى البلد بعلمه وورعه. فلما علم الشيخ بذلك استعفى من الفتوى فأعفى، وبقى ملازماً لداره ومسجده للتدريس فيه، مستراحاً من التكاليف، مشتغلاً بمطالعة التآليف — رضى الله عنه وأرضاه.

(*) ورقة ٥١ وجه .

(١) انظر ماقبله تاجورة.

(٢) ط : ماحل.

(٣) ط : وأوغر.

(٤) المبالات.

(٥) « من » ناقصة فى ط .

(٦) ط : أوشارة.

(٧) ط : من له فى ذلك إشارة مرشحا .

(٨) ط : فتكر.

لطيفة : أخبرني شيخنا ابن مساهل [(١)] عن بعض مشايخه أنه قال : إذا أذن خلف المسافر فذلك أمان حتى يرجع من سفره. وروى ذلك لنا حديثاً. وقد فعل ذلك لنا - رضى الله عنه - حين ودعنا خارج داره، فرأينا بركته - ولله الحمد.

غريبة [(*)]: أخبرنا أيضاً أن سيدى على الحضيرى ذكر فى شرحه على المختصر أن الزباد المسمى فى عرف غربنا بالغالية نجس وإن كان عرقاً حياً [(٢)] لمروره بمحل البول. قال ، وكان بعض الصالحين لايتطيب به لذلك، وأظنه الشيخ اللقانى. قال شيخنا : وكنت أتوهم ذلك إلى أن بعثت بحضرة الشيخ سيدى عبد الحفيظ إلى قط من القطوط التى يستخرج منه الزباد، وكان عند بعض الأتراك. فلما أحضر، أمرنا متولى استخراج الزباد منه باستخراجه بحضرتنا، ففعل، فشاهدنا أن محل اجتماع ذلك منه خارج عن محل البول لايمر به أصلاً، وإنما هو جليدة رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيها العرق وتشتد عليه، وتنطوى حتى يؤخذ منها. قال : بخ [(٣)] ، اطمأنت نفوسنا، وأيقنا بطهارته.

غريبة : أخبرنا شيخنا سيدى محمد بن مساهل [(٤)] سنة ٦٤ [١٠هـ] [١٦٥٤م] فى الرحلة التى قبل هذه أنهم سمعوا فى سنة ١٠٦٢هـ [١٦٥٢م] صوتاً هائلاً فى ناحية البحر كصوت المدافع الكبار، من قرب الضحى إلى الليل. قال : وظنناه سفناً لبعض المسلمين تلاقت مع بعض سفن النصارى. وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل من مصراته، وسمعه حتى أهل فزان والإسكندرية. وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس، وكل يظن أنه

---

(١) ط : ابن امساهل . وهذا يمثل النطق العامى المألوف عادة.

(*) ورقة ٥١ ظهر .

(٢) ط : عرق حى.

(٣) ط : بخ .

(٤) ط : أمساهل.

قريب منه. وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل. وذلك أن جزيرة من جزر [١] بر الترك خرجت فى بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء وعلت فى الهواء [*]تصدعت فيخرج منها نار ويسمع لها ذلك الصوت. فإذا خرجت النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الخفافة، ودام ذلك إلى الليل. وارتفع من ذلك فى الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت. وأعجب من هذا أنهم قالوا : إنه أصبح فى ذلك البلد كل ما [٢] عندهم من الفضة نحاساً، فى تلك الليلة – والله أعلم بغيبه.

وهذه المدينة معروفة بأهل الصدق فى الأحوال من المجاذيب، وقد أدركنا بها [٣] رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عنهم كرامات، وحكايات [٤] غريبة تدل على صدقهم فى مواجدهم. وكانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر الصالحين، ولايعرف منهم الآن إلا القليل كسيدى سالم المشاط، صاحب المسجد الجامع الذى بأقصى المدينة، وقبره يزار. وسبب خفاء كثير من قبور الصالحين المدفونين فيها أن البلد قد تداولته أيدى المسلمين والنصارى مراراً عديدة. فقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن النصارى استولوا عليها فى أيام السلطان أبى عنان، وافتداها منهم بخمس قناطير من الذهب العين؛ فعدوا ذلك من مآثره – انتهى. وقد استولى عليها النصارى أيضاً فى القرن العاشر [١٦م].

لطيفة : ممن لقيته بطرابلس من أفاضل أهلها [٥] سيدى شعبان بن مساهل ابن عم شيخنا المذكور ، وكانت له معرفة بنوادر من التاريخ وجزئيات من

---

(١) ط : جزور .

(٢) ط : كلما

(٤) ط : وحكاية

(*) ورقة ٥٢ وجه .

(٣) ط : به.

(٥) ط : أهل.

علم النجـوم. ومما أفـادينه من التـواريخ أن التـرك دخلوا تونس، وأخـذوا حلق الوادى[1] من أيدى النصارى عام ٩٨٢هـ [١٥٧٤م]. قلت وسمعت من غير واحد أن مولاى عبد الملك صاحب الغزوة [2] [*] الكبيرة، كان حاضراً مع الترك فى دخول تونس لما جاءهم مستصرخاً [3] على ابن أخيه محمد الشيخ، وأبلى [4] فيها بلاءاً حسناً. وبعد ذلك أمدوه بالعساكر لما ظهر لهم من شهامته إلى أن كان من أمره مع ولد أخيه ماكان - فرضى الله عنه من ملك كان بدء أمره الجهاد وختامه الجهاد. والبدايات كما قيل مجلات النهايات، فمن طابت بدايته زكت نهايته. وأفادنى أيضاً من تاريخ هذا البلد أن العدو - دمرهم الله - استولوا على هذه المدينة الاستيلاء الأخير سنة ٩١٦هـ [١٥١٠م] يوم ١٦ من محرم [5] [٢٦ أبريل] ، وافتكت منهم عام ٩٥٨هـ [١٥٥١م]. وتاريخه نقط كقولك جاء الترك بَسْ؛ وافتكها منهم درغوت باشا وكان بجربة، ومراد باشا وكان بمسلاته. وبقى فيها درغوت إلى أن توفى بها وقبره بها الآن يزار، وعليه بناء عظيـم.

وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من استنبول [6] مدداً للعمارة المحاصرة لحلق الوادى من تونس ، فمرت بسواحل طرابلس فكلمهم أهل السواحل فى إعانتهم على النصارى. فقالوا : إنا لم نؤمر بذلك من السلطان، فقال لهم الباشا مراد أعينونى فى هذا الأمر فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم. فحاصرها براً وبحراً إلى أن أخذوها. فذهب معهم مراد باشا

---

(١) ط : حلق الولا والتصحيح من الهامش.

(٢) ط : صاحب الغزوة مكررة.

(*) ورقة ٥٢ ظهر .

(٣) ط : مستسرخ.

(٤) ط : وأبلا

(٥) ط : « فى » بدلاً من « من » .

(٦) ط : اصطنبول.

إلى السلطان ، وقال له [1] إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء، فرضى عنه وعنهم وأكرمهم.

وأما أخذ النصارى لها، فذكروا لذلك قضية غريبة، وهى أن أهل هذه المدينة (*)فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة، فيما يقال، وليس فيهم غناء [2] ولا لهم بالحرب خبرة [3] . فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجار بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى، فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع، ونقد لهم ثمنها. ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً، فلما أخرج لهم الطعام ، أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً، وذرها على طعامهم، فبهتوا لذلك [4] . فلما فرغوا قدم لهم دلاعاً فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد فى داره سكين، ولا عند جاره، إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين. فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم [5] عن حال البلد التى قدموا منها، فقالوا ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً، وأعجز أهلاً عن مدافعة عدو. فحكوا [6] له الحكايتين، فتأهب ملكهم لدخولها فى مراكب فى البحر، فدخلها فى ليلة واحدة بلا كثير مشقة، واستولى عليها. ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلاً، وانحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاته، وصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ماكان فى التاريخ المذكور.

قال الشيخ مرعى الحنبلى فى كتابه « نزهة الناظرين » عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان ما نصه : وكانت ولايته سنة ٩٧٤هـ [١٥٦٦م]؛ وفى أيامه كان فتح حلق الوادى ببلاد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها

---

(١) ط : لهم.

(٢) ط : قناء .

(٤) ط : توجد زيادة : « من ذلك »

(٦) ط : فحكو.

(*) ورقة ص ٥٣ وجه .

(٣) ط : عبرة.

(٥) ط : مالكهم.

بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب من آل حفص، فصار بعضهم يتقوى على بعض بالفرنج وأطمعوهم في [*] بلاد المسلمين، فاستولوا عليها وتمكنوا منها، وحصنوا الحصون، وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها، وصاروا تحت حكم الفرنج. وأخذوا مملكة تونس، ووضعوا السيف في أهلها فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد. فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب، صحبة سنان باشا وقليج [١] على باشا. وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان؛ يحتاج تفصيلها لمؤلف [٢]. فنصر الله المسلمين بعد [٣] أن قتل منهم نحو من عشرة آلاف، مع الحصار المديد والقتال الشديد. ومن العجائب أن الفرنج كانوا أنشأوا[٤] هناك حصاراً شديداً حصيناً وقلعة منيعة، أقاموا في استحكامها واتقان بنائها ثلاثاً[٥] وأربعين سنة. فافتتحها المسلمون صحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوماً من أيام محاصرتها، وذلك في سنة ٩٨١ هـ[١٥٧٣م]. ثم خرب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لهم رسماً. ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتوح إقليم الأندلس [٦] في ثاني سنة، فلم يمهله الأجل - رحمه الله.

وفي [٧] يوم دخولنا في هذه المدينة لقينا أصحابنا الفاسيون القافلون من الحج، وفيهم محبنا سيدي طاهر بن رضوان الخزرجي. وأخبرني بأعظم الرزية وأفجأ البلية، موت أخينا في الله، المواتي المساعد في مايريد ومايأتي، الحبيب الشقيق الشفيق، خير خل وأزكى رفيق، العلامة اللوذعي، الرحالة الألمعي،

(*) ورقة ٥٧ ظهر.

(١) ط : قبح (حقق التصحيح).

(٢) ط : المؤلف.

(٣) ط : بعدهم.

(٤) ط : أنشأ.

(٥) ط : ثلاث.

(٦) ط : الأندلسي.

(٧) ط : في.

سيدى محمد المنقوشى - سقى الله قبره شأبيب الرحمة والرضوان، وجعله ممن يستبشر (*) بقدومه رضوان. وذلك فى شهر الله محرم فاتح ١٠٧٢هـ [١٦٦١م] بمدينة القسطنطينية العظمى؛ مات شهيداً بالوباء، بعد دخولها بثلاثة أيام. وكان - رحمه الله - قبل ذلك كثيراً ما يلهج بها، وبأمر المشى إليها، ويشتاقها اشتياق المرء بلده، فصارت بعد ذلك ملحده. وقد ذكر لى أنه لمعت بارقة من نور على قبره، ولا يستبعد ذلك من أمره، شهيد الوبا والغربة، وقاصد الحج، وطالب علم، إلى غير ذلك من سيرته الحسنة. وقد بنى (١) أخوه على قبره فصار مزاراً - حط الله عنه بذلك آثاماً وأوزاراً.

ومن هناك كتبنا لأصحابنا الفاسيين ومشايخنا المهذبين، ومن جملة ماكتبت قصيدة تائية ليست عن صوب الصواب نائية (٢) ، خاطبت بها أصحابنا، واستطردت بعدهم السلام على مشايخنا كلا باسمه وببعض وسمه. وبعد إتمامها أتانى النبأ الفظيع (٣) والخبر الوجيع بموت أخينا المتقدم، فزدت نحواً من أربعين بيتاً فى رثائه، وستأتى بتمامها عند ذكر الكتب التى بعثتها من طرابلس.

وممن لقيته بطرابلس فقيهها (٤) الشاب الزكى، الفقيه اللوذعى، خير خلف عن خير سلف، سيدى محمد المكى. بيته بيت علم من لدن أسلافه الكرام، وأبو سيدى محمد المكى(٥) كان من أعلم أهل ذلك الساحل. تولى الفتوى ببلده مراً، واشتغل بالتدريس ، وله مشاركة حسنة فى فنون كثيرة. توفى قريب من سنة ١٠٥٦هـ [١٦٤١م] ، ولم يخلف إلا ولده هذا. واشتغل بالقراءة

(*) ورقة ٥٤ وجه .
(١) ط : بنا .
(٢) ط : نائبة .
(٣) ط : الفضيع.
(٤) ط : فقيها.
(٥) انظر فيما بعد ص ١٣١ ، وقارن نسخة محمد حجى ، ج ١ ص ٦٨ حيث اللقب «المكتنى».

على شيخنا سيدى محمد بن مساهل[1]، وعلى غيره، وكان له ذكاء عقل وزيادة قلب [2] ، فمهر [3] فى فنون عديدة، وفاق أقرانه. فلما عدل شيخنا ابن مساهل عن الفتوى (*) حسبما تقدم تولاها هو [4] ، فحمدت سيرته فيها، وظهرت نجبته وسدد فى فتواه. وولى أيضاً تدريس الجامع الكبير والخطبة والإمامة به. لقيته بداره، ولم تطل مجالستى له، واستعرت منه المطول لسعد الدين فأعاره، وكانت له خزنة كتب ليس مثلها لأحد من أهل بلده. ثم استعرت منه بعد ذلك العضد على مختصر ابن الحاجب، وكان ذلك قرب رحيلنا فأعاره، وكتبت له مع الرسول بيتين ، وهما :

فمنُوا به قبل الرحيل لنا كما   تطولتم من قبلـــه بالمطــول
فإنكم أهــــل لكل فضـــيلة   كما أنكم أهل لكل تفضـــل

ذكر ماكتبت به من طرابلس إلى أخواننا بالمغرب، وماوقع على بعض تلك المكاتبات من الأجوبة لبعض أصحابنا، إذ لا يخلو ذلك من فوائد وأغراض لأجلها كتبت الرحلة.

فمن ذلك قصيدة تائية كتبت بها إلى إخواننا بفاس مجدداً للعهد بهم، ومذاكراً لهم ما سلف لى من وصلهم وقربهم، ومثيراً لأشواقهم، وراكضاً لجواد القريحة فى حلبة استباقهم. واستطردت فيها ذكر مشايخنا – رضى الله عنهم – مجلياً لهم بالنزر القليل من وصفهم الجميل، ومتضرعاً إليهم فى صالح الدعاء، ومظهراً لمنتهم على بالحقيقة لا بالادعاء. وسميتها نفثة المصدور إلى الأخوان والصدور، ونصها بعد البديعة نثر قدمته لها طليعة، واتبعته طلعتها الحسنة :

---

(١) ط : أمساهل.

(٢) ط : قبل.

(*) ورقة ٥٤ ظهر .

(٣) ط : فمهد.

(٤) ط : ولاها.

١ - أحبائنا [١] أهل الصفا والمبرة [٢]	بفاس بقيتم دائماً في مسرة[٣]
٢ - ودام لكم سلّم الزمان مجاوب [٤]	ولا زلتم في نعمة مستمرة
[*]٣- تميسون مابين الغصون كأنكم	بدورٌ أضاءت في خلال الجحرة[٥]
٤ - يذكر نيكم كل أفق رأيته	ولا سيما أن جاء برد العشية
٥ - كذلك إن هب الصبا سحرا فيا	زمانا[٦] تقضى[٦م] هل تمن بعودة
٦ - يخيل لي وقت قطعناه معكم	أخذناه في طرف الزمان بخلسة
٧ - وأيام أنس خارج المصر قد مضت	لنا بين دوح في رياض أنيقة
٨ - تشوفتها فازداد قلبي تحسرا	فها أنا ذا مابين شوق وحسرة[٧]
٩ - كأني بصحبي وفد الله جمعهم	عشية يوم الأربعا [٨] في البليدة
١٠- يؤمون قبر الشيخ مصباح دهره	أباجيدة في همة وسكينة
١١- يديرون كاسات المزاح كأنهم	بدور الدياجي بين تلك الأحبة
١٢-فياليت شعرى هل ترى يذكروننى	هنالك أم ينسون من بعد فترة
١٣- فإن ذكرونى عند ذلك إنهم	سيدعون لي بالخير في كل زورة
١٤-وهذا إذا ماقصدهم لزيارة	وأما إذا مالوا إلى القصبية
١٥-هنالك ينسى المرء من كان حاضرا	فكيف بشخص في بلاد بعيدة
١٦-وعذرا لهم في ذاك أحرى إذا غدوا	لأكل طعام جاء من غير قيمة
١٧-ولاشك أن القوم إذ ذاك مالهم	شعور بشئ غير تلك اللقيمة
١٨-فلايتركنها لو تلوت عليهم	أحاديث فضل الجوع معْ ذم بطنة

---

(١) ط : أحبائنا.

(٢) ط : المبرتى.

(*) ورقة ٥٥ وجه .

(٣) ط : محارب.

(٤) ط : والمسرتى.

(٥) ط : الجرتى.

(٦) ط : زمان.

(٦م) ط : تقضا.

(٧) ط : وحسرتى.

(٨) ط : الأربعاء بالهمز ولا تستقيم معه الوزن.

١٩-وهذا مزاح فاسمعوا العبد [١] إنما أراد يسلى القلب فى أرض غــــربة
٢٠-ولولا اعتقادى أن ذا لايسوءكم ولو قلت فيكم مثل ذا ألف مــرة
٢١-لاضربت صفحا عن مزاحكم وما كتبت إليكم من مزاحى بلفظة
٢٢-ولو كنت معكم كنت أعظم قائم لكم بحقوق الود فى كل لحظة
٢٣- فيا واصلا [٢] للغرب بلغ سلامنا إليهم وأرخ من عنان المطيــة
[*]٢٤- ودعها تجد السير حتى إذا أتت لفاس وفى باب الفتوح أنيخت[٣]
٢٥-بمخفية أو فى العدول فسل تجد مناى وقل عنى لخير أحبـة
٢٦-فحبكم العبد الفقير لربه أبو سالم يدعو لكم كل ليلة
٢٧-ويذكركم مهما جرى ذكركم بما جبلتم عليه من خصال جميلة
٢٨- ويثنى على أخلاقكم وطباعكم فأكرم بأخلاق لديكم حميدة
٢٩-ويطلب منكم أن تكنوا له كما لكم كان إن وفيتمُ بالمحبة
٣٠-وقولوا جميعا فى دعائكم له بقلب منيب صادق فى المودة
٣١- أيارب بلغ للمدينة سالما أبا سالم وأغفر له كل زلة
٣٢-وسهل عليه حجه ورجوعه إلى أهله بعد الجواز بطيبة
٣٣-وبارك له فى كل ماقد منحته وعافه [٤] فى دين ومال وصحة
٣٤-وسدده فى أقواله وفعاله[٥] وحطه [٦] من الأسواء فى كل لحظة
٣٥-وبلغه مايرجوه حالا وآجلا بجاه نبى ساد كل البرية
٣٦-فأنتم إذا قمتم ندا ما أحقكم بخالص [٧] ودى دون أهلى وخوتى
٣٧- فإن الذى بينى وبينكمْ كما علمتم لشئ زائد فى الخصوصة

(١) ط : فاسمحوا العبد.
(*) ورقة ٥٥ ظهر .
(٤) ط : وعافيه.
(٦) ط : وحط .
(٢) ط : وصلا.
(٣) ط : أنيخة.
(٥) ط : وأفعاله.
(٧) ط : فخالص.

٣٨–وداد وحب صــــادق وأخـــــوة ممكنة في الدمّ مع [١] طول عشرة

٣٩–وعـهـد وثيق في الدعاء عـهـدته إليكم وشيء لاينال بفكرة

٤٠–وفي كلها ماليس يخفى[٢] عليكم من الحق إن لم تهملوا [٣] حق صحبة

٤١–ونوبوا صحابي[٤] عن أخيكم وقبلوا أكف شيوخي وانطقوا بالتحية

٤٢–وزيدوا عليها مايقرر عندهم ودادي وإن قصرت في حق خدمة

٤٣–وقولوا عبيد[٥] كان يحضر عندكم بود فلا تنسوه في حال غيبة

٤٤–ومنوا عليه بالدعاء فإنه لأحوج ماقد كان منكم لدعوة

٤٥(*)–ولاسيما شيخي وشيخ مشايخي ومنقذي من حيرة أي حيرة

٤٦–إمامي الذي يمشي أمامي بعلمه يقود زمامي قُدوة أي قدوة

٤٧–معلم جهلي مرشدي من ضلالة منور سري مصلح لسريرتي[٦]

٤٨–مهذب أخلاق الرجال بهديه مرقي قلوب العارفين بهمة

٤٩–مفيديّ عبد القادر العالم الذي غدا في ظلام [٧] الوقت شمس الأئمة

٥٠–عمادي وذخري في الشدائد كلها ملاذي إذا ما ضاق حولي وحيلتي[٨]

٥١–أنادي وإن شطت بي الدار باسمه فأخلص بعد اليأس من كل وحلة

٥٢–به أقتفي مادمت حيا وأهتدي على قدر طوق في فعالي ونيتي[٩]

٥٣–فإن ساعد التوفيق لي في اتباعه هنيئا وبشرى قد ظفرت ببغيتي[١٠]

٥٤–وأشهد ربي[١١] والملائك والورى بأنيَ من أتباعه دون مِرْية

---

(١) ط : في الدمع.

(٢) ط : يخفا .

(٣) ط : تهمل.

(٤) ط : أصحابي.

(٥) ط : عبيدا .

(*) ورقة ٥٦ وجه .

(٦) ط : لسريرة.

(٧) ط : ضلام.

(٨) ط : حيلة.

(٩) ط : نية .

(١٠) ط : ببغية.

(١١) ط : رب .

٥٥-وإنى قد أحببته واتخذته | لنيل الذى أرجوه خير وسيلة
٥٦-وإنى قد قدمته عن [١] جميع من | إليه قد أسندت من شيوخ أجلة
٥٧-وأسأل ربى أن يطيل بقاءه | بأحسن حال نافعاً للبرية
٥٨-وأولاده الغر الكرام محمد | وشيخى أبى زيد وكل العشيرة
٥٩-خصوصاً أخى عبد العزيز ابن عمكم | ففى الله قد أحببته منذ مدة
٦٠-وأولاكم طرا جميعا ومن له | لزاوية الشيخ الرضا بعْد نسبة
٦١-وجملة أهل الحزب والمجلس الذى | به أشرقت آفاق تلك المدينة
٦٢-فياسادتى لاتحرموا من دعائكم | أخاكم أمام الشيخ وقت العشية
٦٣-وبعد دروس العلم منوا بدعوة | كذلك إثر الحزب فى كل غدوة
٦٤-وأزكى سلام طيب نشره على | إمامى وشيخى ذى التقى والفتوة
٦٥-محمد المدعو ميارة له | على أياد لم تكدر بمنة
(*)٦٦-حميد السجايا وارع متواضع | حليف الندا محيى علوم الشريعة
٦٧-تصانيفه فى كل علم مجيدة | وأخلاقه أخلاق نفس مجيدة
٦٨-قد انتشرت فى الأرض آيات علمه | فنال بهاء فى زيادة رفعة
٦٩-وأولاده طرا ومن يجنابه | وأحفاده طرا أولى النُهى والمروة
٧٠-رفيع العماد الألمعى الذى به | تعزز منصب القضا بعد ذلة
٧١-مفيدى وشيخى ذو الكمال محمد | إمام الهدى قاضى القضاء ابن سودة
٧٢-لقد ساد أهل العصر طرا وإنه | مدى الدهر فى أحكامه لابن حمرة
٧٣-أعز[٢] همام فى أعز مدينة | وخير إمام قام فى خير خطة
٧٤-له نطق سحبان [٣] وجودة حاتم | وجرأة عمرو [٤] فى ذكاء المغيرة

---

(١) ط : على .
(٢) ط : مد .
(٣) ط : سجبان.
(٤) ط : عصرو.
(*) ورقة ٥٦ ظهر .

٧٥-وعلم ابن عباس وزهد ابن أدهم ... وحلم ابن حرب في فصاحة توبة

٧٦-إلى غير هذا في خصال تجمعت ... له لم تكن إلا لنفس كريمة

٧٧-جزاه الذى استرعاه في حكمه بما ... يؤمله عن عدله في الرعية[1]

٧٨-وأبناؤه أبناء صدق أجلة ... وأكبرهم أولاهم بالمزية

٧٩-عليه سلامي دائماً وعليهم ... بدومان مناحت حمام بأيكة

٨٠-ومن بعده شيخي الذى طار ذكره ... بأجنحة [2] المداح في كل بلدة

٨١-مفيد العلوم جامع لشتاتها ... محققها مزوارها في الحقيقة

٨٢-رئيس علوم العقل طرا كأنه ... تجسد شخصا من ذكاء وفطنة

٨٣-لجمع خصال الحمد قد زيد في اسمه ... علامة جمع بعد حمد لنكتة

٨٤-فأكرم به من عالم أى عالم ... سما رتبة فوق السما [3] أى رتبة

٨٥-له حالة لم يرض ذو العقل غيرها ... ودين متين لم يدنس بريبة

٨٦-إلى رقة في القلب من خوف ربه ... فإن شئت فانظر حاله عند خطبتي

٨٧(*)-فتعلم قطعا أن ذاك إشارة ... من القلب قبل اليوم كامن خشية

٨٨-ومن بعده الشيخ ابن جلال الذى ... غدا في سماء المجد تاج الأهلة

٨٩-سلالة أهل الفضل والدين وارث ... مقامهم في كل علم وحكمة

٩٠-فمنذ الصبا قد ساد بالعلم والحجا ... ومازال ينمو في وقار وهيبة

٩١-إلى أن غدا وهو المبرز وحده ... فمن كل علم نال أكبر حصة[4]

٩٢-له همة من دونها النسر خاضع ... فمازال في جاه حصين وعزة

٩٣-وخير سلامي دائما لا يشوبه ... على حاله [5] نقص وأزكى تحيتي[6]

٩٤-على من غدا في الغرب فردا وماله ... شبيه فنعم الحبر من خير أمة

---

(١) ط : الرعاية.

(٢) ط : أحنجة.

(٣) ط : السماء .

(*) ورقة ٥٧ وجه .

(٤) ط : حصتي .

(٥) ط : حالة.

(٦) ط : تحية .

٩٥-حليف كتاب الله محيى رسومه   به المجد أضحى آهلا بعد وحشة

٩٦-إمامى وشيخى بل وشيخ جميع من   له خبرة بالذكر فى كل حضرة

٩٧-وأستاذ أهل الغرب طاراً فكلهم   أقر لهذا الشيخ بالأفضلية

٩٨-فعنه وإلا عن تلامذه رووا   فصاروا له طرا ذوى [1] تبعية

٩٩-وذاك أبو زيد ابن شيخ زمانه   فريد بنى [2] القاضى الهداة الأجلة

(*) ١٠٠-ولا عتْب فى تأخيره عن جميع من   تقدم، لى فى ذاك أعظم أسوة

١٠١-وحسبك خير الرسل فهو مقدم   على كلهم وهو الأخير ببعثة

١٠٢-ومن بعد ذا الأصحاب والكل باسمه   أشير إلى بعض الأسامى بخفية

١٠٣-أقدم أبناء الشيوخ مكررا   لهم بعدهم أصل الصفا والأخوة

١٠٤-ونخبة أهل البيت لازال حبه   بقلبى [3] ومن ينمى لأهل الطريقة

١٠٥ - أخى أحمد من بعده العربيون استووا والمحمدون فى كل حومة

١٠٦-وليس لضيق النظم [4] آثرت جمعكم   فإنكم أهل العقول الذكية

١٠٧-موازنكم فى النقر كاللحظ خفة   وأحلامكم مثل الجبال الرزية

١٠٨-ولو شئت اسمى قلت فعلالة   فاعل [5] فعالة فعلان ومن أى صيغة

١٠٩-ولكننى أجملت قصدا ومثلكم   يبين له التفصيل من كل جملة

١١٠-ولى غرض فيه سيعلمه الذى   غنى [6] بالمعانى دون سوق الأدلة

١١١-وأهدى سلاما طيبا نشره إلى   أخى وخليلى فى رخاء وشدة

١١٢-ومؤنسنى عبد السلام وبعده   إلى كل من يدلى له بأبوة

---

(١) ط : ذو.

(٢) ط : لقى .

(*) ورقة ٥٧ ظهر .

(٣) ط : بقلب.

(٤) ط : النضم.

(٥) ط : فعال.

(٦) ط : غنا .

١١٣-خصوصاً أباه الفاضل الماجد الذى ... أياديه لم تمنن وإن هى جلت[1]

١١٤-وكل الذى يعزا له[2] بأخوة ... صغيرا كبيرا كان أو ببنوة

١١٥-ومن بعد هذا كل من كان ثاويا ... بمخفية أهل النفوس الأبية

١١٦-خصوصا بنى الفاسى جميعا فإنهم ... عمادى وذخرى فى مقامى ورحلتى[3]

١١٧-ومن بعده أزكى رفيق وخير من ... يقوم بخير الود فى كل وجهة

١١٨-أخى العربى الفاضل ابن محبنا ... سليمان حياه الإله برحمة

(*)١١٩-وأهدى سلاما طاب نشرا مخصصا ... به بعض من قدمته فى قصيدتى[4]

١٢٠-من أصحابنا أعنى العدول مكررا ... وللعبد فى تكريره بعض شهرة

١٢١-أخى العربى وابنه وسميه ... وأترابه والمنتمى لجزولة

١٢٢-خذوها إليكم وانظروها بعين من ... له غرض فى كاتب دون كتبة

١٢٣-فإنكم إن تنظروها كذاك لا ... محالة تستحلوا جميعا بديهتى[5]

١٢٤-وكل محب صادق سيقول إن ... رآها أجاد النظم دون روية

١٢٥-على أنها ريانة ببدائع ... محكمة مع أنها بنت بغتة[6]

١٢٦-فإن لم تكن أرضتكم لركاكة ... بها فاسمحوا إنى كتبت بعجلة

١٢٧-وعذرا ففى يوم الرحيل كتبتها ... ولو كان فى يوم الإقامة أرضت[7]

١٢٨-وفى حالة ينسى الخليل خليله ... بها لهموم قد ألمت عظيمة

١٢٩-سأخبركم عنها إذا ما لقيتكم ... ففيها لمن لم يلقها[8] أى عبرة

---

(١) ط : جلة .

(٢) ط : يرا له .

(٣) ط : ورحلة .

(*) ورقة ٥٨ وجه .

(٤) ط : قصيدة .

(٥) ط : بديهة.

(٦) ط : مغنية .

(٧) ط : أرضة.

(٨) ط : يلفها .

١٣٠–وأما الذى مثلى يشاهدها فمن ... مقاساتها فى غمرة إثر غمرة

١٣١–وليس يجيد[١] النثر فيها أخو النهى ... فكيف بنظم فى معان عويصة[٢]

١٣٢–ولكن لطف الله يغمر كل ما[٣] ... لقيت فلولا اللطف دامت بغمة

١٣٣–وفى ذاك أسرار وحسن صنايع ... سيعلمها أهل العقول الزكية

١٣٤–وليس الذى قدمت فى النظم ذكره ... ثناء على نظمى الركيك بجودة

١٣٥–فإن ثناء المرء يوما سفاهةً ... على نظمه أحرى الأمور الشنيعة

١٣٦–على أنكم تدرون من قبل أننى ... لذو قدرة فى نظمه أى قدرة

١٣٧–ولو كان باعى فى العلوم جميعها ... كعلم القريض كان باعى كرتتى[٤]

١٣٨–فلا تعجبوا من طولها فودادكم ... على قلمى يملى لها دون فترة

١٣٩–ولو أننى طاوعته لتسلسلت ... ودامت وماكانت إلى الآن نمت[٥]

(*) ١٤٠–ومن بعدما أتممت كتْبى إليكم ... أتى نبأ منه المسامع صمت[٦]

١٤١–فأذهل فكرى عن جميع أموره ... وأيقظ ساهى الحزن من أى نومة

١٤٢–وأوقد نيرانا بطى خمودها ... بقلب ولم تخمد بسائل دمعة

١٤٣–بأن شقيق الروح غاية أنسه ... أخى وسمى[٧] القلب فى كل ضجة

١٤٤–مرافقنى فى كل حال ومؤثرى ... على نفسه فى كل خير ولذة

١٤٥–حبيبى خليلى لا خليل سواه لى ... يدانيه فى أخلاقه المستقيمة

١٤٦–سخاء وصبر جودة وفتوة ... توقد[٨] ذهن[٩] فى صفاء الطوية

---

(١) ط : يحيد .

(٢) ط : عويضة .

(٣) ط : كلما .

(٤) ط : كرتبة .

(٥) ط : تمة .

(*) ورقة ٥٨ ظهر .

(٦) ط : أتى نبأ عنه المسامع صمة.

(٧) ط : رسمى .

(٨) ط : توقذ .

(٩) ط : ذهنا .

١٤٧–وعــــزة نفس لا تروم دناءة ... وغاية صبر في احتمال وعفة

١٤٨–محمد المحمود نجل أبي الثناء[1] ... عليه من الرحمن سابغ رحمة

١٤٩–قد اختلسته بعد ما تم بدره ... كمالا وغالته أكف المنية

١٥٠–فوالله لا عزّيت في فقده أمرأ ... سواى ومن أولى ندا غير مهجتي

١٥١–لقد طال ماحذرته ونصحته ... وقلت له احذر من ركوب السفينة

١٥٢–ولكنه من حبه الخير مسرعا ... لنيل المنا لم يهتبل بنصيحة[2]

١٥٣–فجرّبه [3] قصدّ الردى غير هائب ... سلاسل أقدار تقود برمة

١٥٤–تجاوز أرض الروم حتى أتت به ... منيته أقصا البلاد البعيدة

١٥٥–فذاق بها كأس الحمام وخلفت ... رهيناً بقسطنطينة [4] خير طينة

١٥٦–وكان كثيراً مايكرر ذكرها ... فصار بها الملحود في بطن تربة

١٥٧–رعى الله من بالروم أضحى مجدلا ... ونشأته في الغرب أفضل نشأة

١٥٨–وليت المنايا أخرته فحكمها ... على ما تشاء من فداء ورشوة

١٥٩–ولو أنني آليت لاذاق بعده ... لذيذ الكرى جفني لبرت أليتي

١٦٠–لقد طاب حيا ذكره في بلاده ... كما فاح شرقا عرفه بعد ميتة

(*)١٦١–هنيئا له خير الشهادة حازها ... على بغتة بالطعن في أرض غربة

١٦٢–فخير ثغور المسلمين رباطه ... بإثر ركوب البحر في خير وجهة

١٦٣–وآثر عنه النفس فيه كرامة ... فصار يزار قبره في المدينة

١٦٤–ملائكة الرحمن عنه نيابة ... يحجون قطعا كل عام بحجة

١٦٥–إلى الله والمختار كان مهاجرا ... فأدركه موت على حال هجرة

---

(١) ط : الشتاء . والتصحيح من الأبيات المحذوفة المكررة، والهمزة مخففة .

(٢) ط : في الأبيات المحذوفة : بنيل المنا لم يتثل بنصيحة.

(٣) ط : مجربة قصدا للردّى .

(٤) ط : بقصطيطينة.

(*) ورقة ٥٩ وجه .

١٦٦–فكان بلا شك على الله أجـــره فــأكــرم بذا مــوتا وأكــرم بهــجــرة

١٦٧–سـأبكيك ياخـير الأحبـة مـابكى مـحب حـبـيـبـا بالدمـوع الغـزيرة

١٦٨–وأبكى دمـا . ـد الدمـوع وبعـدها تسـيل عليكم ياخليلى [١] مهجتى

١٦٩–مـحـمـد لا والله مـاكنت ناسيـا لعـمـرك مـادامت حـيـاة بجـثـتى

١٧٠–مـحـمـد من للعلم بعـدك ناشـرا فـــوائده فى الناس من دون هُجْنة

١٧١–محمـد من للجود بعدك قد عفا وقـد كنت بسط الكف جم العطيـة

١٧٢–مـحـمـد من للحلم بعـد أن أسـا عليـك مـسـئ لم تؤاخـــذ بزلة

١٧٣–مـحـمـد من للدرس أن بات أهله لهم نظر بصـفـحـة بعـد صـفـحـة

١٧٤–ومن لصـحـيح النقل أن ظل أهله يديرون فى أمـر طويل الخـصـومـة

١٧٥–محمـد من يلقى الأحبة ضاحكا ســواك بلا عـبس منيـر الأسـرة

١٧٦–مـحـمـد من للبحث يلقيـه تارة ويلقى عليـه من فنون عـويصـة

١٧٧–تجيـد سـؤالا إن سـألت كـذاك إن أجبت بعـقل أو نصـوص [٢] صحيحة

١٧٨–مـحـمـد مـاذا أُلْقَى من مـدائحى لعليـاك أنت البـدر من فـوق مـدحـة

١٧٩–سأهدى لكم طيب الثناء[٣] وأصطفى لكم من دعـائى دعـوة إثر دعـوة

١٨٠–عليك سـلام الله منى ورحـمـة من الله تتـرى فى فـراديس جنة

١٨١–ومـغـفـرة سحـاء تهـمى سجـالهـا على جـدث [٤] بالروم أضحى بحـفـرة

(*)١٨٢–وشـفّع فيك المصطفى وكـتـابه ولـقّاك أمـنـا بـان فى كـل روعـة

١٨٣–ورقّاك فى الفـردوس أعلى مكانة مع العلمـاء العـاملين الأئمـة

١٨٤–وأدعـوا لكم مادمت حيا ولم أكن لأنساك [٥] فى حـجى ولا إثر عـمـرتى

١٨٥–ولا عند قـبـر المصطفى وصـحـابه ولا إثر خـتم الذكـر فى كل خـتـمـة

---

(١) ط : ياخليل.

(٢) ط : بنصوص .

(٣) ط : الثنائى .

(٤) ط : حدث .

(*) ورقة ٥٩ ظهر.

(٥) ط : لأنساه.

ومن ذلك ما كتبته إلى الأخ والمحب الناصح، الفقيه الأديب ، الوجيه لأريب، سيدى أبى عمرو عثمان بن على. ضمنته [1] فنوناً من المخاطبات والمداعبات والمعاتبات نظماً ونثراً، ووشحته[2] بمواعظ تلين لها القلوب القاسية، وزواجر تتذكر بها العقول الناسية، وأمثال غريبة وحكم عجيبة. أولها بعد الثناء على العلى الأعلى [3] سبحانه ، والصلاة والسلام على من نصح وأدى الأمانة، سيدنا محمد وصحبه وآله وكل صحب متعلق بأذياله، من العبد الفقير إلى الله تعالى، المتمسك بأذيال أهل الخير حالاً ومآلاً، أبى سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر – أصلح الله قلبه وغفر ذنبه – إلى من ألفته وألفنى، ولم يجفُنى منذ عرفنى، الحسن الأخلاق مع لوثة اعرابية [4] ، الصافى المودة فى سره وعلانيته، سيدى عثمان بن على – لازالت محاسنه على السنة مادحة [5] تتلى، وعلى آذانهم تملى [6] : السلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

أما بعد ، فنحن والحمد لله فى أودية نعم الله نتقلب، وللمزيد منه مع الأنفاس نتطلب، قد صيرنا الهموم كلها هماً واحداً، وأعرضنا عما كان عن مقصودنا زائداً. نقطع المجاهل ونرد المناهل، وننعطف [7] مع منعرج اللوا حيثما التوى، وسلك بين كثبان الرمل فى مثل (*) خط النمل، ونتبع أثر الرواحل ولا نعد المراحل. وطبنا بذلك نفسا ولم نرفع لما سواه رأسا :

١ – على مثل ذا فليبك من فات عمره وليس لـــه فيه نصيب ولا سهـم

---

(١) ط : ظمنته .
(٢) نقترح ووشيته .
(٣) ط : الأعلا .
(٤) ط : أعرابيته.
(٥) ط : مادحه .
(٦) النص : تملا .
(٧) ط : وتنعطف.
(*) ورقة ٦٠ وجه .

٢ – وحق عليه النوح إذ ضاع سعيـــه   وليس له اســـم فى المعالى ولا وِســم

٣ – إذا رامها صدته عنها رياســــــة   كفعل الذى من أجله كتبت الرســم

هذا وإنا لم نزل فى طريقنا نتذكر رجوعكم من الطريق وعدو لكم [١] مع ذلك الفريق، فنأسف [٢] على ذلك غاية ونراه [٣] على تمكنكم فى الرياسة أكبر آية. وما كان أحوجكم إلى اللحاق بنا والسير معنا لو كتب، ولو لحقت بنا لقدناك خسرا وفتنا [٤] لك التوجيهات رطبا وبسرا، ولسقناك إلى الجنة بالسلاسل، ولخضنا بك متـايق يذهب فيها [٥] السهم الباسل. ولم نزل إذا[٦] رأينا شيئاً يستملح أو يستظرف نقول كلنا : ليت فلان كان معنا، وليت شعرى ما الذى استبدلت بعشرتنا وعرضت عن عشيرتنا أثلاث أم ثلاثة أم أورثك ذلك وجاهة فبئس[٧] الوراثة. فإن كان رجوعك شفقة على من خلفت وشوقاً إلى من ألفت فبئس ما ظننت بربك، وإن كان خوفاً مما تلقى أمامك فبئس ما ظننت بحبك. أتتوهم أن تأكل ونشرب وتجوع وتظمى، أو نستظل وتضحى، أو نركب وتمشى على رجليك. كلا لو كنت معنا لجعلناك كما هو المعهود واحداً منا بل ربما قدمناك على أنفسنا، شفقة ومحبة، ولانتفعت دنيا وأخرى وكان الفوز فيها أحرى. وما أظنك أن عزمك تقوى وإلا لما أثر فيه كلام ذلك النذل [٨] الذى كلفت بمحبته والشفقة عليه منذ أزمان. فقد جازاك ابن عمك على ماكنت توافقه(*) مما هو مخالف لرضى المولى، فساق لك الله على يديه مايناسب ماكان

---

(١) ط : غدو لكم.
(٢) ط : فتأسف.
(٣) ط : ونريه .
(٤) النص : وقتا .
(٥) ط : النص : فيه.
(٦) ط : إذ .
(٧) فبيس .
(٨) ط : النزل.
(*) ورقة ٦٠ ظهر .

يساق له على يديك. ولو كنت ممن تأسف على مافاته من الخير لمقته أشد المقت وجفوته كل الجفا، ولكنت تنظر إليه نظر المأثور إلى ذى تارة والمقرى إلى من قدم ناره، ولكنك عن هذا كله من الغافلين. وكأنى بك تقول : لو رأيت أموراً قمت بها بعدك ومنافع وفيت فيها عهدك لحمدت رجوعى. فأقول : كلا فإن الثقة بالله والاعتماد عليه لو جئت لحصل لك من الخير ما لا تكفيه، ولقيض [١] الله لتلك [٢] المنافع من يقوم بها؛ ولكن لم ترد [٣] أن يكون ذلك إلا كذلك. ومع هذا كله إن قمت بواحدة فلا بأس ، وهى عمارة الخريش [٤] ولو بنفض الريش وكثرة الكشيش لئلا[٥] يفقد ما كان يعهده قبل ذلك، وعلى كل حال:

١ - فحقك إنشاد مدا الدهر[٦] نادما   لبيت عجيب قد روته الأوائل

٢ - وماكان بينى لو لقيتك سالما   وبين الغنا إلا ليال قلائل

٣ - ولو كنت قد أجبتنا لاتبعتنا   وودعت لكن للمحب دلائل

ومما يوقد نار أشجانكم [٧] ، ويبين [٨] رياح أحزانكم، ويكثر به تأسفكم على مفارقتنا وتلهفكم على عدم مرافقتنا؛ وتقول ياليتنى اتخذت معك إلى الرسول سبيلاً، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً، ما أنعم الله به علينا من المشى فى ركب قلما تيسر مثله قوة وكثرة ونجدة، خال من الأوباش وكثرة من قعدوا فى الآش، لا تكاد تسمع فيه صوت خصومة ولا منازعة، ولا ترى عينك فيه

---

(١) ط : لقيظ .
(٢) ط : تلك .
(٣) ط : لزد.
(٤) ط : الخريش.
(٥) ليلا .
(٦) ط : إنشاء مد الدهر.
(٧) أسجانكم.
(٨) ط : ويتبين.

مواجعة. قد اشتمل على أهل البيوتات من الناس، وذوى المروءات، وأهل الحفاظ من تجار وفقهاء ورؤساء العشائر. وفى الركب نحو(*) (١) من عشرين مؤذنين. فإذا كان الثلث الأخير من الليل(٢) ارتج الركب بأصوات المؤذنين وقراء القرآن، فلا شغل لنا إلا مدارسة القرآن ومذاكرة الإخوان فى علم الأديان. يختم كل ليلة ختمة من القرآن فى خبا، ينادون الحزب الراتب وقد شفانى(٣) الله فى هذه الطريق المباركة من جميع ماكان فى قبل ذلك من الأمراض الظاهرة والباطنة، وأعنى بالباطنة الحسية، ولا نيأس من فضل الله، فى المعنوية. وقد أنعم الله علينا بنعم سوى ذلك لاتحصى وأياد (٤) لاتستقصى - فله المنة والطول - ونسأله المزيد. وقد حضرنى فى حين الكتب أبيات، فلا بأس أن أداعبكم(٥) بها لعلمى بكم بأنكم تحبون ذلك، ولا غنى(٦) لكم إن كتبتم أن تنتخبوا أبيات، فأردت أن أؤسس لكم ماتبنون(٧) عليه ، وهو هذه :

١ - خليـــلى هل تأيمت الدروس	و عطــلت المحـــابــــر والــطروس
٢ - وهل نادى بنادى العلم بؤس	وفــرّخ (٨) إذ وهـــت منه الأســـوس
٣ - فأصبح بعد عـــزته ذليـــلاً	وبـــعد نضـــاره (٩) يعـــلوه بـــوس
٤ - وهل غابت سعود بنى أبـــيه	لـــدى طلـعت بجـــانبـــه نحـــوس

(*) ورقة ٦١ وجه .

(١) ط : نحوا .

(٢) اليل.

(٣) ط : شافانى.

(٤) ط : أيادى .

(٥) ط : أذاعبكم.

(٦) غنا.

(٧) ط : تبتون.

(٨) برح.

(٩) ط : نظارة .

٥ – وهل جمحت عن الميزان جرد عتــــاق ما لــها قــدم بســوس

٦ – أجبن[٢] قد عراهم أم تراهم تحامـوا النبـال أم غــاب الرئيـــس

٧ – ولست رئيسهم لكن نفســي خــلال مقـانب الهيجا [٣] تجوس

٨ – ألا فاستلئموا[٤] قوموا ودوموا فليــس لمثلكم يرضـــى الجـــلوس

٩ – بحقكم إذا عطلتموهـــــا بمـــاذا يفرح العــبد البئيـس[٥]

١٠ – فإن يك هكذا فأبو سعيــد قـد الهــته القبـيلة والعــــروس

١١ – يقضىّ ليله معْها ويمضــى نـهارا معهــم بئــس الجليــس [٦]

[*] ١٢ – وعار يا أبا عمـرو فـرار لمثلكــــم إذا حمــى الوطيــس

١٣ – فآه من زمان [٧] قد تقضّى بقـــلبى لايــزال لـــه رسيــس

١٤ – ولهفى من ربوع دارسـات بعيّد الإنــس ليــس بـــها أنيــس

١٥ – فإن عشنا فسوف تطيب فيها لنا ولكـــم بمـــا نرجو [٨] نفوس

١٦ – نقيم بها لأهل العلم سـوقا تــروج بها اليواقيــت الفلوس [٩]

١٧ – وإن متنا فذلك وعد صـدق وعنــد الـــله يحتســب النفيـــس

---

(١) ط : نظارة.

(٢) ط : أحير.

(٣) ط : الهيجاء .

(٤) ط : من اللامة أى الدرع.

(٥) ط : البئس.

(٦) ط : نهار معهم بيسة الجليس.

(*) ورقة ٦١ ظهر .

(٧) ط : فآه بزمان.

(٨) نرجوا .

(٩) ط : « الفلواس » بدلاً من « والفلوس » التى رفعت منها الواو للوزن .

ومما أنعم الله به على أن أعطانى من القدرة على المشى ما لم أكن أعهد من نفسى بعضه، وقد كنت تعلم حالى إن سرت إلى تزرفت [١] فصرت اليوم أسير مرحلة كاملة وإما نصفها أو أزيد أو أقل بكثير. ولا أشك أنك لو جئت لكنت تمشى أكثر منى. وزبدة الخبر ماقال صاحب الحكم : من ظن انفكاك لطفه عن قَدَره فذلك لقصور نظره. والله الله يا أخى فى إصلاح نفسك، والزيادة على أمسك، وإعداد الزاد ليوم رمسك. ولا تركَن إلى شئ دون الله ولا تتهمه فيما وعدك، ولا تستهز مما [٢] أوعدك. واتهم [٣] رأيك واستقصر سعيك، ولا يغرنك انتشار الصيت، وارتفاع الجاه الدنيوى فإن الرجل ليملأ [٤] صيته مابين المشرق والمغرب ولايزن عند الله جناح بعوضة. ولا تمل إلى مايجرى على يديك من أمور هى فى بادئ الرأى صالحات ومن الأشياء المهمات التى فيها صلاح الخلق؛ وهب أنها كذلك فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر. وإياك والاهتمام بالرزق والخوف من الخلق فإنهما [٥] أصل كل وهن فى الدين، وضعف فى اليقين. فإن الأول يوجب الشك فى المقدور(*) وفتوراً [٦] فى النفس، وكراً [٧] زائداً [٨] فى المعاش وتعبا [٩] فى لاش . والثانى يثبط عن كثير من الخيرات، ويحمل على [١٠] قبيح من المداهنات، ويستعجل به المرء هما لا ينقضى إلى غير ذلك من المفاسد. والاعتماد على الله كاف عنهما وناف عنك

---

(٢) فى نسخة حجى : ثرفت .

(٢) ط : فيما .

(٣) ط : وانهم.

(٤) ط : ليملى.

(٥) ط : فانها.

(٦) ط : فتور .

(*) ورقة ٦٢ وجه .

(٧) وكر.

(٨) زائد.

(٩) تعب.

(١٠) ط : عن .

معرتهما، مع التبرى من الحول والقوة. وكن أعمى وأصم عن الأمور المستقبلة وإنك لكذلك. واجعل زمامك بين الشرع المحمدى الواضح فأينما قادك فانقد، فإنك لاتلقى إلا الخير. ولا تظنن [1] أن أمراً أذن الشرع فى فعله إيجاب تقع منه مضرة [2]، ولا أن أمراً نهى عنه ولو كراهة يجلب خيراً. وما بينهما يحتاج إلى بصيرة نافذة؛ ومن لم تكن له فالسلامة فى الترك والإقلال.

وهذه عجالة كتبتها وأنا متقدم أمام الركب، ولو اتسع الوقت لزدت، وفيها إن شاء الله الكفاية. وعندك مما كتبناه أمثال ذلك وأفضل منه إلا أن هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً، والخير منتظر بأحد النظر، فقد جاء الفرج وزال الترح، وظهرت البشارات على ألسنة أهل الإشارات. وقم نادى بالحق فى نادى الصدق، ونادى فى النوادى بلسان قلبك [3] ورق [4] حالك بأهل الهمم وحماة الذم : إياكم والعجلة فإنها خجلة، وتثبتوا على المنهج اثبتوا – ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، ويخمد حرباً كان مشعولاً. وكن ابن وقتك، وخفف [5] من مقتك، واسبل الستر، وألمح السر، وهلل وكبر، ولا تدبر فإنه لايحب ذلك منك، ولا يرضى به عنك. وهذا كله كلام لايفهم وليست له حقيقة فيتهم، فلا تتعب نفسك فى فهمه، ولا تشتغل بمدحه ولا ذمه، ولا تنسنا [6] من صالح دعواتك فى إدبار(*) صلواتك، خصوصاً أوقات الخلوات، والخروج إلى الفلوات. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً دائماً.

---

(١) ط : ولا تظنين.
(٢) ط : نظرة.
(٣) ط : بلسن قالبك.
(٤) ط : ورقى.
(٥) ط : وخف.
(٦) ط : تناسنا.
(*) ورقة ٦٢ ظهر.

ومما كتبه [1] إلى الأخ الصالح سيدى عثمان ، جوابا عن هذا الكتاب، هذا النظم العجيب المفتتح بما [2] قبله من النثر [3] الغريب، الدال على أنه أصدق محب وأخلص حبيب. ونصه :

من أحببته مقة [4] واتخذته ثقة، وصيرته سميرى وجعلته أميرى، لم يملّه قطّ خاطرى ولا كَلّ عنه ناظرى، إن أمر ائتمر [5] الفؤاد وإن زجر انزجر انزجار المنقاد، أبو سالم الأمجد سيدى عبد الله بن محمد، الذى كنت له أطوع من نعله واتبع من ظله [6]. ولا غرو إذ [7] كان لى خير نديم، وألف بينى وبينه من له الحكم القديم، فكنا نتعاطى كؤوس خمر الوداد ويحصل للقلوب من ذلك انتشاء [8] خارج [9] المعتاد. واستمرت هذه الصفوة [10] ولم يعقبها سلوة، إلى أن رحل عنى وبان منى، ثم كتب من بعيد بعد أن هم أن لايكتب لأبى سعيد، ولو فضل ماهم به لأنشدت بسببه :

١ - أبا سالم أنت الحبيب إلى قلبى وإن كنت دهرى من عتابك فى حرب

٢ - أتعرض حتى بالخيال لدى الكرى وتبخل حتى بالسلام مع الركب

لكنه شرفنى بخطابه ونوه باسمى فى كتابه. فقلت وقد قبلته بعدما تصفحته :

---

(1) ط : كتبته.

(2) ط : ما .

(3) النتر.

(4) ط : مقتا.

(5) ط : ائتمن.

(6) كله .

(7) ط : ولا غر إذا .

(8) انتشا.

(9) ط : خرج .

(10) ط : الصفرة.

١ – نفسى وأهلى فدى [١] لخير مكتوب   جاء الرسول به من بعْد محبوب

٢ – مبشرا بضياء الوصل بعد دجى   هجرى وكلى له هش لترحيب

٣ – ياما أحيسن ذاك الخط آنسنى [٢]   وما أميلحه أحداث [٣] تطريب

[*] ٤–فاق الشفيق كما مهديه [٤] عندى قد   فاق الشفيق وذا الأدنى [٥] وتقريب

٥ – نزهت طرفى فى روض محاسنه   تجاد [٦] شوقا بدمع منه مصبوب

٦ – وعاد فكرى مسلوباً بفكرته   وكان قبل صحيحا غير مسلوب

٧ – يحسبنى الغمر إن يعجم أخاسقم   كلا فلست به ولا بمطبوب

٨ – وإنما كنت ذا نعماء وصل وما   ألفت بؤس الجفا بعده مصحوبى [٧]

٩– وخلت نفسى من أهل النهوض إلى التـ   صدير ثم بدا فى الوقت تذنيبى [٨]

١٠–وذقت [٩] البين من خل فعذبنى   آلامه فى حشاى أى تعذيب

١١–أحسست من جسدى إذ ذاك بعض ضنا   يأيها الغمر مز [١٠] وانهض لتجريب

١٢– ياسيدا فارق الأوطان مبتعدا   صيرت نازلها يدعى بمكروب

١٣– خلفت عبدا حليف الشجو قد أسى [١١]   ياليتنى معكم قرعت طنبوبى [١٢]

---

(١) فدا .

(٢) ط : الخط آنسنى.

(٣) ط : أحدث.

(*) ورقة ٦٣ وجه .

(٤) مهذبة.

(٥) الأدنا.

(٦) ط : فجاد.

(٧) ط : مصحوب.

(٨) ط : تذنيب.

(٩) ط : رىقت .

(١٠) ط : ياية الغمر مذ .

(١١) ط : خلفت عبد اخليف الشجون من أسا .

(١٢) ط : طنبوب .

١٤- أقسمت بالود لو أنى[١] رفيقكم لزال كـــربى وذاك عين مطلوبى[٢]

١٥- عليكم من سلام الله أطيبه ياذا الذى وصله فوز بمرغوب

وكتب إلى أيضاً – أطال الله بقاءه، وأدام فى مراقى المجد [٣] ارتقاءه – جواباً عن قصيدتى السينية بقصيدة بارعة، ولمصارعها فى نادى البلاغة صارعة، إن لم تكن أفضل منها فلم تقصر عنها. وقبلها أبيات تسحر الألباب، ونثر آخذ من الفصاحة باللباب. ونص ذلك منه :

١ – أمَنْ لسواه النُكر وهْوله العُرف وعمدتنا من لايسوغ له الحذف[٤]

٢ – ضميرى مبنى على ضم ودكم ويعجز عن إعرابه النطق والوصف

٣ – وكان من الأزمان عندى موكد ولا بدل يعزوه هل منكم العطف

٤ – إذا انصرفت أسماء أهل ودادكم فعثمان فى الأسماء ليس له صرف

السرى السوى العبقرى البرى، جالب المسرات وطالب المبرات(*) وسالب المضرات وعائب المعرات، خير أنيس فى الوحشة وأفضل جليس عند الدهشة، مفيد العلوم ومبيد الهموم، سيدى أبو سالم أبقاه الله والزمان له مسالم.

بعد السلام التام، المعرف بالألف واللام، يعم ذلك المقام، المعظم فى الرحال والمُقام؛ فإذا سألت عن عروس الدروس، واستخبرت عن المحابر والطروس، واستفهمت عن العلوم : هل وهَى معلقها ؟ وعن شواردها : هل فى القوم من يعقلها ؟ فاسمع الجواب، إن شاء الله بالصواب :

---

(١) ط : كنت .

(٢) ط : مطلوب.

(٣) ط : المجز.

(٤) ط : لايسوغ الحذف.

(*) ورقة ٦٣ ظهر .

١ – نعـــم شعثت بُعَيْدكمُ عروس	دروس والحـــداد لـــها لبـوس[١]
٢ – تبدل زينهـا المعهـود شيـنا	وأعقب تلكـم النعمـاء بـوس
٣ – طـوت ثوب السـرور وجنبتنا[٢]	ودام لهـا التجـنب والعـبوس
٤ – فلـم تُبِح الوصـال لمبتغيهـا	ولم يحصـل لعاشقهـا المسيـس
٥ – أراودهـا لتعطف ثـم عـزت[٣]	فذا اليـوسى من عطـف يئوس
٦ – وحق لـها التمنـع فى حـماها	فليس بكفئهـا [٤] نـذل خسيس
٧ – فكيف يسوقها الأذنـاب مثلـى	ومألفهـا مثالكـم الـرؤوس
٨ – وعند إيابكم وبحـول [٥] ربى	يكـون بهـا التمـتع والجلوس
٩ – ويذهب مابهـا من بوس بُعد	وفى حـلل الجمـال لكم تميس
١٠– وعن حرب المحارب أن تسلنى[٦]	فمـا فـى القـوم بعدك من يسوس
١١– ولا مستـلئم منـا إليـهـا	وقـد وُضـع الصـوارم والتروس
١٢– فكم رمنـا رياضة خيـل درس	فـما مـن خيلـنا إلا شَمـوس
١٣– وكم قدنا لهـا أجـناد فكـر	فما انقـادت لنـا وأبت نفـوس
١٤– وكم ناديت يال أوس ذهنـى	فقـال جيفت إذا غاب الرئيس[٧]
(*)١٥– وافق العلم أظلم إذ توارت	لـه مـن بعد شخصكـم شُمـوس

---

(١) ط : البوس.

(٢) ط : حنيتنا.

(٣) ط : غدت.

(٤) ط : يكفيها .

(٥) ط : « بحول » بدلاً من « وبحول » .

(٦) ط : تسألنى .

(٧) الريس .

(*) ورقة ٦٤ وجه .

١٦- ومعقل درسنا الذ قد بنيتم هوت منه العلا ووهت أسوس

١٧- وذلك حين جا [١] الإهمال منا وفى يده المعاول والفئوس

١٨- وعند صباح وجهك كل سعد يبين وتنجلى عنا النحوس

١٩- ونصلح ما وهَى من أس علم وتنشر فى مجالسه الطروس [٢]

٢٠- وتلك مواسم التعليم حقا تدار لها برحبتنا كؤوس

٢١- وكيف وأنت فى ذا القطر بحر ومن فيضانكم يُروَى الجليس

٢٢- فما نيل لذاك وما برات وما المعز لطبخه ماء سويس [٣]

٢٣- فتلك يبعضها ماء أجاج لشاربه الكزازة والعبوس

٢٤- وبحر ذكائك الزخار فيه كنوز العلم والدر النفيس

٢٥- وكسب يمين حجرك عين عَلم وغيرك عنده منه الفلوس

٢٦- بقيت بقاء دهرك لا تبارى أعمدتنا ومن هو لى أنيس

٢٧- عليك تحية ما قال صب . نعم شَعُثت بعيد كم [٤] عروس

ومن جملة كتاب كتبه صاحبنا الأديب الفقيه النبيه سيدى عبد الرحمن بن الحسن، وكان معنا فى رفقتنا إلى الفقيه العلامة سيدى عثمان بن على، هذه القصيدة الطائية، يلومه على التخلف عنا ، ويتبين أشجانه على مافاته من رفقتنا. وهى هذه :

---

(١) ط : جاء .

(٢) ط : وننشر في مجاله الطروس .

(٣) ط : ماء السويس.

(٤) ط : بعيد لكم.

١- سلام على الإخوان والصحب والرهط يفوح شذاه بالعنابر والقسط
٢- رزقنا وإياكم سلامة ديننا ودنيا من الأهوال والمكر والسخط
٣- فإن تسألوا عن حالنا بعد بُعْدكم فإنا بفضل الله فى غاية البسط
٤- وصحة جسم واغتنام قراءة بلا كلفة ما بين صحب ولا شرط
(*)٥- تركنا الهموم كنها من ورائنا فلا شغل غير الرفع والسوق والخط
٦- ففى مثل هذا الحال ذو الجِّد غابط وخِدْن التوانى دائما هو فى خبط
٧- لَسيدنا عثمان أثنى عِنانه لملوية التلاح والفتك والقحط
٨- فإن يك قِدْما قد أصاب فإنه بإجماع أهل الحق فى هذه مُخْط
٩- على أنه يدمى [1] البنان ندامة لما فاته قطعا إذا ما أرى خطى [2]
١٠- فليتك لم ترجع وليت ابن عمكم أبا مالك ما كان فى ذلك الغَوْط
١١- فإن لقاء الأسد غابتها القنا لا نفع من لقياه فى ذلك الشوط
١٢- لقد عاقكم [3] عن أى كنز فحقه على ما جنى الهجران والضرب بالسوط
١٣- تشجعتم قبل [4] اللقاء وعندما أتاك أتاك الحيّن كالفار والقط
١٤- تألم كل الصحب لما أتيتهم وأخبرتهم عما لقيت من الضغط
١٥- وقالوا جميعا ليته كان واصلا فيُفْجأ عنه ما يلاقى من الغط
١٦- أرَدّك قول الإفك والزور بعدما عزمت فهذا العزّم خال من الربط
١٧- وآثرت من بعد المودة قربهم وماجدت [5] حتى بالكتابة فى قط

(*) ورقة ٦٤ ظهر .
(١) ط : يرمى .
(٢) ط : خط .
(٣) ط : عانكم.
(٤) ط : لشجعتم عند قل .
(٥) ط : جرت .

١٨- فكم عالم قد ضمنا الركب عامنا ... فكل يولّى الكيل فى العلم بالقسط

١٩- أجلّهم مبدى العلوم مفيدنا ... أبو سالم مهما تسل [١] فضله يعط

٢٠- خلاصة أبناء الزمان جوادهم ... فأكرم به من عامل عالم معط

٢١- فلا زال ذا فضل عظيم وفضله ... عميم على من جاء للعلم يستعطى[٢]

٢٢- ولا زال طود العلم فخما مفخما ... وبحر المحيط[٣] واسع القعر والشط

٢٣- وفى الركب أيضا عالم ذو نباهة ... يجيبك فى كل العلوم ولا يبطى[٤]

٢٤- وذا أحمد يدعى الخطيب منظّم ... له الخير فى كل الفضائل فى خيط

٢٥- به وبشيخى قد سلوت أحبتى ... وصرت وان شطت بى الدار فى رهط

[*]٢٦-إذا سمطت در[٥] المعالى قلادة ... فذلك بالإطلاق واسطة السمط

٢٧- ولو كنت معهم كنت تتلوهم وما ... أراك وإن غيبت عنهم بمنحط[٦]

٢٨- وإنا لنرجو الله يجمع شملنا ... بكم عن قريب فى هناء وفى بسط

٢٩- وإنى وان شطت بى الدار عنكم ... بجسمى فروحى عنكم غير مشتط

وكتب الفقيه الأجل سيدى عثمان بن على جواباً له عن هذه القصيدة مانصه: النفر الغير المنفر، ومَنْ السيرْ معهم للذنوب مكفر، والتخلفُ عنهم من جملة الهفوات، والتربص دونهم معدود من الجفوات [٧]. إخوان الود الماكث الخالص، وإخوان العهد الغير الناكث ولا الناقص. من حازوا خصال الكمال،

---

(١) ط : تسأل .
(٢) ط : يستعط .
(٣) ط : الحيكا .
(٤) ط : ولا يبط .
(*) ورقة ٦٥ وجه .
(٥) ط : دار .
(٦) ط : بملحط .
(٧) ط : الحفوات .

وحَلوا بسماء المجد بفضائل شتى كحلو لهم بأرض نجد، سيدى أبو سالم وإخوته وأبو زيد وأسرته – أمد الله الجميع بتوفيقه ، بالمصطفى ورفيقه :

١- مِن الهائم الحيران مَن ليس ذا ضبط تحيتـــه تترى علــــى ذلك الرهـــــط

٢- عصابة أنس والأولى[١] سكنوا الحشا وان كـان كـل منـهمُ عنـه ذا شـط

٣- تخذتهـــم قِدْما أخــلاء مهجتـــى وهم خلصاء فى رضاهـم وفى سخـط

٤- ألفتهم دون الجفـــا مذ عرفتهـــم وهمْ فى بنى الدنيا عمادى وهـم قسْطى[٢]

٥- وإنـــى معظــم عظيــم جـنابهمْ وقدرهـــمْ لـــدى ليـــس بمنحـــط

٦- أخــص بأضعــاف التحــية من له بقــلبىَ ود كَلّ عـــن وصفه قطى[٣]

٧- ذخيرة[٤] أرباب المحابر[٥] كلهـمْ أبو سالم لازال فى الخـير ذا بســط

٨- منـــــيل ذوى عَىًّ رســـائلَه وإن يروموا قريضـــا فهو أيضـــا له معـــط

٩- وأهـدى ثناء ساطعا لمقـــــام مـــن بقوس الأسا رمى فـــؤادى فلم يخـــط

١٠- فقـــــيه نبـــيه ليّن هيّن جانـــب صبور حليـم فى المعـــارف ذو ضبـــط

(*) ١١- أبو زيدنا دامـــت بنان يمـينه تخط طروس الأصدقا[٦] أحسن الخـط

١٢- أخال أبـــا زيـــد عطوفا قُبيّل ذا إلى أن رمى حشو[٧] الجوارح بالسـوط

١٣- أصبت أبا زيد برمـــيك مقلـــتى وإنْ كان ذاك[٨] الرمى منك على شحط

١٤- وكيف ومعْكمُ أبو حمزة[٩] الذى تجئ القوافى إن دعـــاها ولا تبـطى[١٠]

---

(١) الألى.

(٢) ط : قط.

(٣) ط : المجابر .

(٤) دخيرة.

(٥) ط : المجابر .

(*) ورقة ٦٥ ظهر .

(٦) طروسا لأحدنا .

(٧) ط : جشو .

(٨) ط : ورن ذاك .

(٩) ط : أبا حمزة .

(١٠) ط : تبط .

١٥- عرفناك يا سوداء منظومه وان | تلفعت من خط بذلكم المَرْط
١٦- وإن الذى أهديت ياخير صاحب | لقد فاق فى حسن اللآلئ فى سمط
١٧- أيا من له أتيح قرب ووصلة | وخلّوا أخا الدنا وذا النأى فى خبط
١٨- وحقكم ليس المراد فراقكمْ | ولا منيتى فى ذا التخلف والشط
١٩- ولو أن لى الخيار لاخترت جمعكمْ | وسيرىَ فى البيداء معْ ذلك الرهط
٢٠- وألزمت نفسى حرفكمْ يا أحبتى | كما الحرف ذو الإعجام يلْزَم بالنقط
٢١- ولكنْ قضاءُ الله للعبد غالب | فليس له إبرام عقد ولا شرط
٢٢- عليكمْ أُهيّل [1] الود طرا تحية | من الهائم الحيران [2] من ليس ذا ضبط

ومما كتبه أيضا الأخ الصالح سيدى عثمان، مخاطباً لأخينا سيدى أبى بكر، ومتشوقاً إليه لما بينهما من الألفة والمحبة، أبيات مفتتحة بنثر رائق مشتمل على معنى لائق، ونصها : من العائق عن الرفقة، الحاصل فى أعظم ربقة. المبتلى بالبعاد وإن لم يكن له من مراد، المكابد مشاق الأسف المؤدية [3] لولا التجلد للتلف، المقاسى الروعة والقسوة واللوعة والسلوة، أبى عمرو عثمان - رزقه الله الأمن والأمان - إلى حبيبه الأمجد سيدى أبى بكر بن محمد :

١- أبا بكر أبَى [4] كربى يزول | وهذا الحزن بعدك فيه طول
[*]٢- وعيشى من ورائك غير صاف | ونومى خاننى منه الثقيل
٣- ولُبِّى حار [5] مذ راح المطايا | بشخصكمُ وبالجسم الذبول

---

(١) ط : أهل .
(٢) ط : الجيران.
(٣) ط : المؤدية .
(*) ورقة ٦٦ وجه .
(٤) ط : أبا .
(٥) ط : صار .

٤- رحلت وذا [(١)] رحيلك كان حسا ومعنى فى حشايا لا تزول[(٢)]

٥- ومن عجب مقامك فى فؤادى ومعْ هذا فمنك أنا سَئول

٦- حبَسْتم وكان حظكمُ انطلاقا كأنك مالك وأنا عقيل

٧- أبا بكر أبى [(٣)] القدر انتظاماً[(٤)] بسلككمُ وحق لى العويل

٨- أبا بكر ذهابك عين حتفى ونفس الفتح لى منك القفول

٩- أبا بكر بعادكمْ عسير وقربكمُ مآرب لى وسُول

١٠- أبا بكر لقاؤك يوم عيد متى لقياكمُ [(٥)] ومتى الوصول

١١- عليكم تحية ماقال خِل أبا بكر بكم كربى [(٦)] يزول

ومما كتبته[(٧)] لأهل دارنا ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

من العبد الفقير إلى الله تعالى، المتمسك بأذيال أهل الله حالاً ومآلاً، العبد الفقير إلى الله تعالى، أبى سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى وسائر إخوانه – أسبل الله عليكم كثيف ستره وسابغ رحمته – إلى من خلفنا بخير فى أهلنا من إخواننا وعشيرتنا، خصوصاً عمنا الأكبر، وخليفة والدنا إذا غاب وإذا حضر، من يحق له علينا الإجلال والإكبار، سيدى عبد الجبار بن أبى بكر – أعانه الله على مافيه، وأسبل عليه كثيف ستره وأدامه ؛ وأخونا الكبير ومعلمنا الأثير ، سيدى عبد الكريم؛ والأخ الأمجد سيدى أحمد ؛ والأخ الأسعد سيدى

---

(١) دا .
(٢) ط : فى حشايا لك النزول.
(٣) ط : أبا .
(٤) ط : انتظام .
(٥) ط : لقاكم .
(٦) ط : كربتى.
(٧) ط : كتبه .

محمد ؛ وابن العم الهمام سيدى عبد السلام؛ والأخ الشقيق والبر(*) الرفيق عبد الخالق؛ وابن العم الأرضى سيدى أحمد بن عبد الله ؛ وابن العم المجتهد سيدى أبو القاسم وأولاده ؛ وعمنا الأجل سيدى يوسف وسائر أولاده. سلام الله الأتم ورضوانه الأعم ، وبركاته الشاملة ونعمه المتواصلة؛ يغشى كل ذلك المبارك ناديكم ليراوحكم وسُميه ووليه ويغاديكم (١) .

أما بعد ، فنحن والحمد لله كثيراً، والشكر له غزيراً على أضعاف ماوعدنا ربنا من البركات، وعهدناه من الخيرات والمسرات. ولم تزل ألطافه تسايرنا وآلاؤه تسامرنا، فطيبوا أنفسا (٢) من قِبلنا فنحن فى حمى رب كريم رحيم، يكون لنا حيث مايكون، ويرعانا (٣) فى كل حركة وسكون، لا ينسانا وإن نسيناه، ولايهملنا وإن أهملنا ما أمرنا به وتركناه، وما نتوقع من كرمه أعظم وما نأمله أفخم.

وقد كتبنا لكم قبل هذا كتابا من بلاد توات فأغنى عن إعادة ما قبله من الأخبار. وأما بعده فقد رحلنا بعدها سابع جمادى(٤) الأولى [٣٠ ديسمبر] ونزلنا ببلاد أوكرت بعد ثلاثة. وأقمنا بها يومين وبدلنا بها جملين، وزدنا نحوا من عشرين مثقالا. وارتحلنا منها فسرنا فى بلاد لايعرف لها شبيه فتشبه، ولا يغفل فيها القلب عن الاعتبار فينبه؛ ذات رمال ومهامه ومعاطش(٥) ومهاب رياح. وبلغنا القليعة بعد اثنتى عشرة (٦) مرحلة، وهى اسم على غير مسمى، ومنها

(*) ورقة ٦٦ ظهر .

(١) ط : ويعاديكم.

(٢) ط : أنفسنا .

(٣) ط : يرعنا.

(٤) ط : جماذى .

(٥) ط : معاطيش .

(٦) ط : اثنى عشر .

قطعنا الحمّاد الذى تستمد منه الحمادات، لطوله وعرضه وخشونته؛ لولا أن الله تعالى تدارك به الكلأ لضاع الرحل وهلك الركب والرجل. وقد ضاع لنا فيه جمل هو من أفضل إبلنا - فيما نرى. ولقينا فى ذلك كله من البرد شدة لم نعهد(*) مثلها فى بلادنا، على أنها تعفو (١) الكلوم، وإنما يوكل بالأدنى وإن جل مايمضى.

ثم بلغنا مدينة وركلا بعد اثنتى عشرة (٢) مرحلة أخرى، وصادفنا فيه قوافل الأعراب جاءت تمتار تمراً (٣). وقدموا بغنم كثير وسمن غزير، فاشترى الناس من ذلك فوق الحاجة وتنعموا فيه أربع ليال. ثم ارتحلنا منه تاسع جمادى(٤) الثانية [٢٩ يناير ١٦٦٢م]، وسلكنا فى أرض مرّملة، وبلغنا تكرت، قاعدة وادى ريغ (٥) ومحل أنوائها، وأقمنا بها أياماً ثلاثة. ومن هناك أخذت فى شراء القمح لفراغ الزاد الذى قدمنا به من عندكم؛ فوجدناها لا بأس بها فى الأسعار. فالتمر رخيص جداً فيها وفى وركلا أيضاً . والزرع والقمح تسع أصوع بريال. ثم ارتحلنا منها وقطعنا الرمال التى تضرب بكثرتها الأمثال، وهى رمال، سوى أن الله لطف بنا لطفاً لا تكيفه العقول. وذلك أنا مطرنا فى تكرت، بفضل الله ورحمته، لا بنوء الحاجون. فتلبد الرمل حتى لايكاد يظهر(٦) فيه موضع قدم، فقطعناها على أحسن حال. ونزلنا بلاد سوف بعد أربع، واشترينا منها ثلاثة من الإبل لظهور الضعف فى إبلنا، والثقل بالزائد فى أحمالها. وقد استفدت سفراً من نوازل البرزلى، وهو الأخير، بثمن بخس. واستفدت أيضاً مجموعا فى تكرت،

(*) ورقة ٦٧ وجه .

(١) ط : تعفوا .

(٢) ط : اثنى عشر .

(٣) ط : تمتاروا ثمراً .

(٤) ط : جماذى.

(٥) ط : وان ريغ .

(٦) ط : يطهر .

واغتبطت[1] به كثيراً، فيه ابن المُشاط على الفروع، وتأليف الفقيه راشد في الحلال والحرام. وعلى كل حال فنعم الله علينا قد غمرت كل مشقة[2]، وقصَّرت عن كل مشقة، وكلما أصاب هذه الطرق يشهد العافية؛ واستسهلنا وعرها وطولها بالأمان في كل ناحية - نسأل الله الدوام (*) ومتابعة الإنعام.

ثم وصلنا إلى نفزاوة يوم الاثنين أول يوم من رجب [٢٠ فبراير ١٦٦٢م]، ومنها سرنا إلى عرام خمسة أيام . ووجدنا الركب قد جاز أمامنا.

وأسلم سلاماً تاماً على ابن اختنا محمد بن محمد بن عبد الجبار، ومحمد ابن يوسف وأترابهما من أبناء إخواننا وأعمامنا، وأؤكد عليهما في عمارة المسجد وخدمة العلم، فإن الله كافيهما بذلك كل هم. وإياكما والتسويف والاغترار والركون إلى الأغيار، فإن ذلك مما يذهب ببهجة العلم ونوره، ويكف بدوره. فإن العلم هو نور القلب والمسجد هو روح البلد، فإن حلت فيه الحياة [3] سرت في سائر الجسد. وأؤكد على أخينا سيدى محمد وأخينا سيدى أحمد أن ينبهاهما ويشدا في عضدهما في عمارة المسجد. ولا تنسونا من صالح دعائكم عقب التدريس، وأؤكد على محمد أن يجعل ذلك كالواجب عليه إثر القراءة، قضاء لبعض مالنا من الحق. وأوصيك بتقوى الله ومراقبته، وإخلاص الأعمال بكف القليل منها؛ ولا تتكلف الأوراد والنوافل فإن وردك التعليم والتعلم والمطالعة. ولا تخل نفسك من مطالعة كتاب الشاذلية وغيرهم من أئمة [4] التصوف ولو ورقة

---

(١) ط : واغتبضت.

(٢) ط : مشقة .

(*) ورقة ٦٧ ظهر .

(٣) الحيوة .

(٤) ط : مراعية .

عند النوم أو قبله، لينام الإنسان وقلبه عامر بذكر الله ومحبته. ولا تتهيب شيئاً أن تقرأه أو تقربه فإن لم تجد من يطلب ذلك منك فاقرأ لنفسك، واجتهد فى الفقه وفنى الأصول والبيان، ومطالعة الكتب والحواشي ولو بدون إقراء. واستمد العون من الله يمدك، واسترشده يرشدك، وشاهده فى كل أحوالك يكن معك بلطفه فى حالك ومآلك. وليكن جل اغتنائك ومجاهدتك فى حفظ لسانك فإن الله قد كفاك ماسواه من الحوائج(*)، وأعظم ماتستعين به على ذلك بعد اللجا [١] إلى الله استحضار عظمة الله ومراقبته مع مطالعة محل ذلك من كتاب الإحياء والقوت - والله يتولاك ويرعاك ولايخيب مسعاك. واستعن فيما ذكرنا من القراءة بالأخ الصالح سيدى عثمان إن سلم من حبائل [٢] الشيطان وغوائل السلطان. وإنا لنرجو من كرم الله أن يجعل اهتمامه بالله حتى يكفيه كل هم دونه، فإن علامة إعراض الله عن عبده إعراض العبد عنه. ولا تأنف أن تقرأ عليه إن أنف هو من القراءة عليك، فكل منكما - إن شاء الله - أهل لأن يقرأ على الآخر ويقريه، ولا فرق إذا حسنت النية.

أخوكم الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر[٣] - كان الله له ؛ آمين :

١ - على أسرتى أزكى سلام وأطيبُهْ	وأحلاه فى قلبى مذاقا وأعذبُهْ
٢ - وأكمل مايرجو [٤] الفتى لحبيبه	من الله فى دنيا وأخرى ويطلبه
٣ - أخص به الإخوان كلا ومن غدا	مدادهم [٥] والحب لله مركبه

(*) ورقة ٦٨ وجه .
(١) اللجوء .
(٢) النص : حبايل .
(٣) ط : بكرا .
(٤) ط : يرجى .
(٥) ط : مدادهر .

٤ – ومنوا عليه بالدعا[1] فدعاؤكم أجل دعاء نرتجيه وأقربه

٥ – وإنا لندعو الله يصلح حالكم وليس جزافا ما نقول ونكتبه

ذكر الرحيل من مدينة طرابلس – حماها الله .

وكان رحيلنا منها يوم السبت ٢٦ من رجب [١٦ مارس ١٦٦٢م] وصادف ذلك خروج سفن للأمير بقصد [٢] جهاد أعداء الدين، وهى ست [٣] سفن فيها نحو من ألفى مقاتل؛ خرجت مجتمعة وذلك شأنهم إذا خرجوا للجهاد، إرهاباً للعدو. وكان خروجها وخروج(*) الحجاج يوماً مشهوداً. وتفاءل [٤] الناس بذلك لحصول الغنيمة، فكان الأمر كذلك، ولله الحمد حق حمده.

وفى الليلة التى خرجنا صبيحتها تمكن الحجاج الذين يبيتون فى الركب يحرسون الإبل والأمتعة من سارق دخل عليهم ليلاً فى خباء، وأوثقوه إلى الصباح، فجاء أصحاب الأمير فعرفوه وأخذوه. وكان معروفاً بالتلصص عندهم، معروفاً بالسرقة، طالما [٥] راموا القبض عليه، فلم يتمكنوا منه إلى أن أحانه الله على أيدى [٦] الحجاج؛ فأمر الأمير بخنقه [٧] . فخنق على باب المدينة، وترك هناك معلقاً، فكان نكالاً لغيره. وخارج مدينة طرابلس وسائر عمالتها أكثر البلاد سرقة، وأعرابها أعلم الناس باستعمال الحيل فى ذلك مع إقدام وهجوم بالليل إن

---

(١) ط : بالدعاء .
(٢) ط : ستة .
(٣) ط : يقصد .
(*) ورقة ٦٨ ظهر .
(٤) ط : تفاؤل.
(٥) طال ما .
(٦) ط : أيد .
(٧) ط : فخنقه .

تمكنوا من ذلك. يبيت الحجاج طول ليلهم فى ضجيج وعجيج وصياح ونباح، وإيقاد نار خارج المنازل وضرب بالمكاحل، ومع ذلك قلما [1] سلمت لهم ليلة من سرقة شئ - والله من ورائهم محيط، والملتجئ [2] لجنابه محفوظ.

ولما خرجنا إلى باب المدينة منعنا البوابون من الخروج طلباً للمكس زعماً منهم أن معنا بعض أحمال ليست للحجاج. وقد صدقوا فى زعمهم إلا أنا أنكرنا ذلك، صوناً [3] لمن التجأ إلينا من بعض من تعلق بنا من أهل البلد. ثم دخلت أنا وأمير الركب إلى باشة البلد، فكلمناه فى ذلك؛ وأحسن وأفضل فى المقال، وأصدق ذلك حسن الفعال. فبعث بعض خدامه إلى البواب ألا يتعرض للحجاج فيما أرادوا إخراجه، وذلك دأبه مع الحجاج - جزاه الله خيراً - لا يهتك لهم حرمة ولا يضيم لهم جانباً. وكانت العادة أن من اشتد [4] عليه المغرم[*] من الرعية وأراد الخروج من البلد والفرار لايتركونه إلا إن كان مع الركب فلا يتعرض له. فيذهب مع الركب منهم مايكون فى بعض الأحيان أضعافه. فلما دخلنا على الباشة تلطف فى المقال، وقال لأمير الركب إن هذا بلدكم، وأنتم لاتحبون خلاءها، فنطلب ألا تتركوا أحداً من هؤلاء الفارين يذهب معكم، فإن ذلك يشق علينا ولانريد التعرض لهم معكم. فقال له أمير الركب [5] نحن لانمنع أحداً التجأ إلى حرم رسول الله ﷺ فمن منعتوه قبل أن يصل إلينا فذلك ، وإلا فلا يمكننا ذلك.

---

(١) قل ما .

(٢) ط : والملتجا.

(٣) ط : صدنا.

(٤) ط : اشترى .

(*) ورقة ٦٩ وجه .

(٥) الركب : ناقصة .

وخرج معنا بقصد الوداع أخونا سيدى محمد بن محبنا سيدى أحمد بن عيسى، وبات معنا ليلة. وكانت عادة الأركاب المبيت بتاجورة، ويضيفونهم ضيافة حسنة. فلما تأخر خروج الركب هذه السنة عن عادته استعجلوا السير، ولم يبيتوا بتاجورة، وجاوزوها بأميال إلى موضع يقال له سدرات العشار على ساحل البحر. ثم ارتحلنا منه ومررنا بموضع يقال له وادى الرمل [١] ، وهو واد مخصب فى أعلاه ، فيه مزارع، تخرج إليه ماشية أهل طرابلس. ثم مررنا فى يومنا أيضاً بوادى المسير [٢] ، وهو مثل الذى قبله أو أخصب منه وماؤه غزير لاينقطع صيفاً وشتاء، ويكثر فى أوقات النيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها. ولم نبت حتى تجاوزنا هذا الوادى بأميال كثيرة، ووجدنا تلك البلاد مخصبة غاية. وفى تلك المرحلة تعرفنا برجل قدم معنا فى الركب، زعم أنه شريف، وأنه من أهل المدينة المشرفة، وأحد بوابى باب الرحمة من أبواب الحرم الشريف[*]. وزعم أن الشريف زيدا [٣] أمير الحرمين بعثه بمكاتب إلى تونس لجمع [٤] أوقاف الحرمين التى بها. وعامله أمير تونس حمودا بإحسان غزير، وقدم مع ركب أهل تونس. فلما وصل طرابلس غضب عليهم زعماً منه أن لم يقوموا [٥] بحقه، فجاء لركبنا فعظمناه غاية التعظيم لنسبه ووطنه الذى انتسب إليه. وكانت فيه دعابة فحمله الناس على ماهو عليه. ولما وصلنا إلى مصر تبيّن كذبه فيما زعم أنه من أهل المدينة. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا تحت وادى اينوت [٦]، وهو واد ينزل من جبال مسلاته، وعليه مزارع إلا أن ماءه قليل، يستقى منه الركب إن

---

(١) ط : واد الرمل.

(٢) ط : المسير.

(*) ورقة ٦٩ ظهر .

(٣) ط : زيد.

(٤) ط : يجمع.

(٥) ط : يقدموا.

(٦) ط : واد بنوت . وفى نسخة حجى : ينوت (ج ١ ص ٩٠) .

اضطرهم العطش إليه أيام الحر؛ وهو على يمين الذاهب داخلاً فى أصل الجبل قليلاً.

غريبة : أخبرنى الشيخ الأجل قاضى مدينة القدس محمد النفاتى التونسى أيام لقائى له بالقدس الشريف أنه حج فى صغرة مع أخيه أبى الحسن النفاتى، وكان أمير الركب، فمروا بهذا المكان فى زمان القيظ، فألجأهم العطش إلى بئر فى وادى اينوت (١) فنزلوا عليه قافلة. ووافقهم هناك قفول قدمت من فزان حاجتهم مثل حاجتهم، فذهب الناس إلى البئر فنزحوا مافيها من الماء فلم يشف بعض أوامهم، رجع الناس مغمومين. فمن قائل نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك، ومن قائل نؤخر إلى آخر النهار. قال لى الشيخ : فدخلت على أخى وأخبرته بذلك، وقلت له إن الناس قد أشرفوا على الهلاك، واضطرب أمرهم فى الرحيل، فمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا. قال : فاغتم لذلك واستند فى خبائه كالنائم؛ فلما أفاق قال لى : ناد فى الناس بالإقامة(*)، وقل لهم يذهبوا (٢) لسقى الماء. فقلت له : أبك جنون، أنا أخبرك إنه لا قطرة فى البئر، والناس قد أشرفوا على لهلاك. فقال لى : افعل ما أمرتك، فقلت له لست بأحمق أنادى بالإقامة على غير ماء. فلما أبيت نادى خديمه الغلام، وقال له ناد (٣) فى الناس بالإقامة والذهاب إلى الماء. فلما سمعت ذلك استحييت وتغيبت، فأقام الناس وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جوانبها. فاستقى الحجاج وجميع القوافل

---

(١) ط : واد أينوت.

(٢) ط : يذهب.

(*) ورقة ٧٠ وجه .

(٣) ط : نادى.

حاجتهم والماء كما هو . قال لى الشيخ : فلمـا رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر، فقـال لى : إنى لما أغفيت عندمـا أخبرتنى بخبر الناس رأيت النبى - ﷺ - فى النوم فقال لى : مر الناس بالإقامة. فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرجاً.

قلت : ولا يستبعد ذلك فى حق وفد الله وزوار نبيه - ﷺ - فإن لله بهم عناية ولهم منه أعظم وقاية. وقد أخبرنى عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا فى سفرته تلك. وفيها توفى بقرية الينبوع التى ينزلها الحاج، وقبره إلى الآن ظاهر عليه بناء خفيف على تل مشرف، بحرى منزل الركب المغربى بالينبوع. وكنا نزور قبل هذا ذلك المحل ولا نعلم من دفن فيه حتى أعلمنى به القاضى المذكور - والله يتغمدنا وإياه برحمته، ويغمرنا فى الدنيا والآخرة بجزيل نعمته؛ آمين، آمين، آمين.

ولم نزل نسير يومنا ذلك فى أرض مخصبة ذات غياض وشعوب متوعرة إلى أن فتنا تحت جبل النكازة أسفل العقبة. ووجدنا هنالك ماء طيباً (١) غادرته السيول فى سد مبنى(*) أعظم بناء وبتنا فى أنعم حال بين ماء وكلأ وحطب لولا ماشابه من سهر الناس خوف السرقة لكون المحل كثير الأحجار والأشجار، بسفح جبل. وهناك تسوقنا أهل جبال مسلاته بزيت كثير طيب رخيص اشترى الناس منه حاجتهم. وزيت هذه (٢) البلاد من أطيب الزيوت مذاقا، سيما ضربا منه يسمونه ضرب الماء، يعصرونه بالماء ولا أدرى كيف يصنعون ذلك (٣)، لا تكاد تميز بينه وبين السمن.

---

(١) ط : طيب . (*) ورقة ٧٠ظهر .

(٢) ط : هذا . (٣) ط : بذلك.

ثم ارتحلنا من هناك وقطعنا الجبل، وهو منتهى الجبال فى تلك البلاد، وهو آخر الجبل الذى لا نظير له فى الدنيا طولاً وعرضاً وخصباً [١] وماء، وقرى متصلة وعمران متراكب ، وقبائل وافرة غالبها بربر، وأوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى، ثم يمتد إلى أن يمر قبلى مراكش، وهذا المسمى جبل درن ثم يمتد كذلك إلى بلدنا ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان، ثم لم يزل يساير[٢] البحر وإن كان يبعد عنه فى بعض المواضع. ويسمى فى كل بلد باسم، وربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن انتهى هنا بأطراف برقة. وقال صاحب تقويم البلدان إنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل.

قلت : وكأنه جعل بلاد برقة كلها والجبل الأخضر منه لأن أرض برقة مرتفعة على مايجاورها من بلاد فزان ونواحيها [٣]، والبحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة، وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل . من الظاهر ما ذكرناه أولاً، وهو الذى اقتصر عليه غيره، فغرب هذا الجبل فى كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار وعيون[*] وأشجار وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال. والبحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة. وفى هذا المحل الذى قطعناه منه آثار أبنية كثيرة؛ وفى سفحه الذى يلى ساحل حامد مدينة عظيمة وهياكل جسيمة يقال لها مدينة لبدة. قد خلت فى العصور الأوائل، وبقيت آثارها ورسومها قد أكل البحر كثيراً منها. وفيها مبان عظيمة، وهياكل جسيمة، وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت، فى غاية الإتقان.

---

(١) ط : حصبا .

(٢) ط : سائر.

(٣) ط : وبنواحيها.

(*) ورقة ٧١ وجه .

قد هرم الدهر وماهرمت، وتعاقبت عليها [١] الأزمنة وما ثلمت. فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر، بحيث يقضى الحدس أن كل ماكان داخلها كان مدينة واحدة [٢] إلى البحر . وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة فى وسط البحر، وقد أحاط بها الماء بحيث لايرتاب أن البحر قد أكل الكثير منها. ومن هذه المدينة ينقل كثير [٣] من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرهما من البلدان.

ويقال إن بانيها الملك دقيوس، وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية؛ وبعضهم ذكر أن النمرود لما بنى دمشق بقى ثلاث سنين، وبعث ولده وأمره أن يبنى مدينة بالمغرب فبنى هذه المدينة، وجلب إليها الماء من وادى كعام [٤]، فى بناء متقن يحار الناظر فيه. وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم، متصل من جوف الوادى إلى أطراف المدينة. إلا أن ماء هذا [٥] الوادى الآن قليل آجن، ويزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادى كان حلواً غزيراً أيام عمارة المدينة. وكان مما يؤثر عند أهلها أنه إذا بدت الملوحة فى ماء الوادى فذلك علامة خرابها؛ فلما بدت فيه الملوحة أخذ أهلها فى الانتقال منها[*] – والله أعلم أى ذلك كان. وقد ذكر العبدرى هذه [٦] المدينة فى رحلته، وذكر أنه وجدها خالية. والذى يظهر أنها خلت قبل الإسلام، إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح إفريقية – والله أعلم بغيبه.

---

(١) ط : عليه .
(٢) ط : وحده.
(٣) ط : كثيراً.
(٤) ط : واد كعام .
(٥) ط : هذه.
(*) ورقة ٧١ ظهر .
(٦) ط : فى هذه .

غريبة : أخبرني بعض أهل ذلك البلد أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا ولم يدر ما سببه. وأمر بشق بطن واحد منهم، وشق على قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم. وأمر بصب جميع الأدوية عليها، واحداً فواحداً، فلم تمت حتى أخرج زيتاً كان عنده في قارورة جاء به من أرض الشام، فصب عليها قطرة من زيت فماتت. فعلم أن دواء ذلك المرض بأكل الزيت، فبعث إلى الشام وجاءه غرس الزيتون، فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلها، من مصراته إلى سوسة وتونس وأعمالها؛ ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد – والله أعلم.

وبعد أن نزلنا من الجبل دخلنا بلدة ساحل حامد وبتنا بها. وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وسواني وزيتون، إلا أن نخل هذا الساحل ردى، تمره لايدخر ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه، فيبقى كقطع الجلد لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم، لا تكاد تفرق بينه وبين لحا الشجر. وفي هذه البلدة استهل لنا شهر شعبان [٢٠ مارس] ليلة الأربعاء. وزرت بهذه البلدة قبر الولي الصالح ذي[١] الكرامات الكثيرة والمآثر الشهيرة سيدى مفتاح، وهو على تل مرتفع بساحل البحر، وبينه وبين البلد، في مكان يعلوه البهاء ويتفجر منه السناء، تسكن النفوس إذا حلت به، وتطمئن القلوب إذا نزلت بقربه. وختمت عند قبره سلكة كنت ابتدأتها(*) قبل ذلك. وزرته بنية صالحة وإخلاص قوى، وطلبت من الله عند قبره مسائل رأيت أثر الإجابة في بعضها بالقرب، وإني لأرجو[٢] الله فيما بقي منها. وهذا السيد ممن تؤثر عنه كرامات كثيرة، وجربت إجابة الدعاء عند قبره فلا ينبغي لمن مرّ بذلك البلد أن يهمل زيارته. والذى نبهنا لزيارته، وأعلمنا

---

(١) ط : ذو.

(٢) ط : لا أرجو.

(*) ورقة ٧٢ وجه.

بمكانته شيخنا سيدى محمد بن مساهل، فى سنة ٦٤ [١٠هـ] [١٦٥٤م]، وحضنا على زيارته فزرناه إذ ذاك، ولم ندع بعد ذلك زيارته إذا مررنا ببلده. وقد قيل إن قبره كان مخفياً وأظهره سيدى [(١)] عبد السلام الأسمر، وكان قد أظهر قبوراً كثيرة للأولياء بذلك الساحل، وأظهرت فرسه أيضاً آخرين. وذلك أنه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها فى الأرض، فيقول لهم الشيخ احفروا فإن هنا قبر ولّى فيجدونه، فظهرت فى ذلك مزارات كثيرة. وفقراء الساحل إلى الآن يعرفونها ويقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ، ولا بدع فى ذلك فإن الكرامة فى ذلك لراكب الفرس لا للفرس. فقد بركت ناقة النبى - ﷺ - فى مكان مسجده، وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية [(٢)]. وإذا كانت بركة النسبة للأنبياء - عليهم السلام - وللأولياء - رضوان الله عليهم - يظهر أثرها فى العجماوات فما بالك بالآدمى الذى هو أشرف المخلوقات. فلا تقصروا إخوانى من خدمة الصالحين وزياراتهم وملاقاتهم، فإن لذلك أثراً عجيباً فى تليين القلوب وتسخير النفوس - والله تبارك وتعالى[(٣)] يجعلنا من المحبين لأهل ولايته، ويحشرنا مع حزبهم وفريقهم دنيا وأخرى.

ثم ارتحلنا من ساحل[(*)] حامد، ومررنا بقرية بوادى [(٤)] تارغلات، وفيه آثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة، من عين يقال لها عين كعام. وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة، تحار فيها العقول. منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر، منقورة فى وسطها نقراً متقناً، والحجر فى غاية الصلابة قريب من حجر الصوان. والحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون

---

(١) ط : سيد.

(٢) ط : خذمة.

(٣) ط : تعلى.

(*) ورقة ١٢ ظهر.

(٤) ط : بواد.

قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار، وعلم أن دهراً أفنى أولئك الأقوام جدير بأن يستأصل شافة الأنام.

ثم نزلنا فى ذلك اليوم بلدة أزليتن، وهى مثل التى [1] قبلها فى النخيل والسوانى إلا أنها أصغر منها فيما يظهر. وكان نزولنا خارج زاوية الولى الصالح، الشهير التصريف، الغنى بشهرته عن التعريف، سيدى عبد السلام الأسمر. وهو رجل من أهل المائة العاشرة [ق ١٦م]، كثير الكرامات عالى المقامات، من جل تلامذة سيدى أحمد بن عروس نزيل تونس. والغالب عليه الجذب فى أول أمره وآخره، وله تصرف قوى. ويؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها؛ وأخباره فى قهر الجبابرة وفك الأسارى من أيدى الإفرنج فى حياته وبعد مماته شهيرة. وهو [2] من بلدة يقال لها الفواتر، وأمه مغربية دراوية، ولم تزل هذه البلدة التى هو منها مأوى الصالحين ووكر العابدين من قديم الزمان. تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين؛ قالوا : وهم ظاهرون بها حتى الآن، وليس عليهم سمت متفقرة [3] الوقت بل هم على هيئة العوام فى ملابسهم ومساكنهم وحرفهم إلا أنهم قائمون[*] على منهج الشريعة. وكل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله؛ ولا يدخلها أحد بزهو وتكبر إلا أذله[4] الله . ويذكر عن أهلها كرامات كثيرة.

وقد ذكر لى بعض الإخوان أن سيدى عبد الحفيظ قدم لزيارة هذه البلدة[5] ومعه بشر كثير، كما هو شأنه إذا خرج. فلما قرب من البلد نزل عن[6] فرسه ومشى راجلاً متواضعاً إلى أن زار وخرج؛ فقيل له فى ذلك؛ فقال

---

(١) ط : الذى .
(٢) ط : وهى .
(٣) ط : متفرقة .
(*) ورقة ٧٣ وجه .
(٤) أدلة.
(٥) ط : البلد.
(٦) ط : على .

لو دخلتها على الحالة التى أكون عليها خارجاً من الركوب وهيئة المتبوع لخشيت على نفسى أو كلاماً هذا معناه. وبلدة الفواتر هى بإزاء زاوية سيدى عبد السلام؛ قريب منها بنحو من فرسخ، وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات.

لطيفة : وممن لقيته من سكان هذه الزاوية سيدى أحمد بن محمد بو مجيب، مجذوب سالك. والغالب عليه الجذب وفيه خير كثير، قارب فى عمره المائة، ومع ذلك فهو صحيح الذهن والبصر والبدن، خرج إلينا إلى منزل الركب. وسبب معرفتى به سيدى محمد بن محمد الحفيان، وكان أخبرنى قبل الوصول إلى بلده بكرامات وقعت له فى بعض حجاته. وقد حج هذا السيد مراراً عديدة مع سيدى محمد الحاج صاحب بسكرة، وكان يثنى عليه كثيراً. وقال لى لو عاش ما تخلفت عن الحج؛ فقلت له ألا تحج معنا ؟ فقال لى إنه لا مال لى وأنتم لا تشاركوننى فى دنياكم، وهو كان يشاركنى فى دنياه. وقد حُكيت لى عن هذا السيد كرامات وشيخه سيدى أحمد الشريف البقال بفاس تلميذ سيدى مسعود الدراوى، لقيه لما جاء للحج، ومرّ بهذه البلدة، وقال له فى رجوعه(*) من الحج يابو مجيب أعلمنا بك الحبيب عليه السلام.

لطيفة : أخبرنى الشيخ بو مجيب أنه لما حج بقى أمام النبى - ﷺ - وقال فى نفسه : إنى لا أذهب لزيارة ولا غيره؛ هذا يكفينى . قال : فأخذتنى سنة فرأيته عليه الصلاة والسلام، فقال : يا أحمد ياحبيبى، عمّ الرجل عوض أبيه. قال: فقمت فى الحين وذهبت إلى زيارة سيدنا حمزة وحدى، وكان وقت خوف، ولقيت هناك ثلاثة رجال، أحدهم الخضر عليه السلام.

لطيفة : أخبرنى أيضاً وهو عنه صدوق، قال أخبرنى الشيخ اللقانى أن الوزغ يتغذى [1] بعينيه وأنه، أى اللقانى، كان ذات يوم يأكل ووزغ ينظر إليه

(*) ورقة ٧٣ ظهر .

(١) ط : يتغدى .

من السقف، فأمر من قتله. قال : وشقوا بطنه، فوجدوا فيه من الخضرة التي كان الشيخ يأكل منها. أخبرني بهذا كله، وهو عندي ثقة. وقد عقدت معه عقد أخوة في الله، وكتب لي خطه بذلك - نفعني الله وإياه بها؛ آمين.

وممن آخيته في الله أيضاً بهذه البلدة، الشاب الذكي التقي النقي، سيدي محمد بن أبي القاسم بن سيدي علي الصوفي، من بلاد غريان. قدم لهذه الزاوية مهاجراً لطلب العلم، وجده سيدي علي تلميذ سيدي عيسى بو معزه. وهذا الشاب ممن رزق السعادة في محبة القوم واتباع طريقهم. وقد أخبرني بغرائب كثيرة ممن لقي منهم، ودلني على بعضهم ممن في سواحل تلك البلاد - نسأل الله أن ينفعنا وإياه بهم. وقد شيعني يوم سفري من هناك على رجله حافياً قريباً من ثلاثة فراسخ - شكر الله سعيه، آمين.

ثم ارتحلنا من هناك ، وارتحل معنا سيدي عبد الله بن عبد السلام متولي الزاوية، من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام[*] قاصداً للحج مع ثلاثة من أولاده وأتباعه. وكان من عادتهم السماع بالطار المزنج[١] ، قلما يتركون ذلك في كل ليلة، لايكادون يتركوننا ننام من صوت الدفوف، نحو الأربعة، مقتفين في ذلك آثار جدهم. فإنه كان ممن يسمع بالدف، إلا أنه كان - رضي الله عنه - ذا حال صادقة، لا يقتدى به في ذلك. فحقهم اتباع السنة واجتناب مواقع الظنة، وليست الأحوال مما يورث ولا مما يصح فيها التقليد لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالاً جبرياً، فليس لغيره اتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقته المشروع.

ومما يحكى في ذلك عن الشيخ سيدي عبد السلام أنه سمع ذات يوم بالدف فلما نقره سمعه كل من حضر يقول : الله، الله، بحيث لا يمترون في ذلك.

(*) ورقة ٧٤ وجه.

(١) ط : المزيح، والتصحيح من نسخة محمد حجي ، ج ١ ، ص ٩٥ .

قلت : هذا شاهد صدق فى صحة سماعه وصدق حاله مع الله، ومثل هذا له أن يسمع بأى شئ أراد من دف ومزمار، لانقلاب سُمِّية الملاهى فى حقه درياقاً، فعادت المخالفة للمشروع بانعكاس الثمرة وفاقاً - فسبحان من يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين (١)، ومن بين الدف والزمر أحوالاً سنية للمقربين.

وقد أخبرنى بعض الإخوان من أهل مسراتة أن شيخنا سيدى محمد بن ناصر لما حج سنة ٧٠ [١٠هـ] = [١٦٥٩-٦٠م]، حج معه بعض أهل هذه الزاوية، وكان يسمع بالدف على عادتهم. فبعث إليه الشيخ، فقال له إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع وإلا فاعتزلنا، فاعتل بأن ذلك من عادة أسلافهم، فلم يقبل الشيخ منهم ذلك، ولم يزل به حتى ترك السماع.

ولم نبت يوم رحيلنا من ازليتن إلى أول بلاد مسراتة. ومن الغد (*) ارتحلنا ، ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم، العارف بالله الدال على الله، صاحب العلمين ومحقق النظرين، ومحل المذهبين ومرتضى الفريقين، مقتدى أهل العلم الباطن ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار فى سائر المظاهر؛ قطب مغربنا وإمام أئمتنا، سيدى أبى العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسى الفاسى - حقق الله إليه نسبتنا، وخلّص فى محبته سريرتنا، آمين. وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة، وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار وذل وانكسار. وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع، وهو الذى كان الشيخ يصلى فيه. وخطب إمام المسجد من ورقة، وليته أحسن القراءة منها، فإنه كان يتوقف حتى فى آية من القرآن العظيم، وأسفت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد، كيف يسند الأمر فيه إلى غير أهله، ويوضع فى غير محله - ولله الأمر من قبل ومن

(١) ط : قرآن كريم : سورة النحل ، آية ٦٦ .

(*) ورقة ٧٤ ظهر .

بعد. وبعد الفراغ من الصلاة زرنا خلوة الشيخ، وهى أمام المسجد، قريباً منه، وبها توفى - رضى الله عنه - ولم نزل نتردد إلى قبر الشيخ - رضى الله عنه - ذلك اليوم والذى بعده - نفعنا الله بذلك، وأنار لنا به من دجى[1] الخطوب المسالك.

وممن لقيته من أهل هذا البلد صاحبنا ومحبنا فى الله، خديم ضريح الشيخ، ومتولى زاويته، سيدى أبى [2] العباس بن أحمد بن عبد الرحيم بن أحمد، وجده هذا أحمد هو خديم الشيخ، وهو الذى فى المسجد الذى هو اليوم على ضريح الشيخ؛ وتولى عمارته والقيام به ثم أولاده وأحفاده وبعده إلى هلم جرا. والمتولى كان هو سيدى أبو العباس هذا وابن عمه سيدى عبد الواحد، وهو أسن منه، وكلاهما لايخلو من بركة[*] وهما ملازمان للصلاة بجوار الشيخ وقراءة وظيفته مع الفقراء النازلين بجواره. والكل محترمون بحرمته ليس عليهم مثل ما على غيرهم من الوظائف الجورية لأرباب الدولة. وقد قرأت معهما وظيفة الشيخ غير ما مرة، وأخبرانى بها عن سيدى محمد بن غلبون، وكان قد أسن وقارب المائة وتجاوزها. ومسكنه بقصر أحمد على نحو من فرسخين، ومع ذلك لايترك صلاة الجمعة بمسجد الشيخ، ويحضر الوظيفة إلى أن مات وهو قد أدرك. وقد أخذ عن خديم الشيخ وأخص أصحابه وتلامذته سيدى أبى زعامة، وفيه يقول - رضى الله عنه - مداعباً [3] وممازحاً، ومزاح [4] الأولياء حق : يابو زعامة ياعنق حمامة، أبشر بالسلامة يوم القيامة. فهنيئاً له أعظم البشارات على لسان أصدق أهل الإشارات.

---

(١) دجا . (٢) ط : أبو .

(*) ورقة ٧٥ وجه . (٣) ط : مذاعبا .

(٤) ط : مزاج.

وقد أخبرني [١] بهذه الحكاية السيدان المتقدمان، كلاهما، وأذنا لي في قراءة الوظيفة مدرجاً فيها : يا مولانا يا مجيب، من يرجوك مايخيب، اقض [٢] حاجتنا قريب، يا حاضر لا يغيب، آمين.. إلخ؛ بعد قوله يا عالم السرمنا ... إلخ. وأخبراني أنه لم يكن من كلام الشيخ، إنما زاده تلميذه الإمام الخروبي لما مرّ بأهل زاوية [٣] الشيخ قاصداً للحج واشتكوا إليه [٤] من ظلم الأعراب، فأمرهم بزيادته وإدراجه في الوظيفة. واستمر الحال عليه إلى الآن، وكثير من الناس يظن أنه من كلام الشيخ – رضى الله عنه . والصحيح – إنشاء الله – ما ذكراه إذ لم نجد هذه الزيادة في النسخ الصحيحة المتصلة السند والرواية بالشيخ، ولم يذكره الخروبي في كتابه « كفاية المريد » ، وأصح الطرق التى رأينا فيها هذه الزيادة، في طريق شيخ والدنا [*] سيدى أحمد إذ قال [٥] : إلا أنه قال إنما أخذه عن شيخه بركات الخطاب بالإجازة، واجتهد في تصحيحها من النسخ بعد ذلك حسبما رأيته بحظه آخر نسخة من الوظيفة – رضى الله عنه – ، آمين.

لطيفة : وقد أخبرني سيدى أبو العباس المذكور أن جده الأعلى سيدى أحمد الذى كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته : ألا نبني هنا زاوية، ونتخذ لها أوقافاً ! فقال له : يا أحمد نحن لا تفوح رائحة مسكنا إلا بعد ما نتسوس تحت التراب. ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها، بنى تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره، وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة. وقد وجدت عند هذين[٦] الأخوين جزءاً من شرح الرسالة للشيخ بخط يده – رضى الله عنه .

---

(١) ط : أخبراني .

(٢) ط : أقضى.

(٣) ط : بزاوية .

(٤) ط : عليه .

(*) ورقة ٧٥ ظهر .

(٥) ط : إد فال.

(٦) ط : هؤلاء .

ومن لقيته هناك أيضاً الأخ في الله صاحبنا الفقيه سيدى على بن عزازه، وجده أيضاً كان من أصحاب الشيخ. وليس فى هذا البلد أمثل من هذا الرجل فى بعض فروع الفقه؛ وكان قبل هذا متولياً للقضاء بهذا البلد، ثم عزل. وقد آخيته فى الله تعالى ، وأعطانى ورقة بخط الشيخ - رضى الله عنه - وشرح الرسالة، واشترط على أن أثيبه (١) عليها بدعوة على عرفات، فوفيت له - والحمد لله.

لطيفة : قد وجدت عند صاحبنا هذا ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدة أولاده ونسائه، وما (٢) خلفه من بعده، وعَدّ متخلفه من كتب وأمتعة. ولننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد؛ منها استفادة عدد أولاد الشيخ وأين استوطنوا بعده، فإنى لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه؛ ومنها التأسى(*) به فى قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء فى بلد يشق فيها العيش، ولايعوزه ما يخلفه لهم، لو شاء، لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له، ومع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه. ونصه بعد الإفتتاح.

بعد أن توفى ، وصار إلى عفو الله، الشيخ الفقيه العالم العلامة، الصالح العارف المحقق القدوة (٣)، المتبرك به، أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبى العباس بن محمد البرنسى (٤) الفاسى، الشهير بزروق - غفر الله له ولوالديه-، انحص إرثه فى زوجته الجليلة ابنة أحمد المكرم أبى العباس أحمد بن الفقيه العدل أبى زكرياء يحيى القلبانى المصراتى وأولاده منها : أحمد أبى الفضل، وأحمد أبى الفتح، وعائش؛ وزوجته فاطمة ابنة أبى عبد الله محمد الزلاعية الفاسية، وولده منها الفقيه الشاب، الطالب الأسعد أبى العباس أحمد الأصغر؛ وابنه الشيخ الفقيه القدوة (٥) المدرس أبى العباس أحمد الأكبر، لا

---

(١) ط : على أثيبه.

(٢) ط : ومن .

(*) ورقة ٧٦ وجه .

(٣) ط : القدرة .

(٤) ط : البرنوسى (انظر ماقبله).

(٥) ط : القدرة .

غيرهم فى علمهم. ثم توفى أحمد أبو الفتح المذكور، وانحصر إرثه فى والدته أمة الله الجليلة وشقيقه أبى الفضل وعائشة المذكورين، وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ الفقيه الأجل الأسعد الصالح أبى على منصور بن أحمد بن محمد البجاوى لا غيرهم فى علم شهوده. ثم توفيت عائشة المذكورة وانحصر إرثها فى أمها أمة الله الجليلة[1] المذكورة وشقيقها أبى الفضل وأخيها لأمها أحمد بن الشيخ منصور المذكور. ثم توفى أبو الفضل المذكور وانحصر إرثه فى والدته أمة الله الجليلة وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين، وأخويه لأبيه أحمد الأكبر وأحمد الأصغر المذكورين، لا غيرهم فى علم شهودهم.

وكان من مُخلّف(*) الشيخ أحمد المذكور نصف الفرس [2] الشهباء كبيرة السن، شركة[3] بينه وبين الحاج عبد الله بن عزازة التكيرانى المصراتى بالنصف الثانى مع برنوس أبيض، وجبة صوف بز ومختم مع ثوب بالغزل، وسبحة قفل كان أخذها الشيخ أحمد المذكور من الشيخ سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى اليمنى – نفع الله به، آمين– مع أربعة عشر سفراً وكناش فمن كتب [4] الفقه من مختصر ابن عرفة – رحمه الله – وأسفار فى الكبير مع حاشية الوانوغى والمشدالى على المدونة مع سفر به مختصر الشيخ خليل، والشامل للشيخ بهرام – رحمهم الله [5] – مع شرح ابن عسكر فى الفقه للشيخ أحمد المذكور، ألفه. ومن غير الفقه : الديباج المذهب فى التعريف برجال المذهب لابن فرحون – رحمه الله – ومع تآليف الشيخ أحمد المذكور : القواعد فى علم التصوف، ومعه شئ من علم الطب مع سفر به قواعد للونشريشى، والمذكور شئ من علم الطب مع سفر به الزركشى والسبكى فى أصول الفقه، وبلوغ المرام لابن

---

(١) ط : أمة الجيلة.
(*) ورقة ٧٦ ظهر .
(٢) ط : نصفا للفرس.
(٣) ط : شريكة .
(٤) ط : الكتب.
(٥) « الله » ناقصة فى ط .

حجر، والفلالى اختصار الإحياء مع سفر به التفتازانى فى أصول الدين، والحكم لابن عطاء الله، والمنهل الروى فى علم الحديث، وغيره. مع سفر من ملتم الحديث بخط الشيخ أحمد المذكور، وتأليف للشيخ عبد الرحمن الثعالبى مع إجازة له وشئ من ابن حجر فى علم اللغة - رحمهم الله. وسفر به تفسير القرآن وكناش[1] محتو على وظائفه [2] وغير ذلك.

وقد كان استوطن الشيخ أحمد الأكبر بعد موت أبيه ببلاد المغرب، واستقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة - حرسها الله - وأرسل مراسل للإتيان بالمخلف المذكور بخط يده، وثبّتاً [3] منها [*] بالعدالة حسبما بيانه، كما بأن [4] يوجه له ذلك مع من أمكن. وكان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور، وامتنع من ذلك لعدم الأمن والأمان حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور فى عام [5] تاريخه لمدينة طرابلس - حرسها الله تعالى - ولم يأت بموجب يقتضى له ذلك قبل أخيه [6]، فتوقف أصحاب الشيخ المذكور، فطلب الشاب أحمد المذكور أن يعطى ذلك فى زمامه، يطلب نصيبه ونصيب والدته فاطمة المذكورة لكونه وارثها، ونصيب أخيه أحمد الأكبر المذكور. فوافقوه على ذلك بعد ثبوت الإذن المذكور بأن يعطى ذلك له ولأخيه [7]. وحضر مع شهيديه [8] الفقيه أحمد المذكور الأصغر نائباً عن نفسه وعن أحمد المذكور الأكبر، وأشهد أنه قبض جميع المخلف المذكور عدا نصف

---

(١) ط : كناشة.

(٢) ط : وضائفه .

(٣) ط : ثبت .

(*) ورقة ٧٧ وجه .

(٤) المعنى : كما طلب بأن .

(٥) ط : فى علم .

(٦) ط : يقتضى له قبل ذلك لأخيه.

(٧) ط : يعطى ذلك ولأخيه .

(٨) ط : حضر إلى شهيديه.

الفرس فإنه قبض ثمن ذلك، وهو ثمانية دنانير ذهب مشحرة من الشيخ منصور المذكور قبضاً تاماً، وأبراه بتاريخ أوائل ذى الحجة الحرام متم عام ٩١٣ [٢ أبريل ١٥٠٨م] .

انتهى – وصلى الله [١] على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم – الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة ولا نقصان مع وجود بعض التصحيف به، ولم أغير شيئاً منه بل تركته كما وجدته، ولم أكتب من الرسم الأصل بل من رسم نقل منه – والله أعلم.

وممن لقيته هناك من أهل الخير والصلاح سيدى فتح الله بخير، من أحفاد سيدى عبد السلام، وهو ممن ترجى بركته، ووسمه وسم خير ؛ وقد [٢] نزل وحده بداره منقطعاً عن الناس فى نخيل على طرف البلد من ناحية البر.

ولقيت هناك أيضاً المجذوب [٣] الصادق سيدى أبا [٤] تركية، وهو رجل[*][٥] متقشف لا يؤبه [٦] له، أرى أنه ممن لو أقسم على الله لأبره[٧]. وهو نازل وحده بساحل البحر بأهله، يرد عليه أهل الخير السائحون [٨] فى الأرض، ويدخلون البادية من هناك على قدم التوكل، قاصدين الحجاز الشريف. فمنهم من يرجع بعد أعوام، ومنهم من يبقى هناك، ومنهم من لا يوقف[٩] له على خبر؛ وقد حكى من ذلك ومن أخبارهم معه [١٠] شيئاً كثيراً.

---

(١) « الله » مكررة فى ط .
(٢) ط : ومن .
(٣) المجذوب.
(٤) ط : أبى .
(*) ورقة ٧٧ ظهر .
(٥) ط : « رجل » بدلاً من « وهو رجل » .
(٦) ط : لأبويه .
(٧) ط : أربى أنه ممن قسم على الله لأبده.
(٨) ط : السابحين .
(٩) ط : يقف .
(١٠) ط : معهم .

ثم ارتحلنا من زاوية سيدى أحمد زروق بعد ما تنعمنا بزيارته، وقراءة ما تيسر من القرآن عند قبره، والمبالغة فى الدعاء. وأودعنا الله عند قبره أنفسنا وأموالنا وأدياننا، فرأينا بركة ذلك. وقد شاع عند الحجاج أن من مر بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع، ويفعلون ذلك إذا مروا به أو حاذوه[1] فى البحر، فيجدون بركته، ولا بدع فى ذلك ولا غرابة، فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه، والأولياء أبواب الله، فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه كيف لا يحفظه فيه - والله خير حافظاً[2] وهو أرحم الراحمين. وكان رحلينا من هناك صبيحة يوم الأحد الخامس من شعبان [٢٧ مارس]، ومررنا بقصر أحمد ضحى، وهو آخر العمران هناك، ولا عمارة وراءه على طريق الحاج إلا الإسكندرية. وزرنا خارجه على تل مرتفع بساحل البحر قبر سيدى أبى شعيفة، ووجدت عند قبره سيدى أبى تركية بل وجدنى، واغتنمت دعاءه فى ذلك المكان، وذهب بى إلى مزارة هناك فى مغارة بساحل البحر يتعبد فيها الصالحون، لايكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها؛ فإنها[3] صغيرة مستقبلة البحر يغلب [*]على الجالس بها الحضور، إذ لايرى إلا البحر ولا يسمع إلا تسبيحه وتمجيده لربه، وإن من شئ لايسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم لغفلتكم عنه . ومن امتزج تعظيم الحق وتسبيحه بلحمه ودمه وأنس[4] بذلك سمع تسبيح كل شئ، إما بحاله أو مقاله. وقد أخبرنى صاحبنا هذا أن مفتتح هذه المغارة[5] رجل من العباد اسمه سيدى فرج، وهو الآن بالجزائر[6]؛ وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها.

---

(١) ط : حادوه.

(٢) حفظا .

(٣) ط : إنها .

(*) ورقة ٧٨ وجه .

(٤) ط : وأنيس .

(٥) ط : المغازة.

(٦) الجزاير .

وأخبرني عن أناس آخرين مروا به هناك من الأخيار، وهم الآن بالحجاز، أحدهم سيدى أبو القاسم السوسى بالمدينة، وسيدى على التونسى. ثم ودعته هناك وكتبت له ورقة بخطى [1] تذكرة له وللإخوان فى صالح الدعاء. وكنت أرى اجتماعى معه فى ذلك المكان إحدى كراماته لأنى فارقته بالأمس عند قبر الشيخ، ولم أقض بالوطر من لقائه، ومنزله بعيد لايمكننى الذهاب إليه فإذ بى [2] الحق إلى ذلك المكان من غير رأى ولا عادة – والله يعين العبد على قدر نيته.

وفى ذلك فارقنا آخر العمران، ودخلنا برقة، ومررنا ذلك اليوم بماء يقال له القوير، وهو حلو طيب بين السبخة والبحر. ونزلنا آخر اليوم على [3] ماء آخر يقال له بوكدية، مقابل بلدة تاورغا، بينها وبين البحر. وهذه البلدة منقطعة، أول برقة، وفيها نخل كثير، وتمرها أطيب من تمر [4] غيرها من بلاد الساحل وأجود منه، وإن كان على وصفه من عدم ادخاره إلا [5] بإزالة النوى. وطيبه – والله أعلم – لبعده شيئاً ما عن البحر ورطوبته، ودخوله قليلاً إلى الصحراء [*] حيث تكاد اليبوسة تستولى على أبدان الحيوانات فضلاً عن النبات.

ثم فى الغد نزلنا قرب الهائشة؛ وفى الذى يليه مررنا بالهائشة ، وهى سبخة مستطيلة، وعلى جوانبها بناء وقصور خالية، وفيها نخل متفرق كأنه رؤوس الشياطين لانرى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج فى ذهابه، سيما المعاود، لما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز والمعاطش التى يحار فيها الدليل، كما لا آنس منه ولا أبهى فى منظر الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة.

---

(1) ط : بخط .

(2) ط : فإننى به .

(3) « على » مكررة فى ط .

(4) ط : تمرة.

(5) ط : إلا . انظر ماقبل ص .

(*) ورقة ٧٨ ظهر .

ونخيله آخر نخل يرى [1] الذاهب، وأول ما يراه الآيب. وماء الهائشة ملح أجاج لايكاد يساغ، يضرب به المثال في القبح. وليس في مياه برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لايعتمرها الحاج مع أن هذا أيضاً لايستقى منه إلا من اضطره العطش، وكانت أيام الحر. وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط بها القصب، وبعضه أشد قبحاً من بعض. وبآخر الهائشة واد من الملح يجرى الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحاً ولا الملح يذوب ماء، وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل. ولم نقطع ذلك المكان إلا بعد لأى ولأى [2].

ثم نزلنا دون حسان، ومررنا بالغد بحسان [3]، وهو ماجل منقور في حجر تجتمع فيه مياه المطر، فإذا فرغ المجتمع بقى محله يرشح بماء قليل يحم في قعره، يبل به الظمآن فمه. وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق إلا رسومها، تسمى فيما مضى قصور حسان، إضافة إلى بانيها، وكان عاملاً لبني أمية. لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة مروان [4] بنى هناك قصوراً وأقام فيها نحوا من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد [*] ذ لك حسبما ذكر من أرخ فتوح إفريقية. وسمى المكان باسمه إلى الآن. ثم بتنا آخر ذلك اليوم بقرب سانية هناك، هى أول عمارة سرت؛ ثم منه إلى الزعفران، وهى أحساء في ساحل البحر، ماؤها طيب، عليها كثبان من رمل أحمر يظهر من بعيد. ومن وراء الكثبان [5] من ناحية البر قصور سرت، وهى ثلاثة قصور تخزن فيها العرب ميرتها. وكانت فيما قبل هذه السنة خالية. ووجدناها في هذه السنة فيها بعض العمارة ممن تركته العرب على خزائنها[6] حافظاً لها.

---

(١) ط : لا يرى .
(٢) ط : ولايى .
(٣) ط : حسان .
(٤) ط : يوضع هامش تصحيح – عبد الملك .
(*) ورقة ٧٩ وجه .
(٥) ط : كثبان.
(٦) خزاينها.

وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد، ذات مزارع كثيرة بالبعل، وعربها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم إلا أن أمرهم كاد ينتظم فى هذه الأواخر على يد أميرهم سيدى روحه.

ثم الغد بتنا فى موضع يقال له أمكيرينه، وبإزائه بئر طويل. وفى الغد مررنا بمعطن يقال له المُدَينة، تصغير مدينة، على ساحل البحر؛ ثم بآخر يقال له السلطان؛ ثم بتنا مقابل آخر يقال له النعيم. ووجدنا هنالك حلل أعراب سرت ، أميرهم عبد القادر بن عبد الله الملقب بسيدى روحه، لقب أبيه عبد الله. قالوا وسبب تلقيبه بذلك أن أباه، وكان من أهل الخير ومن أهل النسبة، ونزل بأولاده بساحل حامد، وكان له عدة أولاد [1] . فلما نشأ ولده هذا واشتغل بما لايعنيه، وظلم الناس، فمن اشتكى إلى أبيه قال فى شكواه : إن سيدى عبد الله فعل بى كذا وكذا؛ فيقول أبوه توبيخاً لولده : ليس بسيدكم إنما هو سيد روحه. فاستمر ذلك لقباً له ثم لإخوانه وأولاده من بعده. وأخوه عبد الرحمن هو رئيسهم الآن، وكلمتهم نافذة، وأمرهم مسموع فى عرب سرت[*]. وسائر عرب تلك النواحى إلى الجبل الأخضر مستندون إلى الأمير عثمان فى الظاهر، مستبدون برأيهم فى الباطن، ولهم جدار وعقار بساحل أحمد، وكبيرهم عبد الرحمن نازل، وأبناء أخيه عبد الله متفرقون فى حلل الأعراب. فأما عبد القادر فهو مع عرب سرت، وأما أبو بكر أخوه فهو بحلله على الجابية[2] ونواحيها مع عرب تلك الناحية.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الأحمد ضحى، وتسوقنا أولئك [3] الأعراب

---

(1) ط : أولاده ، وعن سيدى روحه انظر فيما بعد ص ١١٧ .

(*) ورقة ٧٩ ظهر .

(2) أليست أجدابية الحالية (انظر ص ١٥٠ هـ٤) .

(3) ط : أولائك.

بإبل فى غاية السمن وغنم أخذ الناس منها حاجتهم، وقليل سمن. ثم ارتحلنا منه، وحمل الناس ماء خمسة أيام إلى المنعم. وتسمى هذه المسافات كلها عند الحجاج مقطع الكبريت تغليباً، وإلا فالمسمى بذلك حقيقة موضع واحد. وفى هذه المسافة مياه كثيرة إلا أنها تقل بعض الأحيان، وبعضها أجاج فيحتاط الناس بأخذ الماء الطيب. ثم مررنا ذلك اليوم بماء يقال له العويجة، وبتنا بإزاء ماء آخر يقال له الشقة، وماؤها قبيح آجن ذو حمأة. ومن أمثال الحجاج : مائة دكه ولا شربة من الشكة .

ثم ارتحلنا منه ومررنا بمزارع لأولاد سيدى ناصر، ووجدنا غدراناً فى الطريق. وأولاد سيدى ناصر فقراء مرابطون من أهل سرت، يطعمون من ورد عليهم، ومعهم طرف من الديانة إلا أنهم أضر بهم جور الأعراب، لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة، فقلما يسلم لهم وقت من غارة إما من هؤلاء أو من هؤلاء. غير أنهم الآن مستظلين بظلال أسمال من العافية لما ولى عبد الرحمن الجبالى الملقب بسيدى روحه على البلاد، وقهر الأعراب، وقويت شكيمته على أهل البادية، فأمنت [1] السبل بعض الأمان، فرجع فقراء الأعراب إلى بلادهم [*]وعمرت البلاد بعض العمران، وتلك سنة الله فى البلاد والعباد. إن الولاة وإن جاروا خير من مرج [2] الرعية، يعدو [3] بعضهم على بعض فيعم الخراب الحواضر والبوادى؛ وبهذا السبب خلت أرض برقة كلها، وهى مسافة شهرين، وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية، لا تكاد تسير فيها بريداً ليس فيها أثر بناء ورسوم عمارة دابرة. وقد جاء الإسلام وغالبها عامر، ثم لم تزل

---

(١) ط : أمنته.
(٢) ط : فرج .
(*) ورقة ٨٠ وجه .
(٣) ط : ويعدوا.

عمارتها تضعف إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة وأولائل الخامسة فخربوا البلاد، واستولوا على القرى فأفسدوها، وخلت البلاد من يومئذ. ثم مررنا فى يومنا بساقية مقابل اليهودية، جمرت فى ذلك الوقت. وبتنا فى ساقية أخرى وغدير . واليهودية قرى كثيرة متقاربة، فيها آثار بناء خال متراكم، يدل على أنها كانت عمارة كثيرة. واشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت مليكتها يهودية، فى عسكرها كذا وكذا من الخيل.

قلت : وفى الرسالة القشيرية عن بعض الفقهاء أنه قال : دخلت مدينة اليهودية بأرض المغرب، وساق الحكاية .. إلخ. ولعل تلك المدينة هى هذه، إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية – والله أعلم بحقيقة ذلك.

ثم ارتحلنا غدا ومررنا بقصير العطيش، وبماء يقال له الكحيلة، وبتنا وراءه. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا آخر النهار بماء يقال له أم الغرانيق، إلا أنه لايكاد يساغ، فلا فرق بينه وبين ماء البحر إلا اللون والرائحة. وبتنا أمامه فى سبخة مقطع الكبريت لأن فى أعلا السبخة معدن الكبريت فى آبار كثيرة يحمل منها كالطين، ومن هنالك يحمل إلى طرابلس ، وكذلك إلى مصر والإسكندرية(*)، ويذهب منه مع الركب إلى مصر فى كل سنة أحمال كثيرة، لأن العرب الذين [1] يحملون الكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج إذا رجعوا حملوا على مافضل من إبلهم عن الكراء كبريتاً. ويتقدمون أمام الركب بيوم إذا شارف هذا المحل، ثم يلحقون الركب فى المنعم. وقد أصابتنا فى يوم نزولنا بهذه السبخة ريح عاصفة حمراء قوية جداً، أسقطت كثيراً من الأخبية، دامت إلى الصباح. ولم نوقد نحن ولا كثير من أهل الركب فى تلك الليلة ناراً، ولاطبخت عشاء من قوة الريح؛ وعصبنا الأخبية بالحبال فما أغنى ذلك.

(*) ورقة ٨٠ ظهر .

(١) ط : الدين.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بالمنعم وهو أحساء بساحل البحر ماؤها طيب، عليها كثبان رمل ينزل الناس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها، وقلما يخلو من عمارة الأعراب. وقد وجدنا على هذا الماء عرباً من أهل سرت، وأميرهم بومغاث[١]، وهم يزعمون أن لهم عادة على الحجاج، يعطونهم إذا مروا بهم فرساً لشيخهم. وأن ذلك عادتهم من جدهم سحيم، ولكن الله أضعفهم ودمرهم فلا يستعطيون تعريضاً للركب. وقد سرقوا جملاً من الركب فأخذ[٢] الحجاج جملاً لهم حتى أتوا به. وقد أخبرنا شيخهم بومغاث أن سبب هذه العادة التى يزعمون على الحجاج، أن ركباً لأهل تونس مر بهم وضاع لهم حمل فيه قيمة ألف ريال. قال فوجده الشيخ سحيم بعدهم وأدخله فى بيت من قصور سرت، ولم يحله حتى رجع الركب فأخرجه لهم، فوجدوه لم يضع منه شئ. ومن ذلك التزموا له أنه كلما قدم ركب من تونس جاؤوه بفرس. فقلنا له لسنا نحن من أهل تونس فلا عادة لكم علينا، وكفانا الله شرهم بضعفهم، وقهر الجبالى[٣] لهم، فلا يرفعون يدا ولا يجيبون ندا .

ثم ارتحلنا من هناك (*) وتيامنا عن البحر قليلاً، وبتنا ليلتين فى الطريق، وفى الثالثة جئنا إلى الجابية[٤]، وفارقنا البحر من المنعم، فلا تجتمع طريقنا[٥] معه إلى التميمى. وفى هذه الجابية آثار عمارة كثيرة، وآبار عظيمة منقورة فى الحجر، وبنيان هائل بالحجر المنحوت[٦]. وهناك رسم مسجد قديم تهدم، ووجدنا فى بعض حجارته تاريخ بنيانه[٧] منقوشا[٨] : ثلاثمائة [٩١٢ م] .

---

(١) ط : بومثات . والتصحيح مما يلى .

(٢) ط : فأخد .

(٣) ط : الجبال .

(*) ورقة ٨١ وجه .

(٤) ط : إجدابية (هكذا فى الهامش) .

(٥) ط : طريقتنا.

(٦) ط : المنحوث.

(٧) ط : بنتانه.

(٨) ط : منقوش .

لطيفة : قد أخبرنى شيخنا سيدى محمد بن مساهل [١] عن بعض المشايخ أن الإمام سحنوناً كان مدرساً بهذا المسجد ثلاث سنين. وهذه المدينة هى مدينة برقة المذكورة فى كتب الفقه. وقيل إنها مدينة بالجبل الأخضر فى الجانب البحرى. وقد أخبرنى صاحبنا سيدى عبد الله بن غلبون أنه رآها، وأن رسومها تدل على عمارة قوية، وبها أثر سور وأبراج ورخام كثير. وقال لى إن بها قبراً مشهوراً يزار، ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبى. فقلت له : الغالب إنه قبر صحابى، فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت بن السكت الأنصارى النجارى من الصحابة قد توفى ببرقة، وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد؛ وقتل ببرقة أيضاً من الصحابة زهير بن قيس البلوى، ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة، فلقى الروم، فقاتل حتى قتل [٢]؛ وماذاك إلا قبر أحدهما. فإن كثيراً من العوام يطلقون اسم النبى على الصحابى، وقد شاهدنا كثيراً منهم يعتقد فى أبى بكر وعمر وعلى أنهم أنبياء، ويظن أن اسم النبى والصحابى مترادفان. فلما أخبرته بذلك فرح، وقال لى ليس الأمر إلا [٣] كما ذكرت. ولما رجعنا من الحجاز سنة ٧٤ [١٠] [٤ - ١٦٦٣م] لقيته ببلدة مسراتة، وقال لى(*) : إنى قد ذهبت بعدك إلى المكان المذكور ، وتأملت القبر وعليه كتابة وامارات ربما تدل [٤] على صحة ماذكرت. قال لى : وذكرت كلامك لبعض الأمراء فى درنة [٥] ففرح بذلك ، وأمر بالبناء على القبر والتنويه به [٦] - والله لا يضيع أجر المحسنين، أو أجر من أحسن عملا، ونية المؤمن أبلغ من

---

(١) ط : امساهل.

(٢) ط : قوتل.

(٣) « إلا » ناقصة فى ط .

(*) ورقة ٨١ ظهر .

(٤) ط : يدل.

(٥) ط : دونه .

(٦) ط : بها.

عمله. فإن صح أن هذا القبر قبر الصحابى المذكور فتلك [1] المدينة، هى مدينة برقة المشهورة، لا الجابية [2]. والأمر فى ذلك قريب، فإن بين المدينتين نحواً [3] من خمسة أيام، فكلاهما يصح أن يقال بينها وبين كل من مصر وإفريقية شهر [4]، إذ بذلك يعرفها الفقهاء. إلا أن التى فى الجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بإزائها من المياه، والأماكن المخصبة، والمزارع الكثيرة، والغياض الملتفة من أنواع الأشجار بخلاف الجابية، فإنها فى صحراء من الأرض مقفرة - والله أعلم بغيبه.

ومسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هى مسيرة ستة أيام، من المنعم إلى سلوك، وفيها رسم أبنية كثيرة. وإطلاق برقة على ماسواها مجاز، علاقته المجاورة؛ وهذا مما يقوى أن مدينة برقة هى الجابية. وبإزاء المسجد الذى بها قبر محوّط عليه بالحجارة، يزار، يقال لصاحبه سيدى يونس. وهو من عرب الفواخر. وقد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوقدوا عليه شمعاً كثيراً، وبقيت منه بقية، فأردنا أخذها للحاجة إليها، ثم توقفت فى ذلك. وبعد ذلك ظهر جواز أخذه، فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه. ثم ارتحلنا من الجابية وفى آخر ذلك اليوم تعاهد بعض الإبل داؤها القديم من النفور [5] والجفول عند قرب المنزل، ولطف الله العباد.

ثم ارتحلنا من هناك(*) ومررنا بماجل كبير فيه بقية من ماء المطر، وبتنا على قرارة فيها ماء كثير غادرته [6] الأمطار. ثم ارتحلنا منها ونزلنا على سلوك ضحى، وهو آبار متعددة كآبار الجابية فى صفاتها ومائها. وبإزائها أيضاً رسوم بناء

(١) ط : بتلك .
(٢) انظر أسفله السطر ٥ ، وقارن ، ص ٨٢ هـ ٤ .
(٣) ط : نحو .
(٤) ط : شهرا .
(٥) ط : النيور .
(*) ورقة ٨٢ وجه .
(٦) ط : وغادرته.

إلا أنها قليلة بالنسبة إلى الجابية، وماؤها يقل فى أيام الحر. وقد مررنا عليها سنة ٥٩ [١٠هـ] = [١٦٤٩م] فى جمارة القيظ فلم نكد نروى منها إلا بعد عناء شديد وإقامة يوم وليلة أو ليلتين. وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقة كما مر، وتسمى برقة الحمراء، وهو بمرأى من الجبل الأخضر. ووجدنا عليها سواداً من العرب ينتظرون السوق مع الركب، وبتنا به ليلة. ومن هناك فارقنا من رافقنا من الأعراب القاصدين لمرسى ابن غازى.

وهى مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر، بينها وبين سلوك مسافة يوم، وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس. وفى تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر الذى لا أخصب منه ولا أكثر إداماً فيما رأينا من البلاد [١]. وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائها من البلدان. ومن هذا الجبل غالب [٢] إدامهم ولحمانهم. وقد دخلنا طرفاً من هذا الجبل سنة ٥٩ [١٠هـ] [١٦٤٩م] من شدة الحر، وتسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب، من السمن والغنم والإبل. ولم نعهد مثل ذلك فى بلد من البلدان، ولا رأينا أرخص منه سعراً ولا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله. يؤخذ منهم زهاء القنطار من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض أو غير ذلك من الحوائج، ولا يعرفون للدرهم قدراً. وكانوا إذ ذاك كنعمهم غفلاً، إذ لم يدخل التجار(*) بلادهم ولا صادرتهم العمال عن أموالهم، إذ لا حكم للعمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها فى بعض الأحيان لصاحب أوجلة[٣]. وأما صاحب طرابلس فلم يكن له إذ ذاك عليهم حكم. وأما الآن فهم تحت إيالته، وفى أسر طاعته يؤدون الخراج. ويدخل التجار من أهل طرابلس ومسراتة بلادهم لشراء

---

(١) ط : البلد.
(٢) ط : غالباً .
(*) ورقة ٨٢ ظهر .
(٣) ط : أجلة.

الإبل والبقر والغنم والصوف والأدم، فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء ومقاديرها، وعرفوا الدرهم والدينار، وأما قبل ذلك فكانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

غريبة : عرب هذا الجبل من أشد العرب كفراً ونفاقاً، لايعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، ليس عندهم من الدين إلا اسمه. لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة[1]، قل ما مر بهم ركب سلم من إنشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وقتلهم عند اشتغال الناس بالسوق بينهم؛ وقد وقع ذلك لنا معهم مراراً. وأغرب من ذلك أنهم لايعرفون السرقة، فيحترس الناس منهم نهاراً خشية النهب والغارة، وبالليل يبيت الناس رقوداً مطمئنين، ولا تسرق لهم حاجة. وماذلك - والله أعلم - إلا لانقطاعهم عن العمران وتوحشهم، والسرقة في الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران، وتجتمع أجناس من الناس، وتعمر أسواق، ويوجد بيع وشراء. وأما هؤلاء فأعداؤهم بعيد منهم إلا على الغارة، المرة بعد المرة، وفيما بينهم يأمن بعضهم بعضاً، فألفوا ذلك.

ونوادر هذا الجبل في رخاء الإدام، وغفلة أهله عن قيمته، وكثرة خصبهم، وبيعهم لبناتهم وإخواتهم وغير ذلك أشهر من أن تذكر. وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحريه وسبعة[2] أيام من الناحية الأخرى. وأكثر شجر الناحية التي مررنا بها (*) العرعار حتى أنه من شدة اشتباكه والتفافه لاينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعاب مسلوكة، ومن خالفها توعر وانتشب في الغياض [3] بحيث لايخلص إلا بمشقة سيما إن كان معه دابة. ومن كثرة غاب هذا الجبل لايوجد فيه الأسد، والحجاج يزعمون أن سيدي محمد الصالح دعا عليه فجلاه الله من

---

(1) ط : الغار.
(2) ط : سبعة.
(*) ورقة ٨٣ وجه.
(3) ط : العياض.

هذا البلد لئلا يؤذى صعاليك الحجاج؛ وذلك إن صح غيض من فيض فيها لأولياء الله والكرامات.

غريبة : ومما شاهدناه فى عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر وحمل الهوادج عليها، وإناختها عند الركب والنزول مثل الإبل بغير مشقة عليها ولا عليهم فى الإناخة، لاعتياد الكل ذلك، ولله فى أرضه عجائب وفى طبائع الحيوانات غرائب. وكذلك الغنم لايسوقها إنما يسير صاحبها أمامها قلّت أو كثرت، وهى تتبعه فإذا أمهل فى السير أمهلت، وإذا أسرع أسرعت ، وإذا جرى جرت. ويأتى أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه مثل الكلب المُعلّم.

ثم ارتحلنا من سلوك [1] ، وتنكبنا طريق الجبل لوعرها وسوء خلق أهلها، وتلصصهم على [2] الحجاج. وسلكنا طريق الصروان عن يمين الجبل، وهى مسافة سبعة أيام، لا ماء فيها إلا ما غادرته الأمطار فى قيعان الأرض، ولكن بفضل الله ما مرّ علينا مسافة يوم إلا وجدنا من الماء قدراً لكفاية. ثم طلعنا إلى سفح الجبل وبتنا هناك. ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا ضحى بماء يقال له خطاطيف، غدير كبير، واستقينا منه؛ وبتنا بموضع يقال له الخروبة، وفيه ماء. ثم ارتحلنا وجئنا إلى **وادى سمالوس** قبل العصر[*] ، ووجدنا فيه غديراً كبيراً، وبات الناس مبسوطين ناشطين، ونحن فى كل ذلك لم تخل ليلة من سوق مع أعراب الجبل يقدمون منه متعرضين للركب. ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحى بمياه كثيرة وربيع أُنُف[3] فى أودية منحدرة من الجبل، نالت منه الإبل فوق الحاجة. وسرنا يومنا إلى الليل، وعند نزولنا جاءت قافلة تحمل تمراً كثيراً، قدموا به من سيوَى يريدون بيعه. وصادفوا حاجة الناس إليه، وأخذ الحجاج منه كفايتهم لصوم

---

(١) ط : السلوك .
(٢) ط : عن .
(*) ورقة ٨٣ ظهر .
(٣) ط : آنفة.

رمضان بأرخص سعر، وذلك فضل من الله ونعمة، والله ذو فضل عظيم. وتمر سيوى[1] من أحسن التمار لم نر من يوم خروجنا من تافلالت تمراً يشابه تمرها إلا هذا، لوناً وطعماً، وهذا أنظف[2] منه وأنقى لأن عادتهم أنهم لايحملونه[3] إلا فى قفاف من سعف[4]، تسع كل واحدة قريباً من نصف قنطار، ويجعلون لها معاليق تعلق بها على أقتاب الإبل، فيحمل الجمل منها عشراً أو أكثر أو أقل، على حسب صغرها أو كبرها، وقوة الإبل وضعفها؛ وتلك صنعة عجيبة، يبقى التمر على حاله نظيفاً، ولايحتاج مشتريه إلى غرائر للحملان، وليت أهل مغربنا يفعلون مثل ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك وجئنا ظهراً لقصر المخليف، ووجدنا فيه مياهاً كثيرة فى ماجل، ووجدنا فيه جابيتين متلاصقتين مبنيتين بحجارة مرصوصة[5] بناء موثقاً، وكل واحدة طولها نحو المائة ذراع فى مثلها. وقد تعرضنا لأفواه الشعاب، وجمعنا من الماء مانحتاج، وكاد أن يتفجر، وأخذ الناس منه حاجتهم وتوضؤا. وهذا القصر من أعظم القصور الخالية (*) التى بقيت [6] رسومها فى تلك البلاد، وفيه أثر مسجد ومئذنته [7] باقية إلى الآن، وليس فيه ماء حى. ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر فيه لكان فيه أعظم أجر لأنه فى محل بعيد من الماء من كل الجهات، وقل مايسلم الحجاج فى أيام الحر من شدة نفع لهم بسبب العطش فى ذلك المحل أو قريب منه. ثم تجاوزنا ذلك المحل ولم نبت إلى المغرب، واستهل لنا فى تلك الليلة، وهى ليلة الخميس، شهر رمضان المبارك [٢٠ ابريل

---

(١) ط : سوس ، وفى طبعة حجى ، « سوى » (ج ١١ ، ص ١٠٨) . .

(٢) ط : أنصف .

(٣) ط : يحملونهم .

(٤) ط : عزف .

(٥) ط : مبنيتان بحجرة المرصوصة.

(*) ورقة ٨٤ وجه .

(٦) ط : التى هى بقيت.

(٧) مأذنته .

١٦٦٢م]، وصامه من أراد صيامه، وأفطر من خاف أوامه [١]، وليس على كلا الفريقين ملامة.

ثم ارتحلنا غداً ونزلنا أمام الغريبات، وهى قرية خالية مشرفة على واد كبير، وفيها مآجل كثيرة. ثم ارتحلنا من هناك، ونزلنا قرب التميمى ضحى، ولم نصل إلى مورد التميمى لأن الله أغنى عن مائة الأجاج[٢] ببحار من الغدير فى أعلى[٣] الوادى، متصلة فى صخور منقورة، وبرك من صنعة الجبار، بالماء الحلو مغمورة. وبات الناس بها وجاءهم المتسوقون من درْنة بالطعام الكثير واللحم السمين.

ودرْنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى، بينها وبين التميمى مسافة يوم ونصف من غربيه. وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها الأندلس قرب الأربعين من الألف [١٥٣٣م]، ولم يزالوا بها إلى أن بطروا، فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس، فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل فيها مئون من أشرافهم. وهى الآن فى طاعته، وفيها عامله المستولى عليها، وعلى عرب الجبل، محمود. ومرسى هذه المدينة عجيبة، تنزل بها السفن الجائية من الإسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم، سيما جزيرة كندية[٤] فإن بينها وبين درنة مسافة [*] يوم فى البحر، لأنها فى مقابلتها. والمعاش فى هذه المدينة متيسر كثيراً لجمعها بين البادية والحاضرة. وهناك بلغنا خبر الوباء بأرض مصر والإسكندرية – نسأل الله أن يكفينا شره، وأن يرفع عن العباد ضره. ثم أقمنا بعد ذلك يوماً هناك، أزال الناس من أدرانهم واستوصوا [٥] فى أبدانهم – والله يبلغ على خير. وكنت أفطرت يوم

---

(١) ط : أرامه .
(٢) ط : اللجاج.
(٣) ط : أعلا .
(٤) ط : جزيرة كنوية وكندية هى جزيرة كريت : اسم العاصمة .
(*) ورقة ٨٤ ظهر.
(٥) ط : واستؤصوا.

ـمتنا ولامنى بعض الإخوان على ذلك، وقال ما حملك عليه إلا الشهوة. فقلت له ماقال بعض المشايخ : إذا وافق الحق الشهوة فذلك الزبد بالشهد. وقال إنك ممن يقتدى به، وإذا رآك الناس أفطروا، وأدى ذلك إلى هتك حرمة الشهر. فقلت: إن الله تعالى هو المحرم، ولم يجعل لهذا الشهر حرمة فى السفر، وحرمة الشهر – والحمد الله – معلومة بين المسلمين، لايزيلها إفطار مفطر ولايزيدها صوم صائم. ومن يقتدى به هو الذى ينبغى له الإفطار ، وإن لم يتضرر بالصوم لأن كثيراً من الناس يعتقدون حرمة الإفطار أو قبحه فيتحملون من ذلك مشقة عظيمة، حسبما شهدنا ذلك مراراً فى كثير من الأسفار المندوبة فضلاً عن المباحة. فإذا رأوا من يعتقدون فيه الخير سهل عليهم الإفطار، وعلموا إباحته دون ريبة[1] لمن شق عليه الصوم، واستدللت بغير هذا من الأدلة.

ثم ارتحلنا من هناك وتركنا منهل التميمى عن يسارنا إلى أن وردنا عين الغزالة ظهراً، وهى أعين من الماء العذب فيه بعض ملوحة، تصب فى بحيرة منقطعة عن البحر، يدور بها القصب من أكثر جهاتها. وليس فى برقة كلها [2] ماء يجرى إلا هذا. وتجاوزناها بأميال، وبتنا فى أرض طيبة كلها منقسمة[*] بتخوم الحرث، وآثار البناء متصلة[3] بأطرافها، وعن يمينها شعاب تنصب من الجبل، وكأنها كانت مجارى السيل، ويقسمه أهل تلك الأرض على مزارعهم.

غريبة : وفى الغد منه مررنا عن يسار الطريق ببيت منحوت فى الحجر الصلد، طوله عشرون [4] ذراعاً فى مثلها، وبداخله بيت آخر نحو نصفه، وفيه

---

(١) ط : واو ريبة .

(٢) ط : كله .

(*) ورقة ٨٥ وجه .

(٣) ط : متصل .

(٤) ط : عشرين .

غرف صغار كأنها مخازن، وكل ذلك منقور فى الحجر الصلد نقراً عجيباً مربعاً كهيئة أحسن [1] ما أنت راء من البيوت. وبابه [2] مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حجرة صغيرة واسعة منقورة فى الحجر أيضاً. فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها وتدبرنا قوله تعالى : وتنحتون من الجبال بيوتاً [3]. وقد ذكر العبدرى هذا البيت وأجاد وصفه.

ثم سرنا يومنا ذلك، وعدلنا عن طريق دفنة يميناً وبتنا بموضع يقال له المدور فيه مآجل كثيرة مملوءة بماء المطر. ثم ارتحلنا منه وبتنا مقابل دفنة، وهى منهل على ساحل البحر يمر عليه الحاج بالصيف، وعند قلة الأمطار. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بموضع يقال العريض، وفيه مآجل ومزارع محروثة، وطلعنا لسطح العقبة، وبتنا به. ثم ارتحلنا منه وسرنا فى سطح العقبة وهى أرض مستوية لا عَلَم فيها إلا آثار الأبنية القديمة، وبعض آثار المزارع. ونزلنا بفم العقبة الكبرى، وفى سطح العقبة قبر يزار، يقال لصاحبه سيدى عزير، وهو من عرب سمالوس، يأتيه الأعراب بإبلهم وغنمهم فيمرون بها بين كرمين هناك، ويزعمون أن من مر بها هناك لا تصيبها آفة فى تلك السنة، ويقتدى بهم بعض الحجاج فى ذلك[*].

لطيفة : أرض برقة منقسمة فى عرف أهلها على أقسام : أولها من حسان إلى وراء الأحمد بيومين يسمى سرت؛ ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء؛ ومن هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء؛ ومنه إلى التميمى يسمى الجبل الأخضر؛ ومنه إلى العقبة يسمى البطنان؛ ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى

---

(1) ط : كهيئة ما أحسن .
(2) ط : باب .
(3) قرآن كريم : سورة الشعراء : آية ١٤٩ .
(*) هـ ورقة ٨٥ ظهر .

يسمى بين الأعقاب؛ ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى.

وقد ذكر العبدرى تقسيماً غير هذا جارياً[1] على اصطلاح أهل زمانه. ثم ارتحلنا من فم العقبة وانحدرنا منها فى منحدر[2] صعب، مشرف على البحر، ثم نزلنا ذلك اليوم بماء يقال له بقبق، وهى أحساء كثيرة فى رملة بيضاء فى سفح كثيب من الرمل الأبيض، يظهر من بعيد كأنه ثلج.

غريبة : مررنا بهذا المحل سنة ٦٤ [١٠هـ] [١٦٥٣م]، فوجدنا فيه سفينة لنصرانى[3] قد حرثت فى ذلك المحل، وهو محل صعب على السفن يسمى جون العقبة، قلما تدخل فيه سفينة وتسلم. وبعد أن تجاوزنا ذلك المحل لحقنا النصرانى من أهلها، وتزيا بزى المسلمين، وكان يحسن العربية، فقال إنى من أهل إفريقية جئت فى هذه السفينة التى حرثت وهى للمسلمين. وبقى معنا فى الركب يحسن إلى الناس بالطعام والشراب حتى وصلنا الإسكندرية، ودخل إلى سفن النصارى؛ ولم يتفطن له أحد أنه نصرانى حتى وصل إليهم. وبقيت سفينتهم فى ذلك المحل إلى أن أدركنا رسومها فى هذه السنة.

ثم ارتحلنا من بقبق، ونزلنا مقابلة ماء يقال له القتيل. وفى الغد نزلنا على ماء يقال له شماسى؛ وقريب منه (*) آخر يقال له الفوّار. وهاتان المرحلتان كلتاهما فيهما أثر الأبنية المتصلة جداً حتى لايكاد يخلو[4] ميل واحد من البناء – والبقاء لله وحده.

---

(١) ط : جار.

(٢) ط : انخدرنا – منخدر.

(٣) ط : للنصرانى.

(*) ورقة ٨٦ وجه.

(٤) ط : يخل.

ثم ارتحلنا منه، ومررنا بماء آخر بقربه، طيب، يقال له الضبع؛ وفوقه غدير كبير في أصل جبل صغير قلما يخلو من ماء الغدير؛ ومنه[1] نزلنا إلى موضع يقال له قبر العاصي، فيه قبور معلمة بأحجار وخشب. ثم ارتحلنا منه، ومررنا بماء يقال له العبدية، وهي بئر كبيرة مطوية[2] بحجر في سفح الجبل، يُنزل إلى البسيط الذي فيه، في منحدر صعب كان أحق باسم العقبة الصغيرة من المكان المسمى به، إلا أن العقبة لما كانت في حدب ذاهب في البر يميناً لا غنى لأحد عن المرور به اشتهر اسمها، وهذا إنما هو على شفير البحر لايمر به إلا من سلك ساحل البحر. وبإزاء العبدية ماء آخر يقال له مطريح مصغراً[3]، وهو آبار متعددة قريب ماؤها في بسيط من الأرض ذي قطف كثير، يشرف على ذلك البسيط حاجب شبه[4] جبل صغير فيه بيت منحوت في الحجر شبه الذي ذكرنا في البطنان إلا أن هذا أصغر منه. وبعده ماء آخر يقال له مطروح مكبراً، وفيه كان نزولنا ظهراً. وسقى الناس إبلهم، وكانت قبل ذلك لاتشرب لكثرة العشب الرطب. والإبل إذا وجدت الكلأ الرطب لا تشرب ولو أقامت ماعسى. وما أذكر أن إبلنا شربت الماء الحي من قبل دخولنا إلى طرابلس حتى وصلنا هذا. وأغرب من هذا أنا عددنا للإبل سنة ٦٥ [١٠هـ] [١٦٥٤م] من يوم دخولنا مصر آيبين إلى أن خرجنا لبرقة وبلغنا (*) الجابية تسعين يوماً لم تشرب ماء حتى قرّب الصيف، ويبس العشب وصار هشيماً. وكذلك هذه السنة لم نر[5] شدة الحر والجدب[6] في الأرض إلى هذا المكان؛ وأما قبل ذلك فقلما يخلو لنا يوم من ماء

---

(١) ط : وما .

(٢) ط : كبير مطوى .

(٣) ط : يطريح مصغر.

(٤) ط : صاحب شبه .

(*) ورقة ٨٦ ظهر .

(٥) ط : نرى .

(٦) ط : الجذب .

المطر وكلأ فوق الحاجة. وقدمت معنا غنم كثيرة من الجبل الأخضر، جلبها التجار إلى مصر فما كانت غنمهم تجوع ولاتعطش، وأنعم الله على الحجاج بمرافقتهم، لاتخلو[1] لهم ليلة من شراء اللحم بأرخص ثمن، سيما التى أصابها الحفا أو كلت عن المشى لسمنها، فيشترى ذلك بثمن بخس.

وبرقة فى هذه السنة قد أنعم الله على وفده فيها، دخلوها فى فصل الربيع فصادفوا ماء ومرعى، وقلما تخلو لهم ليلة من لحم وسوق، إما مع عرب يصادفونهم، وإما مع المنتجعين معهم أو التجار الذين انضافوا إليهم، إذ لايقدرون على المشى وحدهم فهم يتحينون قدوم الحاج حتى يذهبوا فى خفارته – ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون[2]. ولما اشتد الحر كانت الغنم لاتقدر على المشى قائلة، فيسوقها أصحابها آخر الليل، فإذا اشتد الحر قالوا بها حتى يلحقهم الركب عند هبوب الرياح وبرد الهواء، فيسيرون معه إلى المنزل. ولما قربنا من العمران، وتخوفوا أن يذهبوا وحدهم أكتروا جماعة من الحجاج نحو العشرة يذهبون معهم بمكاحلهم آخر الليل ويتقدمون، فأعطوهم شاة لكل واحد. فزعم بعض الناس أن ذلك لايجوز، وأنه ثمن الجاه، وخالفته فى ذلك، وقلت، إنما هذا كراؤهم فى تقدمهم معهم وحملهم السلاح معهم خشية أن يقتطعهم أحد قبل وصول الركب. والجاه إنما هو للركب لا لهؤلاء الجماعة (*) المتقدمين، إذ لو لقيهم أحد لم ينفعهم جاه الركب وهم غائبون عنه إلا أن يقاتل عليهم من معهم من الرماة[3].

وقد أفتى الإمام ابن عرفة، بعض مرابطى إفريقية، ممن كان يذهب مع القوافل بجواز أخذ الجعالة منهم، وقال : إن ذلك عوض[4] عما[5] كان يعطله

---

(١) ط : تخلوا .

(٢) ط : قرآن كريم : سورة المنافقون ، آية ٨ .

(*) ورقة ٨٧ وجه .

(٣) ط : الرمات .

(٤) عوضا .

(٥) عن ما .

من منافعه أيام ذهابه معهم وأجرة على خطاه ومشيه، لا على جاهه؛ كما نص على ذلك غير واحد من أصحابه، فهؤلاء أجدر بالجواز من ذلك.

ثم ارتحلنا من مطروح، ونزلنا دون ماء يقال له المدار. وبالغد وجدنا دونه غديراً في رؤوس الشعاب أخذنا منه حاجتنا؛ ولم نمر بالمدار، ونزلنا العقبة الصغيرة آخر ذلك اليوم. وبتنا على ساقية هنا بعيد ماؤها لم ينتفع منها بشئ إلا من وصل الحبال بالحبال، واستعمل فى جذبها يديه معاً على التوالى. وفى الغد ارتحلنا ونزلنا على ماء يقال له جميمة، وهى أحساء كثيرة فى رملة بيضاء، قريب ماؤها طيب، طعمه من أحسن المياه. وأقام الناس بها يوماً لسقى الماء وشربة الإبل، وبات الحجاج ليلتهم وظلوا يومهم يخوضون فى أمر الوباء لما تحققوه فى الاسكندرية وما بإزائها، وفى البحيرة ورشيد. وتحير الناس فى أمره فمن بين شديد الفزع مظهر الهلع، يقول نعطف من هنا يميناً إلى أوجلة، ونقيم فيها حتى يذهب الوباء ولو فاتنا الحج ونحج من قابل، وبئس ما رأى؛ ومن قوى القلب معتمد على الرب يقول : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فيلتوكل المؤمنون[1]. فنحن بين إحدى الحسنيين : إما السلامة وحجة مبرورة، أو الشهادة ورحمة (*) منشورة؛ لأننا مضطرون إلى الدخول بقصد الاجتياز لا بقصد الإقامة، ولا طريق لنا إلا من هناك. والإقامة وإن قوى عليها البعض فالجل لايقوون[2]، ومال أكثر الناس مع صاحب هذا القول. وفى أثناء ذلك أنشأت هذه الأبيات متوسلاً إلى الله بأحب مايتوسل به إليه أن يكفينا كل ماتبقى من الشرور، خصوصاً هذا الأمر المذكور - وتقبل الله دعاءنا وكفانا شر ما أمامنا وما وراءنا، وتلك سنته، فمن التجأ إليه ولم يجعل معوله - إلا عليه . نسأل

---

(١) قرآن كريم : سورة التوبة ، آية ٥١ . (*) ورقة ٨٧ ظهر .

(٢) ط : لا يقومون .

الله سبحانه وتعالى، كما جعل بيننا وبين هذا الأمر أقوى جُنّة أن يكفينا كل هول دون الجنة، بجاه من توسلنا به إليه فى هذه الأبيات؛ وإنما الأعمال بالنيات.

وإنى لأرجو [1] من كرم الله تعالى كما تقبل توسلنا، وبلغنا فيما طلبنا منه سؤلنا، وأظهر صدق إجابة دعوتنا فى أنفسنا وأهلينا وأحبتنا، وأعطى من حضر معنا منهم ومن غاب أحسن ما تأمل من المنح والرغاب، فكذلك يمن بجوده وإحسانه وعميم امتنانه بإجابة دعوتنا، وقبول رغبتنا فى دفع عوارض الوقت المودية[2] - لولا خفى لطفه - إلى عظيم المقت، وتبديل أنواع الشرور بأصناف السرور، ويرد كيد من كاد المسلمين فى نحره، ويغرقه بسوء تدبيره فى لج بحره، وينشر عافيته الدينية والدنيوية بين العباد، ويعم بالأمن والبركة كل[3] البلاد، ويعلى منار السنة والجماعة، ويخمد نيران البدعة المشاعة، وينزلنا بما تولى به الصالحين من عباده، متوسلين إليه بمن[4] ذكر فى هذه الأبيات من أهل وداده.

وها هنا أى وها أنا أمد يدى قائلاً : ما من لا يخيب سائلاً ولا يمنع نائلاً [*]يامن أمّلته راجياً وناديته مناجياً :

١ - يا حـــى ياقيـــوم ياذا الجـلال	صــــل على محـــمد ذى الجمـال
٢ - سلــم علـــيه وارض عـــن آله	وصحبـــه أفـــضل صحـــب وآل
٣ - واغـــفر لهـــذا العبـــد أوزاره	وزكـــه فــى حـــاله والمـــآل
٤ - وكن لـــه عوناً [5]على دهــــره	وحُطْـــه [6] فى ديـــن ودنيـــا ومـال

(١) ط : لا أرجو .

(٢) ط : المؤذية .

(٣) ط : كلا .

(٤) ط : ممن .

(*) ورقة ٨٨ وجه .

(٥) ط : وحطة .

(٦) ط : عون .

٥ - وبلـــغ المأمــول مــن حجــة　　وجــورة بهـــا المـــرام ينــــال

٦ - ويــــسر الأوبـــة للأهـــل في　　عـــافية ليــس لهـــا مـــن زوال

٧ - وكـن لنـــا ولهـــم أبـــدا　　حـــال إقامـــة وحـــال ارتحال[1]

٨ - واجمـع بفــضل منــك مابيننا　　وبين من نهــدى عــلى خير حـال

٩ - بالمصطــفى والرســل طرا ومـن　　أحبيـــته من النــسا[2] والرجــــال

١٠- إنـــا رجـــوناك لنــيل المـنا　　ودفــع مـــا قـــد يتقــى من وبـال

١١- لاسيمـــا هـــذا الوبـاء الـذى　　أمامنـــا عجـــل لنـــا بانتـــقال

١٢- وطـهر الأرض بفضـلك مـــن　　رجس[3] يذيق الخلـــق من النكـال

١٣- فطـــعنه قد فـــاق طعن القـنا　　والضـــرب بالسيـــف وزرق النصـــال

١٤- لكـــنه لمـــا لجأنـــــا إلـى　　سيدنـــا فهـــو ســـريع الـــزوال

١٥- يارب بالأسمــــاء بالـــذات بالا　　مـــلاك بالرســـل بأهل الكمـــال

١٦- بكـــل ما أنـــزلت من كـتب　　بكـــل ما أودعتـــها من مقـــال

١٧- باللـــوح بالقلـم بالعرش بالـ　　كرسى بالســـر بحجـــب الجـــلال

١٨- يارب بالمختـــار خـــير الورى　　محمـــــد قبـــلة أهـــل الوصـال

١٩- بالصحـــب والآل وأزواجـــه　　بتابعهـــم بحـــسن الفـــــعال

٢٠- بالعلـــماء العـــاملين بمـــن　　هـــذبت طرا من ذمـــيم الخـــلال

[*]٢١- من ســـالك أو عابد زاهــد　　أو ورع أو عـــارف ذى اتصـــــال

٢٢- مثل أويــــس القـــرني ومـــن　　يمشـــى على منهجـــه باعتـــدال

٢٣- مثل الجنيـد وأشياخه[4] وصحبه　　ومـــن لـــهم خــــير تـــــال

(١) ط : وارتحال .

(٢) ط : النساء .

(٣) ط : رجز .

(*) ورقة ٨٨ ظهر .

(٤) ومشايخه .

٢٤- في الحمد والشكر وصدق الرضى ... والحلم والضر وأكـل الحـلال
٢٥- كالشيـخ عبد القادر المرتضـى ... الجيلنى[1] القطـب يـوم النزال
٢٦- وكالإمـام الشـاذلى الـذى ... دعـا إلى الله بغـير اعتـلال
٢٧- بكل أصحابهـما من مضـى ... منهـم ومـن يأتى بغير انفصال
٢٨- بالبدوى بالدسـوقى[2] بمـن ... في السـهل منـهم أو رؤوس الجبال
٢٩- بالحاتمىّ بالرفاعـى بمـن ... في الشرق والغرب عـديم المثـال
٣٠- بقطب ذى الوقـت بأوتـاده ... بالغـوث والابـدال أهل النـوال
٣١- سكن وأمـن روعة الـناس من ... هـذا الوبـاء شـديد المحـال
٣٢- كـم كربـة فرجتـها عنهمُ ... وقـد غـدا تفريجـها كالمحـال
٣٣- ياربـنا حُطْـنا وكـن معـنا ... عـن اليمـين أبـداً والشمـال
٣٤- وارحم جميع الخلق وارأف بهـم ... فـلا تـذق وفـدك أدنى الوبـال
٣٥- وقـد تـبرأنا إلى ربنـا ... مـن كـل حـول عندنا واحتيـال
٣٦- علـيك يارب اعتمـادى فـلا ... أرجـو[3] سـواك وعليك التكـال
٣٧- فالشكـر للـه على فضـله ... والحمـد للـه علـى كل حـال
٣٨- ثم الصـلاة والسـلام علـى ... محمـد خـير كـلام يقـال
٣٩- فذلك الحصـن الحصين الذى ... بـه عثـار المذنبـين تقـال
٤٠- من حلّه قد احتـمى بحـمى ... رب كـريم منعـم متـعال

ثم ارتحلنا من جميمة، وفى الغد أتى الناس إلى ماء يقال له العميديين ، وهى آبار فى صخر بساحل البحر، قد غطى الرمل كثيراً منها وعليها (*) حصار

---

(١) ط : الجيلى . (٢) ط : بالدسقِ.
(٣) أرجوا . (*) ورقة ٨٩ وجه .

مبنى بناء محكماً فى غاية الاتقان كهيئة أبراج الإسكندرية إلا أنه قد انهد منه جانب . ولقينا عليه أعراب كثيرة معهم حاكم عرب البحيرة. وأخبرونا عن الإسكندرية أن الوباء قد خف فيها، وأن البحيرة قد كثر فيها، وأن مصر - بفضل الله وستره - سالمة منه. وتقوى عزم الناس على أن يتنكبوا [(١)] الإسكندرية ويتركوها يساراً، ويذهبوا إلى مصر. وذهب إلى الإسكندرية طائفة قليلة من الناس ممن لهم بها أهل أو بضائع. وكتبت من هناك كتاب سلام واستغاثة إلى القطب العارف بالله، المجمع على ولايته واستقامته، الشيخ أبى العباس المرسى، من جملة قصيدة توسلت فيها إلى الله بجاهه أن يذهب عنا كل بأس، ويكفينا شر الوباء. وبعثتها مع بعض أصحابنا من سكان الإسكندرية، وأمرته أن يقرأها أمام وجهه الشريف، ثم يلصقها فى الحائط يمين المحراب، فإن هناك لى أيضاً قصيدة ملصقة كتبتها سنة ٦٤ [١٠٦٤هـ] [١٦٥٤م]. وسيأتى ذكرها عند ذكرنا لدخولنا الإسكندرية فى الإياب إنشاء الله. ولنذكر هنا هذه القصيدة :

١ - ملاذى إذ ضاقت بكرتها نفسى ... وغوثى أبو [(٢)] العباس سيدنا المرسى

٢ - رئيس ذوى [(٣)] العرفان فى كل بلدة ... ووارث علم الشاذلى بلا لبس

٣ - محبته ذخرى [(٤)] لكل ملمة ... وأمنى فى خوفى وفى وحشتى أنسى [(٥)]

٤ - فمن صح من أهل السلوك انتسابه ... إليه أيخشى صولة الجن والانس

٥ - وانى من حبى له متطفل ... عليه وماتابعت منهجه القدسى [(٦)]

٦ - عساه بفضل الله يجذبنى إلى ... هداه ويحمين من الرجس والوكس [(٧)]

---

(١) ط : ينكبوا .

(٢) ط : أبى .

(٣) ط : ذى .

(٤) ط : ذخرى .

(٥) ط : أنسى .

(٦) ط : القدس .

(٧) : الرجز والوجس .

٧(*) – لقد حاز فخرا دان من بعده لـه وناهيك من فضل له بان للحس(١)

٨ – تفرّس فيه شيخه وهو صادق تفرّس قد صادق الظن والحدس

٩– فقال أبو العباس لو جاء امرء يبول على ساقيه فى غاية النجس

١٠– لوصله لله فى لحظة وهل يخاف امرء بعد الوصل من النكس

١١– وقد قال فيه أنه الرجل الذى غدا كاملا بين الأئمة فى الجنس

١٢– فاكرم بها من قولة بلغت به إلى رتبة من دونها رتبة الشمس

١٣– لذلك التجأت نحوه وجعلته ملاذى وإن قصرت فى اليوم والأمس

١٤– وو بت وجهى نحوه فطريقه شددت عليها بالنواجز والضرس

١٥– فياسيدى إنى نويت زيارة وتمريغ وجهى فى ثرى ذلك الرمس

١٦– وذاك منايا لو ظفرت ببعضه فكان قضاء الله فى ذاك بالعكس

١٧– ونويت لما عاقنى عنك ماترى ثنائى مرقوماً على صفحة الطرس

١٨– هنيئا لمن قد زار قبرك سيدى وكان لأرض القبر بالوجه ذا لمس

١٩– رضيت بما يقضى به الله مذعنا وان شاقنى ما نالنى عنك من حبس

٢٠– فإنى لست من حماك بخارج وإن كنت فى أقصى المغارب ذا نحس

٢١– فكيف أراع بعد قرارك بالغدا من الناس طرا أو من الجن بالمس

٢٢– فأنت رئيس الأولياء فكن لنا بفضلك من شر الوبا أعظم الترس

٢٣– لتشفع لنا لله يذهب شر ما نخاف من الطاعون يصبح أو يمس

٢٤– ويبلغنا ما نرتجى من إقامة بطيبة بعد الحج والمشى للغرس

٢٥– ويرجعنا من بعد ذا لبلادنا بأعظم أجر دون نقص ولا وكس

٢٦– بجاه رسول الله أفضل من أتى من الله بالتوحيد والصوم والخمس

(*) ورقة ٨٩ ظهر .

(١) ط : الحس .

٢٧- عليه صلاة الله ثـــم ســـلامه   يكونان لى فى وحشتى غـاية الأنـس

ثم ارتحلنا من العميديين، وعدلنا عن طريق الإسكندرية يميناً فى أرض طيبة كثيرة آثار البناء جمّة المرعى [1] وظهرت لنا عن اليسار على ساحل البحر قرية أبو صير وصومعة مسجدها إلى الآن ماثلة فى الهواء، وهى خالية. وبتنا فى مقابلة الإسكندرية.

---

(١) فى ط : جنة الدعا .

رحلة العياشى

العودة من الإسكندرية عبر ليبيا

(*)ذكر خروجنا و (١) ارتحالنا من الإسكندرية متوجهين إلى المغرب فى كفالة الله ورسوله وحماية أوليائه (٢):

كان ارتحالنا من الإسكندرية يوم الجمعة ٢٢ ربيع الثانى(٣) [٢٤ نوف ـر] بعدما تزودنا واكترينا، وكانت رُفقتنا(٤) مع ركب المراكشيين، وقد أحسنوا بنا – فجزاهم الله خيراً. ورحل ركب الجزائر قبلنا بيوم، وتخلف عنهم هناك فقيههم سيدى يحيى الشاوى وكان معه أهله(٥)، فاستهول المشى فى البر، وشق عليه قطع مسافة برقة مع استقبال أيام الشتاء وشدة البرد، فاختار ركوب البحر؛ وكان ذلك لأمر أراده الله به، فإنه دخل إلى الإسكندرية بعد ارتحال الركب ينتظر سفر البحرية، ثم بداله فى الرجوع إلى القاهرة فى تلك السنة. فلما وصلها اعصَوْصَبَ عليه جماعة من طلبة المغاربة بالأزهر للتدريس، فطار له صيت عند المغاربة إلى أن توصل إلى أرباب(٦) الدولة فتولى قضاء المالكية، وعزل عنه الشيخ عمر فكرون(٧) زاعماً أنه يجور فى الحكم، ويداهن بأخذ الرشا. وترقت(٨) به الحال إلى أن تولى إمارة الحاج المغربى، وحج بالركب مرتين، وانتشرت القالة فيه، وكثر مادحوه(٩)، وأكثر منهم ذاموه – والله يغفر له(١٠). وكان من أذكياء الطلبة

(*) الرموز : ط (مخطوط طرابلس) ، ب (مخطوط بنغازى) ، ح (طبعة الحجر بفاس) .

(١) خروجنا و ناقصة فى ح ، ط .

(٢) وحماية أوليائه ناقصة فى ب .

(٣) « ربيع الثانى » ناقصة فى ط .

(٤) ب ، ط : مرافقتنا .

(٥) « وكان معه أهله » ناقصة فى ح .

(٦) ح : الأرباب ، ب : بأرباب.

(٧) ب : فكرونى .

(٨) ب : الرشوة رقت .

(٩) ط : مادحه .

(١٠) « والله يغفر » ناقصة فى ح ، ب .

النجباء، له معرفة حسنة بعلم النحو ومشاركة فى غيره، مواظب على التعلم والتعليم، إلا أن الرياسة إذا سكنت قلب إنسان لا تقصر به عن ذهاب رأسه – نسأل الله العافية، آمين.

ثم استقبلنا بادية برقة[١] المتنائية[٢] الأطراف المخوفة الأكناف، الضاحية الأرجاء البعيدة[٣] الأنحاء[٤]، القليلة المرعى المجهولة المسعى؛ نقطعها مراحل ونرد منها مناهل[٥]، فى أيام الشتاء القصيرة ولياليها المستطيلة المستطيرة؛ نقطع المرحلة منها في يومين كأننا نسير على أجفان[٦] العين، لا نتحقق ارتفاع الشمس فى الأفق إلا وقد مالت للأفول[٧]، ولا يزمع رائد الليل[٨] الارتحال إلا وقد آذن[٩] بالقفول. فطالت لذلك[١٠] المسافة وعظمت لقلة الزاد من الجوع المخافة، طاولنا مراحلها بالتجلد فطالت وحاولنا[١١] تقصيرها بالسوق العنيف فما حالت.

وفى اليوم السادس من رحيلنا من الإسكندرية مررنا بمورد الجميمة[١٢] ضحى، ونزلنا بعيداً منها فأصابتنا هناك سماء منعتنا من الرحيل بعدما رمناه، فتعذر بكثرة الوحل حتى تكسر بعير دليل الركب[١٣]، فأقمنا هناك يومين كأنا على الجمر قاعدون، وبسبب[١٤] التعطيل مع الانزعاج متواعدون.

وفى اليوم العاشر طلعنا العقبة الصغيرة، والمسافة بينها وبين الإسكندرية نحو من أربع مراحل[١٥]. ولقينا هناك قافلة امتاروا تمراً من بلاد سيوى[١٦]،

---

(١) ط : برقا .
(٢) المتناهية .
(٣) ط : الباعدة .
(٤) ب : الأمجاد .
(٥) ح : فيها المناهل .
(٦) ط : جنان .
(٧) ح : للأفق .
(٨) « الليل » ناقصة فى ح .
(٩) ح ، ط : آن .
(١٠) ط : ذلك .
(١١) ح : داولنا .
(١٢) ط : الحميمة ، ب : المجيمة.
(١٣) ح ، ب : بعيرٌ لدليل الركب.
(١٤) ط : وبأسباب .
(١٥) الأصل : أربع ليال والتصحيح فى هامش ح.
(١٦) ح : سوى .

فاشـترى[١] الـناس منهم حاجتـهم من التـمـر. وتمر هذا البلد أحـسن تمر[٢] رأيناه[٣] في بلاد المشرق حلاوة[٤] ونقاء وكبراً ، تشابه تمر بلاد[٥] سجلماسة؛ يحملونه في قفاف[٦] صغار من سعف [٧] النخل، تسع كل واحـدة أزيد من ربع القنطار، ويبيعوتها كذلك بأوعيتها. وأخبرونا أنها[٨] لا تبـاع في بلادها[٩] إلا كذلك، فمشتريها لايحتاج إلى حبال للشد ولا غرائر للحمل، بل[١٠] يشترى حاجته منها فيعلقها على بعيره؛ فمن الإبل ما[١١] يحمل العشرين فما دون.

ثم سرنا فيما بين العقبتين بمثل سيرنا الأول نرد المناهل التى ذكرناها فى الذهاب [١٢] والأرض مجدبة[١٣] كـأنهـا لم تكن قبـل ذلك[١٤] مخصبة، قد أطارت الرياح ما فيـهـا من الهـشيم ويبّس أوراق الشجر ترادف[١٥] البرد العقيم. وقطعنا مابين العقبتين فى عشرة أيام، وطلعنا العقبة الكبرى فى اليوم العاشر، ولم يتزود[١٦] الناس من الماء يوم طلوعها[١٧] ظناً منهم أن الماء يجدونه لكثرة الأمطار وخبر العربان. فلما طلعوا لم يجدوا من الماء إلا شيئاً قليلاً فى ماجل فوق سطح العقبة، فنزحوه[١٨] فمـا قارب كفايتهم. وفى الغد وهو يوم الخميس ظل الناس سائرين خائفين من العطش، كلما رأوا نشزاً من الأرض الحمراء[١٩] تسابقوا إليه

---

(١) ط : فاشتار.

(٢) ح ، ط : تمراً .

(٣) ح : رأينا .

(٤) ط : وحلاوة. .

(٥) « بلاد » ناقصة فى ح

(٦) ح : مقاطف ، ب : مقاف .

(٧) ح : عسف .

(٨) ط : بأنها .

(٩) ط : بلدها .

(١٠) « بل » ناقصة فى ط .

(١١) ط : من .

(١٢) انظر فيما سبق ، ص ١٥٦ ، وص١٥٩ .

(١٣) ب ، ط : مجذبة .

(١٤) ح : كذلك .

(١٥) ح : بترادف .

(١٦) ب : ولم يترو ، ط : ولم يروا .

(١٧) ح : طلوعنا .

(١٨) ط ، ب : تبرضوه .

(١٩) ط : كلما رأوا شرق الأرض الحمر.

والخبير أمامهم وهم بإثره كأجاود[1] الخيل إلى المغرب، فلم يجدوا ماء ولا سمعوا له خبرا. ونزل الناس بعد المغرب فى ضحضاح من الأرض لا ماء به ولا كلأ، وذهب الدليل وحده يطلب الماء، وظن به أكثر الناس السوء، وزعموا أنه قال لهم : إن لم أجد الماء فلا أرجع إليكم؛ وهو فى ذلك مصيب فإنه إن رجع إليهم بغير ماء قتلوه بلا شك. وبقى الناس فى حيرة، كل واحد[2] يزجر طيره، ويسأل عن تفريج كربته[3] غيره. فلما كان بعد العشاء الأخيرة جاء الخبير وأخبرهم أنه وجد الماء، فمن الناس من صدق ومنهم من كذب. وكانت معنا فضلة ماء تقسطناها شرباً، ولم نطبخ عشاء؛ وادخرنا فضلة منها لغد خوفاً من عدم وجدان[4] الماء. ولولا أن الفصل فصل برد، أوائل دجنبر، لهلك بعض الناس عطشاً. فلما أصبحنا استبق[5] الناس إلى الماء فوجدوا ما كفاهم[6] من ماء المطر فى مسيل واد ذى أحجار لم يمر عليها الركب الذى أمامهم[7]، فأخذ الناس منه حاجتهم وساروا.

لطيفة : لما أصبحنا فى ذلك اليوم بعثت[8] بعض[9] أصحابنا إلى الماء مع السيارة المتقدمين، وكان معه مفتاح قيد من حديد على فرسى، ولم أشعر بذلك إلى أن طلع النهار وارتحل الناس. فتفقدت المفتاح ولم[10] أجده، وأعيتنا الحيلة فى فتح القيد إلى أن خرج الناس من المنزل، ويئست من انفتاحه. فلما حصل الاضطرار جاءت الإغاثة[11] من الملك الجبار، فحركنا الفرس فطار القيد من

---

(1) ح : كأجود .
(2) ب : وحد .
(3) ح : كربه .
(4) ب : وجود .
(5) ط : أسبق .
(6) ب : أكفاهم .
(7) ط : أمامنا .
(8) ط : بعثنا .
(9) ب : أحد ، وهى ناقصة فى ط .
(10) ط : فلم .
(11) ح : الاستغاثة .

رجليها[١] من غير صنع أحد، فحمدنا الله كثيراً وكبرناه تكبيراً، وسرنا بقية ذلك اليوم.

وفى الغد منه نزلنا إلى **البطنان**، فنزلنا فى أرض سهلة مطمئنة، وسرحت الإبل قرب المنزل، وعندما اختلط الظلام عدا بعض متلصصة عرب[٢] الهنادى على فرس لبعض الحجاج فركضها من فناء الخيام، فركبنا وتبعناه فلم[٣] نقع له على أثر، وحال الظلام بيننا وبينه. ثم بلغ الخبر إلى شيخ الفريق الذى هناك من الهنادى، وجاء بالليل إلى شيخ الركب واعتذر له، وبعث إليها من جاء بها من أهله[٤]، فواعدوه بكسوة فلم يفوا[٥] له بما وعدوا؛ وتلك سجية[٦] فى حجاج المغاربة يكادون[٧] أن يعاملوا بمثلها - والله يلطف بالعباد. وفى الغد نزلنا ظهراً على ماجل كبير فى البطنان، يوم الأحد، حتى سقى الناس إبلهم واستقوا، وأقاموا بقية يومهم - والله الحفيظ وهو[٨] خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ثم فى الغد نزلنا قرب المكان المسمى بالمدور[٩]، وهو مكان فيه مآجل للماء قل ما تخلوا منه إلا فى السنة المجدبة[١٠]، وفيه مزارع ربما مررنا بها[١١]، وفيها[١٢] زرع كأجود مايكون.

ثم فى الغد نزلنا على البسيط الذى يمر منه إلى **عين الغزالة**.

ثم فى الغد مررنا على يمين الطريق فوق الجبل المستطيل، بين الطريق والبحر، بماجل فيه ماء كثير، واستقى الناس منه، ولم يمر به الركب[١٣] أجمع

---

(١) ب، ط : رجلها .
(٢) « عرب » ناقصة فى ب .
(٣) ب، ط : ولم .
(٤) ح : أهلها .
(٥) ح : يوفوا .
(٦) ح : شيمة .
(٧) ح، ط : يكادوا .
(٨) ح، ب : فهو .
(٩) ط : المرور، ب : المدوى . .
(١٠) ب، ط : المجذبة .
(١١) ط : فيها .
(١٢) ح : وفيه .
(١٣) ح : ولم يمر الركب به .

وإنما مر به من قصده الورود[1]. وكنت جنباً، وكان اليوم شاتياً، فكنت أسأل الله أن ييسر لى فى[2] الاغتسال، فوجدت ماجلاً مهدوماً ودخلته أنا وصاحب لى، وأورينا ناراً وسخناً الماء، فاغتسلت فى مكان أشبه الأمكنة بالحمام دفئاً[3] بحيث لا أحس بشئ من البرد مع شدته – فحمدت الله كثيراً وشكرته. ومررنا يومنا على يسار عين الغزالة، وهى عين ماء[4] فيه ملوحة، تسح من سفح جبل، وتصب فى بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح، يحف بها القصب والعريش وأنواع النبات المائى[5]، يوجد حولها صيد كثير عند خلو البلد من كثرة المارة. وبتنا تلك الليلة فى سفح الجبل المقابل لها من غربيها.

ثم فى الغد، يوم الجمعة، نزلنا على التميمى ضحى، ووجدنا ركب أهل[6] الجزائر مقيمينَ فيه، وكرهنا الورود عليهم لأجل مابين الركبين من الشنآن، وكانوا يتوقعون منهم فتنة، فوقى الله شرها. ونزل ركبنا دون الوادى بنحو ميل، فلما أصبحنا، ارتحل أهل الجزائر[7]، وأقام أصحابنا؛ وكان من أشد يوم رأيناه برداً مشوباً ببلل يشوى الوجوه فضلاً عن غيرها من الأعضاء – وحمدنا الله[8] على الإقامة، ورأينا ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس؛ ولكن أكثر الناس لايعلمون. وهم الذين رحلوا[9] رائين أنهم حازوا قصب السبق بالتقدم وتحملوا مشقة ذلك اليوم العبوس القمطرير، لحظ عاجل فى فلوات[10] من الأرض لايحمدهم عليه ربهم ولا أحد من العباد – نسأل الله تعالى أن لايملكنا لحظوظ أنفسنا[11] الزائلة، وأن لا[12] يجعل أزمتنا بأيدى الآراء الفائلة. ولم

---

(1) ح : للورود
(2) « فى » ناقصة فى ط .
(3) ط : دفاء .
(4) « عين » ناقصة فى ح .
(5) ط : الماء .
(6) « أهل » ناقصة فى ح .
(7) ط : ارتحل الجزيرى .
(8) ط : الله تعالى .
(9) « رحلوا » ناقصة فى ط . (قرآن).
(10) ب : فى مجلات، ط : من فلات الأرض.
(11) ط : الحظوظ لأنفسنا .
(12) ب : أن لا .

يجد الناس مايتسوقون فى مورد التميمى، وكان معهوداً بالسوق غالباً، إلا شرذمة من متفقرة[١] أعراب ذلك البلد، وشيخهم يدعونه سيد[٢] حسين العجل، من متفقرة[٣] الأعراب، مزج تفقره[٤] بمشيخة الصرم الذى هو فيه[٥]. جلبوا إلى الركب شياها وأعنزا[٦] وتيسا وكن هزالا[٧]. وبيع الزرع هناك بسبعة قروش لأردب[٨] القمح، وأكثر من اشتراه[٩] عرب البلد؛ وأخذ الحجاج منه قليلاً. وكانت[١٠] معنا قافلة لبعض الأعراب تحمل زرعاً بقصد البيع لما رأوا فى العام الذى قبله من المجاعة التى لحقت الركب فى برقة؛ وذلك الغالب على من سلك برقة فى ابان[١١] الشتاء : تقصر الأيام وتكثر المراحل، وتتسع الأمعاء للأكل فلا يكاد يكفى الإنسان[١٢] ما يحمله من الزاد من مصر إلا[١٣] من له فضل ظهر يستظهر بحملان أكثر مما[١٤] يحتاج فى الغالب – وقليل ماهم. وعامة الناس إنما يحملون الزاد من أرياف[١٥] مصر مقسطاً على المراحل المعتادة لقلة الظهر وطول المسافة، فيتضررون لذلك بزائد المراحل التى يوجبها قصر الفصل مع كثرة العوارض المؤذنة[١٦] بالإقامة : من شدة برد أو مطر أو عروض مخافة توجب الإقامة. وهذا عكس ما وقع لنا فى الطلوع فى فصل الربيع فقد فضل للناس بعد الخروج من برقة عامة أزوادهم، ولم ترزأهم المسافة منها إلا القليل حتى قال بعض الحجاج بعد الوصول إلى مصر : قدر الله علينا أن نأكل الطعام بأغلى ثمن فى

---

(١) ب : متفرقة ، ط : تفرقة .

(٢) ط : ابن .

(٣) ط : متفرقة .

(٤) ط : مفقرة .

(٥) مابين « يدعونه » وفيه وجلبوا ناقص فى ب.

(٦) ح : عنزا.

(٧) ب : وأهتزا تيسا لكن هدايا لا .

(٨) ب ، ط : كردب .

(٩) ط : اشترته ، ب : اشتريه.

(١٠) ط : وكان .

(١١) ح : أيام .

(١٢) ب ، ط : يوفى بالإنسان .

(١٣) ط : إلى .

(١٤) ب : ما .

(١٥) ب : أرباب.

(١٦) ح : المؤذية.

أرض[1] رخيصة الأسعار كثيرة الأرزاق، وذلك أنهم اشتروا الطعام من طرابلس بسعر غال واكتروا عليه بأضعاف مما اشتروه به إلى مصر، فلم يقدر لهم أن يأكلوه إلا فى مصر، فيأكلون الأكلة منه فى مصر بثمن ثلاثين أكلة من طعام مصر[2]؛ وفى ذلك عبرة لمن اعتبر.

وقد تسوق إلى الركب بعض الأعراب هناك بسلع نهبوها من سفينة[3] تكسرت فى بعض سواحل البطنان، فمن الناس من اشترى، ومنهم من كف - وقليل ماهم. ومن جملة ما أتوا به للبيع مصحف[4] بخط مشرقى، وكتاب آخر فيه شرح غنية المصلى[5] فى فقه الحنفية وهو غاية فى بابه، فهممت باشترائه استخلاصاً له[6] من أيديهم لأنه عرضة للضياع والإهانة، ثم كففت خشية أن يقتدى بى[7] فى استحلال شراء أموال المسلمين، ولغلبة الظن بأنى[8] لا ألقى ربه فأرده عليه، فآثرت السلامة. وفى الغد منه[9] أقام الناس ثانياً لجمع ما فرضوه لخلاص الدليل ولمصالح سوى[10] ذلك. وكان جملة ما فرضوه[11] نحو من سبعين ريالاً؛ للدليل منها ثلاثون : عشرة منها قيمة ناقة له تكسرت[12] قرب الجميمة[13] فغرمها الحجاج[14] له تطييباً لخاطره. وعشرون منها أجرته، وخمسة عشر أعطوها لشيخ من شيوخ الركب كان قليل ذات اليد، شكس

---

(١) ب ، ط : بلد .

(٢) ح : بثمن ثلاثين أكلة فى مصر ، ط : بثلاثين.

(٣) ب : نفسه .

(٤) النص : مصحفا.

(٥) ح : منية لمصلى.

(٦) ط : لهم .

(٧) ط : يقتدى به .

(٨) ح : أنى .

(٩) « منه » ناقصة فى ط .

(١٠) ح : ولسوى مصالح ذلك .

(١١) ح : وكان جملة ما فضروا ، ط : وكان من جملة مافرضوا.

(١٢) ب : انكسرت .

(١٣) أنظر ماقبل ص

(١٤) ط : الحاج .

الأخلاق، ومعه[1] طائفة من أهل بلدته[2] يرون رأيه. فكان الناس يدارون منه بعض الحد خشية افتراق الكلمة، ويعرف بابن مومن من أندلسيى[3] مراكش. والشيخ فى الحقيقة الذى لاينبغى أن يعدل عنه عند وجوده[4] : الحاج محمد بن الحاج عمران المراكشى، فقد كانت له سراوة نفس[5]، وطيب أخلاق، وحسن عشرة، واحتمال مع طوائف[6] الناس. وله سخاوة يد وعفة قلب عن المطامع، وآتاه الله مع ذلك سعة من المال، إلا أنه ليس معه عصبية. وقسيمه الآخر فى الرياسة قد اعتضد بعصابة[7] من أجلاف الأندلس وشياطينهم. وعظم الناس لايعدلون بابن عمران أحداً. ومن جملة ما فرضوا عشرة[8] ريالات للعلامين، وثلاثة للبراح. وضربوا الأجرة فى هذه المرة على أحمال السلع خاصة، وكان معى حمل من الكتب ولم يأخذوا عليه شيئاً[9]، ولم يطالبوا أحداً ممن ليس معه[10] سلع وهو أرفق بالمساكين[11]، وإن كان الأوجه من حيث النظر ضرب الأجرة على كل الإبل[12] لاشتراك الكل فى منفعة الدليل على حد السواء، لأن منفعته[13] هداية الطريق والدلالة على موارد الماء. وأهل الأحمال وغيرهم[14] فى الاحتياج إلى هذين الغرضين على حد سواء، بخلاف أجرة الخفير الذى يخفر[15] الركب من اللصوص. فليس خوف صاحب الأحمال والسلع الكثيرة كخوف غيره، لأن المقصود بالإذاية فى الغالب هو من له أحمال وسلع. والفقير قل ما يتعرض له[16] سيما مع وجود غيره.

---

(١) ط : معه .
(٢) ب : جلدته .
(٣) ح ، ط : أندلسى .
(٤) « عنده » بدلاً من « عند وجوده » .
(٥) ط : كانت سراوة ، ب : كانت له مروءة نفس.
(٦) ط : وظائف .
(٧) ح : بعصبة .
(٨) النص عشر .
(٩) ط : شئ .
(١٠) ح : معهم .
(١١) ب : المسكين .
(١٢) ط : إبل .
(١٣) ط : منفعة .
(١٤) ح : وغيرها ، ب : وغير .
(١٥) ح : المجير الذى يجير، ب : الخفير الذى يجير.
(١٦) « له » ناقصة فى ط .

لطيفة : سمعت شيخنا العلامة أبا بكر السجتانى[1] المراكشى - رضى الله عنه - يقول جرى البحث فى الجامع الأزهر أيام اشتغاله بالإقراء[2] هناك فى هذه المسألة، وهى أجرة دليل الركب. هل تكون على الإبل أو على أحمال السلع[3] أو على أصحابها ؟ أو هل كون على التابع دون المتبوع ؟ قال ولم يوجد نص فى ذلك . قال[4] ويمكن استخراج حكم المسألة من أصل، وهو ما ورد فى حديث الهجرة[5] من استئجار النبى - ﷺ - وأبى بكر - رضى الله عنه - لابن[6] أريقط الديلى، وكان مع أبى بكر غلامه عامر بن فهيرة. فهل كانت الأجرة على الإبل أو على الرؤوس؟ وعلى الثانى؛ هل أعطى أبو بكر[7] عن غلامه أم لا؟ قال ولم يتحصل بين المتباحثين إذ ذاك مايعتمد عليه [8]. قال ثم إن الشيخ عليا الأجهورى أورد هذه المسألة فى شرحه للمختصر، وذكر فيها ماجرى من التوجيهات، وصير ذلك كله كأنها أقوال فى المذهب مع أنه لم يوجد فيها نص فى المذهب. وكان هذا[9] من جملةماينقص[10] عليه فى شرحه، وهو جدير بذلك[11] .

قلت : وما ذكر من أخذ الحكم من الحديث يبعده ما[12] عُلم من حال النبى - ﷺ - وأبى بكر - رضى الله عنه - من تصرف النبى - ﷺ - فى مال أبى بكر كيف شاء من دون مشاحة ولا مماكسة[13] فى ذلك، حتى تجعل[14]

---

(١) ح : السجستانى، ب : السيجتانى . وقارن فيما بعد ص ٢٣٤ ، حيث السكتانى.

(٢) « بالإقراء » ناقصة فى ب ، ط .

(٣) ط : أو على الأحمال

(٤) « قال » ناقصة فى ط .

(٥) ح ، ب : وهو من أصل ماورد حديث الهجرة .

(٦) ح : من ابن

(٧) ط : أبى بكر .

(٨) ح : مايعتمد عليه إذ ذاك

(٩) « هذا » ناقصة فى ط .

(١٠) ط : ينقم ، ح : ينفض

(١١) ط : فى ذلك .

(١٢) ح : فيعيد مما

(١٣) ح : دون مساحة ولا مكايسة بينهما

(١٤) ب : يجعل ، ط : يجعلا .

الأجرة على الرواحل أو على الرؤوس؛ أو يحاسب[1] النبى - ﷺ - أبا بكر بما ينوب غلامه عامر، وكلاهما فى الحقيقة غلام وخادم للنبى - ﷺ - . وهو أيضاً[2] بعيد مما علم[3] من مكارم أخلاق النبى - ﷺ . وهذا نظير ما لو قيل إن النبى - ﷺ - وأبا[4] بكر تفاوضا فى الزاد الذى حملاه فى هجرتهما، وحاسب النبى - ﷺ - أبا بكر بما يأكله[5] غلامه، وهذا لايتوهمه أحد ممن عرف بعض كمال مقام النبوة[6]، وفضيلة[7] الصديق - رضى الله عنه - وحاله معه. وليست الأجرة والزاد مثل الراحلة التى أبى النبى - ﷺ - أن يأخذها إلا بالثمن ليسارة أمرها[8]، ولما أجاب به بعض العلماء أيضاً عن امتناعه عليه من أخذها[9] إلا بالثمن. فإن الهجرة لما كانت من أجل القربات وأعظمها، وليست بعمل يتكرر[10] غالباً فيتيسر[11] مثله، أراد النبى - ﷺ - أن ينفق فيها من ماله كما أتعب فيها بدنه الشريف - ﷺ .

نعم هذا التوجيه يقتضى أيضاً أن يكون الزاد من عنده والأجرة أيضاً ليكمل[12] ثوابه. قلنا لانمنع أن يكون ذلك الزاد من عنده كله، أو من عند أبى بكر كله؛ أو بعض من هذا وبعض[13] من هذا بحسب ماتيسر، دون محاسبة ولاتقسيط على الرؤوس، لأن ذلك[14] هو الذى تقتضيه المروءة وشرف النفس. فكيف بكمال المروءة، وغاية الشرف [15]، بخلاف أخذ الراحلة بالثمن. فإن

---

(1) ب : الرواجل والرؤوس ويحاسب
(2) « أيضاً » ناقصة فى ب ، ط .
(3) « من » ناقصة فى ط
(4) ط : أبى بكر .
(5) ح : يأكل
(6) النبوءة
(7) ح : وتفضيله
(8) ط : أمرهما .
(9) ط : من امتناعه عليه منها
(10) ط : تكرر
(11) ط : فتيسر
(12) ط : لكل .
(13) ب : أو بعض
(14) ح : وذلك .
(15) ب : غاية والشرف .

كل ذى ذوق سليم وعـالم بأحـوال المروءة يدرك أن أخـذ الرجل الراحلة من صاحبه فى السـفر بثمنها لا ينافى المروءة، لا من الآخذ ولا من المأخوذ منه؛ بخلاف أخذ الزاد بالثمن والمقاسمة فى الأجرة، ومحاسبة الرجل صاحبه بما ينوب غلامه، فإنه بعيد من مكارم الأخلاق. وقد علم أن مؤنة سفرهما من زاد وراحلة[1] وأقتاب وغير ذلك كان من دار أبى بكر - رضى الله عنه - لأنه هو الذى كان يستعد لذلك. والنبى - ﷺ - إنما فاجأه[2] الأمر بذلك من عند الله، فلو أخذ النبى - ﷺ - من عند أبى بكر شيئاً سوى الراحلة بالثمن لذكر ونقل ، ولكنه لم ينقل، فعلم أنه لم يقع. نعم لو وقع ونقل لكان وجهه قصد التشريع وبيان الأحكام، إلا أن اللائق به مقام غير هذا. كأن[3] يقع من النبى - ﷺ - مع غير أبى بكر، فى غير هذه السفرة. بل اللائق[4] والغالب فى تشريع مايبعد من المروءة أن يقع من غيره - عم -، فيعلم به ويقره ولا ينكره[5] للاعلام بجوازه لا أن[6] يقع منه هو لكمال منصبه - ﷺ - فى سائر تقلباته وأحواله - والله تعالى أعلم.

ولم يقدم أحد من دونه للسوق كالعادة، لأجل الفتنة الواقعة بين أهلها وأميرها الحاج محمود عامل عثمان[7] باشا صاحب طرابلس. وذلك أن أكثر سكان البلد مغاربة لأنها حديثة العهد بالعمارة، ولم يبق من أهلها بالأصالة أحد. فلما عظمت شوكة الوالى أنف سكان البلد من الهضيمة[8]؛ فأضمروا له العداوة، وثاروا عليه فى المدينة فأخرجوه. وصار فى مركب إلى **جزيرة**[9] **كندية**،

---

(1) ب : أو راحلة

(2) ح : فجأة .

(3) ح : وكان

(4) ب ، ط : الأليق .

(5) ط : ولا ينكر

(6) ب : أن لا يقع ، ح : من غير أن يقع .

(7) ح ، ب : عصمان

(8) ح : الفضيحة.

(9) ح : مدينة .

وبعث إلى طرابلس يعلم الباشا بالخبر. فبعث الباشا مركباً من طرابلس مشحوناً بالمقاتلة ورجع الحاج[1] محمود من كندية فى مركب آخر، فتوافوا على البلد. فأخرجوا كل من كان فيها[2] من المغاربة بعد قتل ذريع ونهب، وصاروا[3] لايتركون أحداً يدخل البلد ممن ليس من أهلها، حتى الصعاليك من الحجاج والمتسوقة[4] فيبيعون ويشترون خارج البلد.

ثم ارتحلنا من التميمى يوم الاثنين، فلما نزلنا ليلاً؛ وكانت عادة الجمالين أنهم يعتمون فى مسارح الإبل فلا يرجعون[5] إلا بعد هوى من الليل، ولم يروا قبل ذلك بأسا فاطمأنت قلوبهم؛ فجاءهم على غرة قوم من الأعراب الذين تركناهم بعين الغزالة، فأغاروا على بعض إبل الركب، فأخذوا منها نحواً من عشرين بعيراً. فلما أصبح الناس هموا بالرجوع إليهم وغزوهم فى حلتهم، ثم تراجع الناس عن ذلك. وكان بعض الإبل لمرابطة سمالوس فتبعوهم وردوا لهم إبلهم[6]، ولم يلحقوا بنا إلى أن جاوزنا سمالوس. وبعض الإبل للجوابس وهم رهط معتوق، دليل الركب، فلم ترجع.

ثم ارتحلنا ضحى ونزلنا قرب غدير يسمى بوهندى. وفى الغد مررنا به ضحى، وسقى الناس واستقوا [7]. ونزلنا المخيلى[8] قرب المغرب بقليل، وكان به أثر مسجد تهدم، ولم يبق إلا منارته، وعلى بابها قبر شيخ الحجاج الحاج عمران[9]؛ وولده محمد هو شيخ الركب بعد موت أبيه. وموت أبيه كان فى شهر رمضان فى السنة[10] الفائتة فى هذه السفرة[11]، وهذا الذى طلع بالركب من

(١) « الحاج » ناقصة فى ط

(٢) « فيها » ناقصة فى ط .

(٣) « صاروا » ناقصة فى ب ، ط

(٤) ب : والمتوسقة .

(٥) ط : يرفعون

(٦) ح : وردوا إبلهم إليهم .

(٧) ط : واستاقوا

(٨) ط : المحيلى .

(٩) « الحاج » ناقصة فى ح

(١٠) ب ، ط : العام .

(١١) « فى هذه السفرة » ناقصة فى ح .

مراكش[١]. فلما باتوا بهذا المحل، وتسحر قبل[٢] الفجر ومابه[٣] من بأس، ثم أصابه سعال شديد بإثر ذلك مات منه قبل أن يرتحل الناس من المنزل، فدفن[٤] هناك - رحمة الله عليه . فعندما مررنا بقبره[٥] وقف الحجاج عليه هنية، وقرأوا ماتيسر، وبنوا عليه حائطاً من الحجارة ، ونزل الركب بقربه.

ثم ارتحلنا من المخيلى[٦]، وفي اليوم الثالث مررنا بسمالوس ظهراً. وسقى الناس واستقوا، ووجدنا فيه ماء كثيراً[٧]، وهو واد كبير يهبط من الجبل الأخضر، نصب فيه أودية كثيرة من أودية الجبل، قلما يخلو من ماء إلا فى الأعوام المجدبة[٨]. وفى اليوم الثانى منه استهل جمادى الثانية، ليلة الإثنين، وفى اليوم الثالث نزلنا[٩] بإزاء قصور الرجبية[١٠]، ووجدنا هناك أعراباً كثيرة من عرب الجبل السعادى : الغوائد وغيرها. وفى الغد ارتحلنا وسرنا فى واد كله ربيع وماء وأعراب، والناس يتسوقون ويشترون اللبن والسمن عامة يومهم. ونزلنا بعد العصر بالبويب[١١]، آخر الجبل الأخضر، ولحقنا هنالك أواخر ركب الجزائر[١٢]. وكانوا يظنون أن لا نلحق بهم، فلما لحقناهم جدوا فى السير، ولم ينزلوا إلى الليل. وفى الغد ارتحلنا وتركنا مورد سلوك[١٣] عن يميننا وقصدنا الجابية، والركب الجزائرى[١٤] أمامنا يتراءى لأولنا ونحن آخرهم[١٥]. وفى اليوم

---

(١) ح : وهذا الذى طلع بالركب من مراكش ولده
(٢) ب : قبيل .
(٣) « فن » ناقصة فى ب ، ط
(٤) ح : ودفن .
(٥) ط : : فعند مرورنا ، ح : فعندما مررنا به
(٦) ط : المخيل .
(٧) ط : كثيسر
(٨) ب ، ط : المجذبة .
(٩) « نزلنا » ناقصة فى ط
(١٠) ب : الرحبية .
(١١) ح : البيدب
(١٢) ط : الركب الجزيرى .
(١٣) ح ، ب : سلوكهم
(١٤) ب ، ط : الجزيرى .
(١٥) ح : يتوارى لأولنا ونحن آخرهم ، ب : يتوارى أولنا وآخرهم ، ط : يتراءى أولنا آخرهم.

الثالث نزلوا[١] الجابية عصراً ومررنا بهم وهم نزول، فبعثوا إلينا أن تأخروا عنا حتى نرتحل أمامكم، فأنف أصحابنا من ذلك، فتجاوزوا الجابية ولم ينزلوا بها ولا عرجوا عليها. ولم ينزل ركبنا إلى العشاء الأخيرة على آبار أخر على نحو فرسخ من الجابية[٢]، وهى ثلاثة آبار فى صفاة واسعة تشبه آبار الجابية [٢]، وعليه أثر[٣] قصر تهدم. وكان أهل الجزائر قد طلبوا من أصحابنا أن يتأخروا عنهم يوماً يقيمونه بالجابية، معتلّين بأن معهم من أكابر ترك الجزائر طائفة لايرضون أن يتقدم عليهم صعاليك المغاربة، لأنهم جيش السلطان. فأخذت أصحابنا الحمية والأنفة، وقالوا لهم نحن لانعرف غزا[٤] ولا سلطاناً. وحلف الآخــرون أن لا يتقدموا عليهم حتى خشينا أن تكون فتنة؛ فكف الله أيديهم، وجهدوا[٥] أن يلحقوا بنا فلم يقدروا بعد ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك مُجدين[٦] فى السير خشية لحوق أهل الجزائر بنا فتكون فتنة على غير شئ. وفى اليوم الثانى[٧] لقينا [٨]على قصيرات وعتلا[٩] عرب الجهمة الذين قتلوا عبد القادر بن أخى عبد الرحمن الجبالى، وقد قدموا من فزان. فلما رأوا أوائل الركب ظنوه غزياً [١٠] للجبالى، فانجفلوا[١١] إلى فدفد على ساحل البحر تحيط به سباخ يتعذر سلوكها إلا من محل واحد. وبعد ماوصلوا إليه رجعت خيلهم وتلقت الركب من أمام فتشوش الحجاج منهم، فلما وصلوا إلينا وعرفوا أننا حجاج جاء أشياخهم وتكلموا كلاماً طيباً. وقالوا مانحن

---

(١) ح : نزلنا

(٢) ما بين « الجابية » و « الجابية » ناقص فى ح .

(٣) د : آثار

(٤) الأصول : عزا . والسياق يقتضى غزا بمعنى الترك.

(٥) ط : وجاهدوا

(٦) ح: مجددين .

(٧) ط : الثالث

(٨) « لقينا » ناقصة فى ط .

(٩) ط : واعتلا

(١٠) ح : غازيا .

(١١) ط : فانجفوا

إلا فى بركة الحجاج، وإنما ظنناكم من جموع الجبالى، سيدى روحه[١].

ونحن قاصدون[٢] إلى الهنادى، وهم عرب العقبتين، ومعنا مائتا فارس و أربعمائة راجل. وكتبوا مع شيخ الحجاج كتاباً إلى الباشا زاعمين أنهم لم يقصدوا مخالفته، وإنما أضر بهم الجبالى حتى وقعوا فيما وقعوا فيه. وأنه إن أمرهم بنزول الجبل نزلوه. وكانوا قد استنصروا بسلطان فزان على الجبالى لما ثقلت عليهم وطأته، فجاء معهم[٣] بجموعه ومن انضاف إليه[٤] من عرب تلك الناحية حتى أغاروا عليه فى بلد سرت [٥]، وأهل حلته غارون منتشرون فى إبان الحرث. وأخبرونا[٦] أنهم فى وقت الغارة صادفوا عبد الرحمن وابن أخيه عبد القادر يكلان لحماً حنيذاً بينهما. فلما أحسوا بالخيل قال عبد القادر لعمه انج بنفسك، وأنا أدافع[٧] عنك الخيل ريثما تبعد عنهم، فنجا برأس طمرة[٨] ولجام[٩]، ودافع عنه ابن أخيه حتى قتل؛ وأخذوا جميع من معهم من حلل[١٠] الأعراب؛ وخلت[١١] قصور سرت[١٢] من يومئذ، ونهبوا مافيها ورجعوا [١٣]إلى فزان وأقاموا هنالك حتى جاءوا فى هذه الكرة.

ثم ارتحلنا من هناك، وأصابنا[١٤] مطر أول النهار إلا أنا [١٥]كنا بأرض مسترملة فلم يمنعنا من السير وإن عاقنا بعض[١٦] التعويق. ونزلنا قرب المضيق[١٧]

---

(١) ح : سيروا رويدا ، ب ، ط : سيدى روطو عن تفسير الاسم انظر فيما قبل ص ٧٩ .

(٢) « قاصدون » ناقصة فى ط

(٣) ب : فجاءهم .

(٤) ح : إليهم

(٥) ح : بلد سارت ، ط : بلاد سرت .

(٦) ط : وأخبرنا

(٧) ب : أصافح .

(٨) ط : صخرة

(٩) « لجام » ناقصة فى ب .

(١٠) ب : حال

(١١) ط : وحلة .

(١٢) ح : سارت

(١٣) ط : ورجعت .

(١٤) ط : وأصابتنا

(١٥) « أنا » ناقصة فى ب .

(١٦) ط : بعد .

(١٧) ط : المطيق .

الذى دون المنعم. وفى الغد مطرنا[١] أيضاً [٢] مطراً أشد من الأول، وتقدم الناس إلى المورد ليستقوا[٣] فلم يخرجوا من مضيق السبخة عند منقطع الرمل حتى وجدوا الطريق ممتلئة ماء. فاستقى الناس منها ولم يقفوا ولا تعطلوا، وأغناهم الله بماء السماء عن ماء الآبار.

وتجاوزنا مورد[٤] **المنعم** قبل الظهر، ولم ننزل إلى المغرب. وفى الغد بينما نحن نسير أول النهار إذ سمعنا فى البحر صوتاً [٥] هائلاً مثل الرعد القاصف، فظنناه مدافع حرب وقع فى البحر بين المراكب. فتسارع الناس للصعود على الحاجب الذى بيننا وبين البحر، وكنت فيمن[٦] ذهب، فلم نر فى البحر شيئاً. وأخبرنا بعض الناس ممن لديه علم بأحوال البحر أن[٧] ذلك صوت يسمع فى البحر أحياناً، يسمى[٨] تمدْ، لايعلم له سبب. وأظن[٩] أنه قال إن ذلك[١٠] إنما يقع فى الغالب عند إبان المطر. ثم مررنا وسط النهار يوم الخميس، بأسفل السبخة التى فيها مقطع[١١] الكبريت وبه سمى المكان. وبقى[١٢] فى ذلك اليوم جمل لنا تخلف عليه بعض أصحابنا، فتخلفت لأجله[١٣] مع طائفة من الحجاج. ولم نصل إلى الركب حتى قرب العشاء، وهم نزول. وفى الغد عدلنا عن السبخة يساراً، وسلكنا أطراف الشعاب التى تشرف على الساحل، وهى طريق غير معتادة[١٤] للركب إلا أنها مخصبة صلبة، لايخشى فيها من وحل السباخ

---

(١) ب : أمطرنا　　(٢) « أيضاً » ناقصة فى ط .
(٣) ط : ليسقوا　　(٤) ح : مود .
(٥) ح : سمعنا صوتاً، ط : سمعنا صوتا فى البحر.
(٦) ط : ممن .
(٧) ط : ممن له بعض بأحوال أن ، ح : ممن لهم علم بأحوال البحر أن .
(٨) ب ، ط : وأظنه　　(٩) « يسمى » ناقص فى ط .
(١٠) « إن ذلك » ناقصة فى ط　　(١١) ط : منقطع .
(١٢) ط ، ب : وبقى لنا　　(١٣) ط : فتخلفنا لأجله، ب : فتخلفت لأجلهم .
(١٤) ط : معتاد .

إذا نزل المطر. وفى الغد مررنا بغدران كثيرة وربيع كثير فى تلك الأودية، وذلك[١] أوائل بلاد **سرت**. فلما بتنا قرب **الكحيلة** فى أعلى واد بها ترقب الناس قدوم الشيخ وجماعته إلى الليل فلم يقدموا، وكانوا تأخروا فى بعض تلك الأودية يطبخون غذاءهم[٢]، وتلك عادتهم من يوم خروجنا من الإسكندرية، يتناوبون ذلك فيما بينهم. فكل يوم يأتى[٣] أحدهم بآلة الطبخ والمطبوخ على قدر كفايتهم فيتقدمون أمام الركب[٤] من المنزل؛ فإذا وجدوا محلاً مخصباً نزلوا وطبخوا وأكلوا ورقدوا حتى يجوزهم الركب[٤] فيقوموا. وفى ذلك اليوم كانت المرحلة ذات شعاب كثيرة، فلما فرغوا من أكلهم وركبوا ضلوا عن طريق الركب، وكانوا اثنى عشر رجلاً ببغالهم ومكاحلهم، فذهبوا ذات اليسار فلما علموا أنهم حادوا عن طريق الركب اختلف رأيهم فى السير يميناً وشمالاً[٥] ثم اتفق رأيهم على المبيت إلى الصبح. وبات الناس تلك الليلة يخوضون فى أمرهم، وأوقدوا ناراً على فدفد، ورفعوا مصباحاً على رمح، وضربوا بالطبل والمدافع فلم يقفوا[٦] لهم على خبر. فلما أصبحنا ارتحلنا وظنناهم أمامنا، وذهبنا أمام الركب نقتص الأثر[٧]، فلم نقع لهم على أثر. فبينما نحن كذلك إذ لحقوا بالركب ظهراً. وكان من أمرهم أنهم لما أصبحوا أتفق عزمهم على أن يذهبوا إلى ناحية البحر فلما ساروا قليلاً رأوا أوائل[٨] ركب الجزائر فقصدوهم فلما عرفوهم عدلوا عنهم إلى أن وقعوا على أثر الركب فاتبعوه. ولم نبت تلك الليلة إلى قريب من **الشقة** ، ووجدنا بها أوائل عرب زاوية أولاد سيدى ناصر[٩]. وفى الغد مررنا

---

(١) ح : وتلك (٢) ط : غداهم .

(٣) « يأتى » ناقصة فى ط

(٤) الجمل مابين « الركب » و « الركب » ناقصة فى ط

(٥) ح : يمينا أو شمالاً

(٦) ط : يقعوا (٧) ط : نقتص الخبر أى الأثر .

(٨) « أوائل » ناقصة فى ح (٩) ب : سيد ناصر ، ط : سيد ناهز .

بالشقة ضحى ولم نجد بها ماء. وفى الغد مررنا بقبر نوير[1] ونزلنا مورد الأحمد. ثم ارتحلنا منه ونزلنا قرب الموضع المسمى بالمدينة. وفى الغد مررنا بها ولم نزل نسير ذلك اليوم والغد منه فى مزارع وربيع كثير إلى أن نزلنا **الزعفران**، ووجدنا قصوره خالية من لدن قتل سلطان فزان مع الجهمة والهنادية لعبد القادر، وأخذ[2] أعرابه. وقد جاؤهم غارين ظانين أن لا يقدر عليهم أحد فقتلوه ونهبوهم كما تقدم خبر ذلك.

ثم ارتحلنا منه واستقبلتنا ريح باردة لم نر مثلها قبل ذلك[3]، ودامت طول النهار وغده إلا أنها فى اليوم الثانى أخف. وفيه مررنا **بحسان** ظهراً وهذا الاسم الآن صار علماً على موضع فيه مورد[4] ماء ضنين، قلما يوجد فيه مايكفى الركب إلا فى أزمنة الخصب. وكان فى الأصل اسماً لعامل لبعض ملاك بنى مروان، بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبة بن نافع[5]، أمير إفريقية ومفتتحها، وإرتداد غالب أهل إفريقية. فنزل فى هذا الموضع وبنى فيه قصوراً تسمى إلى[6] الآن قصور حسان. وكان يغير من هناك على إفريقية، وأقام بذلك المحل نحواً من ثلاث سنين، وخبره مذكور فى تواريخ فتوح إفريقية.

وقريباً من هذا المحل لقينا أوائل عرب الجبالى، عبد الرحمن، الذين استنفرهم للأخذ[7] بالثأر، وهو معهم بمحلته من الأتراك وغيرهم. وظننا أنه يعارضنا للسوق فلم يجتمع بنا واجتمع بركب الجزائر. وكان قد حمى واسطة سرت، فلم يقدر أحد من أعرابه أن يتقدم إليها مع غاية خصبها حتى يقدم .

---

(١) ط : قبر نويير

(٢) ح : وأخذوا .

(٣) ب : لم نر قبلها مثل ذلك

(٤) « مورد » ناقصة فى ط .

(٥) الأصل : بن عامر .

(٦) « إلى » ناقصة فى ح

(٧) ح ، ب : الأخذ .

وفى الغد سرنا طول النهار والبحر عن يميننا والسبخة عن يسارنا، وكنا نظن أنا نقطع مخاضة **الهائشة** آخر ذلك اليوم، فلم نقدر وبتنا قريباً منها. وفى الغد لقينا صبحاً بعض الصعاليك ممن قدم من الغرب[١] فأخبرونا ببعض أخبار المغرب[٢] فى الجملة. وقطعنا مشرع الهائشة ولم نجد به شيئاً من الملح، وطلب الناس فيه ولو ما يعشيهم فلم يجدوه لأنها صارت كلها ماء بكثرة الأمطار. ووجدنا ماء الهائشة جله[٣] أقبح مايكون، وكنا ظننا أنه يحلو بكثرة الأمطار فلم تزده إلا مرارة. وسرنا بقية يومنا، وفى الغد نزلنا **بوكدية**، آخر منازل قفير برقة، التى قيل فيها : غرقة ولا برقة.

وفى الغد لاحت لنا أعلام العمارة وظهرت لنا من الدنيا إمارة، وتصايح الحجاج البشارة البشارة، هذا أوائل العمران قد كشف لنا أستاره فأمان[٤]. ودخلنا **قصر أحمد** ظهراً، نظهر فرحاً ونسر ذعراً، لأننا لم نر العمارة دهراً. يخيل إلينا أن المبانى والنخيل شئ ماعرفناه، وإنتشار الناس فى أرجائها أمر ما ألفناه، وكأننا أموات نشروا ومن المقابر حشروا. وما أسرع إنقضاء سفر تنقصته الليالى والأيام، فكيف بعمر مرت له الشهور والأعوام - نسأل الله حسن الختام، على[٥] الإيمان والإسلام، والعفو والعافية على الدوام - آمين .

ولما دخلنا قصر أحمد سألت عن صاحبنا الحاج عبد الله بن غلبون، فدلونى على مسكنه، ولم أجده فيه. فنزلنا[٦] بالفناء حتى قدم فأكرم نزولنا[٧] وأجزل قرانا وعلف خيلنا، وعرض علينا المبيت فأبينا لعدم نزول الركب. وقد طلب منهم أهل البلد النزول متبركين بهم فأبوا، ولم ينزلوا[٨] تلك الليلة. إلى

---

(١) ط : المغرب
(٢) الغرب .
(٣) ح : كله
(٤) « فأما » ناقصة فى ب ، ط .
(٥) ط : بالموت على
(٦) ح : ونزلنا .
(٧) ب ، ط : نزلنا
(٨) ح : يبيتوا .

تكيران، بلد ولى الله تعالى، قطب الزمان وإمام أهل العرفان، سيدى أحمد زروق ، رضى الله ونفعنا به[1]. وسرت أنا وصاحب لى كما نحن، ولم نعرج على منزل الركب إلى أن نزلنا بقرب مسجده، ودخلنا للزيارة والصلاة، وأردنا المبيت فى المسجد فوجدناه غاصاً بالصعاليك من الحجاج وأكثروا فيه اللغط، فذهبنا إلى دار صاحبنا سيدى أبى العباس خادم[2] الزاوية، فبتنا عنده تلك الليلة وأكرمنا، وكانت ليلة الجمعة. وكتب لى سؤالاً فى مسألة من بيع الثنيا، هل تبطل بموت البائع والمشترى ؟ وكتبت له فى ذلك ماحضرنى فى الوقت مرجحاً بطلانها بموت المتطوع بها لأنها هبة لم تقبض كما قيل بذلك[3]. ولم أعلم أن النزاع فى ذلك بينه وبين ابن عمه، مقدم طائفة المجاورين هناك، سيدى عبد الواحد؛ فوجد على فى ذلك[4] فى نفسه، ولم يظهره لى .

وأقام الركب هناك يوم الجمعة والسبت نتعاهد زيارة الشيخ طرفى النهار، والأمطار قلما يخلو منها الجو، وكذلك دأبه من يوم رحيلنا من الجابية قلما يمر علينا يوم صاح، فأخصبت البلد[5] لذلك وغزرت مياهها، فتجد على طرف كل بلد بحيرة من الماء النازل من الجو والنابع من الأرض. وربما أضر ذلك الإبل فى سيرها لكثرة الوحل؛ والغيث كما قيل لايخلو من العيث[6]، سيما على المسافر الذى[7] طال سفره وانتهى وطره. وكان ارتحالنا من سيدى أحمد رزوق يوم الأحد، وبقيت لنا هناك ناقة وهبتها لصاحبنا أبى العباس. وخشى أن يشاركه فيها من بقى من خدام المحل فقال[8] لى اذهب مع ولدى ومكنها له، ولا تقل إنها هبة، ففعلت ابتغاء مرضاته.

---

(١) ط : به آمين

(٢) ب : خديم .

(٣) ط : فى ذلك

(٤) « فى ذلك » ناقصة فى ح .

(٥) ط : فاختصت البلاد

(٦) الأصل : الغيث .

(٧) ط : إنه

(٨) ب ، ط : وقال .

وفى الغد من رحيلنا مررنا بزاوية سيدى عبد السلام ظهراً ، ودخلنا إلى المسجد وزرنا ضريحه، نفعنا الله به. ولقيت سيدى أحمد بومجيب، وقد تقدم التعريف به، وبتنا خارج البلد. وفى الغد مررنا بساحل حامد وزرنا سيدى مفتاح - رضى الله عنه - وبتنا قريباً من آبار السليم. وسرقت لنا تلك الليلة سطلة عظمت علينا المصيبة بها لأنها كانت تكفينا فى أشغال كثيرة، أعظمها تسخين الماء للطهارة لأن الفصل وقت برد[1]. وفى الغد نزلنا النكازة[2]، ونزلنا قرب اينوت. وفى الغد نزلنا وادى المسير[3] بأعلاه[4]، ووجدنا فيه ماءاً كثيراً غزيراً لكثرة الأمطار، وقاسى الناس فى قطعه مشقة، ولم ينزل آخر الركب إلا بعد العشاء، بل بات بعضهم فى عدوته القصوى.

وفى الغد ارتحلنا ورافقت الركب إلى وادى الرمل، وتقدمت أمامه مع بعض أصحابى، ولقينا[5] أهل طرابلس الخارجين للقاء إخوانهم أفواجاً. وبلغنا[6] تاجورا عند الظهر وجاوزناها، واجتمعت بينها وبين الهنشير[7] بصاحبنا سيدى محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعى، خرج للقائنا ومعه طعام يتلقانا به، ورجعنا به معنا. وكنت نويت زيارة الشيخ الصيد [8]. فجئنا إليه، ووصلنا بعد صلاة[9] العصر وتوضأنا وزرنا. ولقينا ولده سيدى عبد الحفيظ، وأخرج لنا طعاماً فأكلناه. ولما دعانا للأكل وكنت بالمسجد تربصت ريثما صليت الظهرين[10] آخر وقتيهما، فعاتبنى على ذلك وقال[11] إذا حضر الغذا تؤخر الصلاة. فهممت أن أقول له إنما ذلك مع اتساع الوقت، فشممت[12] منه رائحة عدم قبول المراجعة

---

(١) ط : البرد

(٢) ب : النفازة .

(٣) ط : واد المسيل

(٤) « بأعلاه » ناقصة فى ب .

(٥) ط : ولقيت

(٦) ط : وبلغت .

(٧) ط : المستسير

(٨) ح : الصيدلانى.

(٩) « صلاة » ناقصة فى ط

(١٠) ط : العصرين .

(١١) ط : وقال لى

(١٢) ط : فتحشمت .

بتركته. وكان له صيت ملأ الخافقين، أصله ديني، فتحول دنيوياً ممزوجاً[(١)] بتدين غمره لإقبال الخلق ونفوذ الكلمة عند الأمراء – والله أعلم بسريرته. وأكثر الناس يقولون بحسنها، ومذهبي التسليم .

وكان شيخنا سيدي محمد[(٢)] بن مساهل من عادته صلاة الجمعة في الهنشير فرجوت أن أدركه فوجدته قد خرج أمامنا. ثم صلينا العصر وسرنا، ودخلنا المدينة قبيل[(٣)] غروب الشمس آخر يوم الجمعة الرابع من رجب [١٣ فبراير ١٦٦٣م]. وتيممنا منزلنا المعهود بجامع الحاج ابراهيم وبتنا فيه. وفي الغد لقيت شيخنا ابن مساهل، ولم يقدم أصحابنا بالإبل إلا[(٤)] قريباً من الظهر، وكانوا قد باتوا قريباً من تاجورا. ولم نجد هناك شيئاً من خبر المغرب[(٥)]. وقلق الناس لذلك[(٦)] فمن زاعم أنه لم يبق به من يجيء ، ومن قائل منعهم الجوع أو الوباء أو الخوف[(٧)]. وأنا في ظني أن الوقت قد تأخر شيئاً ما ، وبعد نحو من جمعة دخلت علينا الأركاب الآتية من المغرب[(٨)]: ركب أهل فاس، وأميرهم الحاج محمد القسيمي؛ وركب أهل مراكش، وأميرهم الشيخ المبارك الحاج إبراهيم الفران؛ ولم يقدم أحد من أهل بلدنا[(٩)] إلا أنه جاءتنا مكاتيب[(١٠)] كثيرة من إخواننا شرحت الأحوال جميعها وأقامت مقام المعاين سميعها. فابتهجنا[(١١)] بها فرحاً وأزالت عنا[(١٢)] ترحاً، وملأت أكفنا وَرَقا (بفتح الراء لا بالكسر). وجبرت بعض ماكان في القلوب لا في القوالب من الكسر. وقاسينا في تلك المدة ما الله

---

(١) ح : ممزحا ، ط : ممزجا

(٢) ح : أحمد .

(٣) ط : قبل

(٤) ب ، ط : إلى .

(٥) ط : خبز الخبر ، ب : خبر الغرب

(٦) ح : من ذلك .

(٧) ط : الخوف أو الوباء أو الجوع

(٨) ط : الغرب .

(٩) ط : بلادنا

(١٠) ح : جاءت مكاتب .

(١١) ب : فابتهجت

(١٢) ب : عني .

(١٣) ب : عالم ، ط : عليم .

أعلم[١٣] به من الشدة، غالب ما نأكل فى اليوم والليلة أكلة واحدة، وقلوبنا مع ذلك شاكرة لله حامدة. وكنا ننتظر شيئاً يصل إلينا من بلادنا[١] نستعين به فى زادنا، فلم نر شيئاً من الإخوان، ولا من أحد من[٢] الأخدان إلا ما وصل إلينا من صاحبنا الصديق الود ، الوثيق للعهد[٣] القديم الإخاء، العزيز السخاء[٤]، سيدى الحاج بوشتا المنقوشى[٥] - ضاعف الله مثوبته، وطيب أحدوثته[٦]، ووقاه من كل[٧] الشرور، وأجزل حظه فى الدنيا والآخرة من جميع السرور[٨]، آمين، آمين، آمين. بعث إلينا عشر[ة] ريالات[٩] مع بعض الحجاج الفاسيين أقمنا بها الأود، وقضينا بها بعض مصالح ذلك الأمد. ولا شئ أشد على من قضاء دين صاحبنا الحاج أحمد العجين الذى استدنته[١٠] من القاهرة[١١]، ووعدته ببعثه من طرابلس ظناً منى لم تصدق مخايله أنه[١٢] يأتينى شئ من البلد، أو ألقى هناك من أتسلف منه. فلما انقشع غيم ذلك العارض وأخلف خلف برقه الوامض، علمت أن لا ملجأ من الله إلا إليه[١٣]، ولا وسيلة أكرم عليه من رسوله المكين لديه[١٤] - ﷺ - فشرعت فى تكميل تخميس البردة المبتدأ[١٥] فى غزة[١٦]، قاصداً بذلك التوسل به إلى الله تعالى أن ييسر خلاص الدين[١٧]

---

(١) ط : بلدنا

(٢) « أحد من » ناقصة فى ط .

(٣) ح : ذى العهد ، ط : بالعهد

(٤) ط : السخى .

(٥) « المنقوشى » ناقصة فى ط

(٦) ط : أحزنته .

(٧) « من كل » مكرراً .

(٨) ح : الخيرات .

(٩) ط : عشرين ريالاً

(١٠) ح : استداينته .

(١١) هامش عن دين القاهرة

(١٢) ط : أتنى .

(١٣) « إلا عليه » ناقصة فى ب

(١٤) ط : عليه .

(١٥) ح : المبتدأة .

(١٦) هامش خاص بذلك .

(١٧) خلاص من الدين .

من وجه سهل. فأكملته فى نحو من أربعة أيام، وأنا فى خلال[1] ذلك أكابد هم الدين، مصدقاً بأثر : لاهم إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع العين.

وفى اليوم الذى أتممت[2] فيه التخميس بل فى المكان الذى فرغت فيه منه من الله[3] بخلاص الدين من جهة أرجو من الله إتمامها بلا كلفة، وقد فعل - فلله الحمد والشكر. وذلك أنى أوصيت بعض أصحابنا أن ينظر لى من يبيع سلعاً من الحجاج بالسعر[4] الذى بلغهم أنها[5] تساوى فى المغرب، ويربح كلفة الطريق والأمن من خطره. فتردد فى ذلك تلك الأيام فلم يجد شيئاً إلى أن يسر الله ذلك فى ذلك[6] اليوم من عند بعض شرفاء مكناسة، وهو السيد[7] إدريس بن أبى عبد الله أحد أهل البيوتات وذوى الثروة والرياسة فى مكناسة. فاشتريت منه بمائة مثقال أشقوبية إلى المغرب[8] ما بيع[9] فى طرابلس بنحو من مائة ريال. فبعثنا إلى صاحب الدين ماله علينا، واسترحنا من هم الدين، وأخذنا فى التجهيز لما يحتاج إليه السفر من الزاد والرواحل والأسباب. فبعنا مافوق وماتحت لشراء الظهر، وفى كل جمعة أركب للعمروس لشراء الإبل، وهو أعظم أسواق طرابلس، تجلب إليه الإبل من كل[10] مكان. وأردت بيع الفرس فيه فلم يتيسر، وكنت أرجع فى كل جمعة أصلى الجمعة بزاوية سيدى محمد الصيّد، وأنا فيما بين ذلك[11] أخرج طرفى النهار للسعى فى قضاء الأوطار[12]. وفى خلال ذلك ترد على بعض[13] الفتاوى من أهل البلد لما سمعوا بى، وأجيب

(١) ح : خلل
(٢) ح : أكملت .
(٣) ط : من الله علىّ
(٤) ط : بالبيع .
(٥) ط : أنه
(٦) « ذلك » ناقصة فى ط .
(٧) ح : سيدى
(٨) ب ، ط : الغرب .
(٩) ط : « أبيع » بدلاً من « مابيع »
(١٠) « كل » ناقصة فى ب .
(١١) ب : بين ذلك ، ط : فيما ذلك
(١٢) النص: «الدين» وكلمة الأوطار تصحيح فى هامش ب . (١٣) « بعض » ناقصة فى ح .

عليها[١] بقدر الحال. وهممت ببيع بعض الكتب فلم أجد من يسأل عنها؛ ولم يزل لطف الله علينا فى ازدياد، وبركته فى تتابع أمداد[٢]. وجاءنى رجل ممن ينتحل العلم من أهل الزاوية الغربية يمت إلى صاحبنا سيدى محمد بن أحمد بقرابة، وكلفنى قراءة بعض التلخيص للقزوينى فقرأ ماتيسر منهه؛ وكلفنى صاحبنا قراءة بعض الألفية. وورد على فى طرابلس صاحبنا وسيدى[٣] أبو راوى من جفدة الشيخ سيدى عبد السلام، وذاكرنا[٤] واستفاد شيئاً فى التوقيت على قصر باعى فيه.

وجاء ونحن هناك مركب معهم كتاب من الخاقان الأعظم يأمر فيه بالزينة التى جاء خبرها ونحن بمصر[٥]. فزينت طرابلس سبعة أيام بلياليها على نحو ماوقع بمصر، وأكثروا من الأعاجيب من تماثيل وتصاوير، فصوروا[٦] صورة الفيل وصورة الجمل ملبساً بجلود الضأن، وفيها رجال يمشون بها حتى لايشك الرائى أنه جمل وغير ذ لك. وتعطل على الحجاج بسبب هذه الزينة جل أسبابهم من بيع وشراء، وزاد ذلك فى أمد عطلتهم طولاً. وجاءنا ونحن بطرابلس خبر سيدى روحه[٧] عبد الرحمن الجبالى أنه أخذ الجهمة وأصحابهم، وزاد ذلك[٨] فى سرور أهل البلد وأميرهم لأنه كان يتوقع عاديتهم[٩]، ويتخوف إنقطاع طريق الجبل الأخضر بسببهم – فوقى الله شرهم بمنه وفضله.

ودخل علينا فى طرابلس ركب أهل تونس فى شارة حسنة[١٠] وفخامة بيئة، فى بشر كثير وسواد عظيم كسواد الليل، يفعم الطرقات كإفعام السيل،

---

(١) ط : عنها
(٢) ط : الأمداد .
(٣) ح : « سيدى » بدلاً من « وسيدى » .
(٤) ب : وذاكر واستفاد ، ط : وذكر واالستفاد .
(٥) هامش – أنظر ماسبق فى مصر
(٦) : ويريصوبو .
(٧) ح : سيد رومه ، ب : سيد روجه
(٨) ب : فى ذلك .
(٩) ح : عداوتهم
(١٠) « فى شارة حسنة » ناقصة فى ط .

يجرون سبع قراريط[1] وخمس محفات زادت فى أبهتهم وزينتهم، وأمبرهم أبو الفضل مفتى تونس ومعه جماعة من كبراء تونس. ومنهم ابن أخى قاضى القدس الشيخ محمد النفاتى[2]، اجتمعت به وسألنى عن عمه وأخبرته أنه يريد الحج فى هذه السنة. وجاء معهم الشيخ العلامة الفقيه المشارك سيدى عاشور القسمطينى، ارتحل إلى الحجاز بجميع أسبابه، وحمل معه جميع كتبه، ونوى الاستيطان والمجاورة فى تلك البلاد. فلما بلغ إلى طرابلس وقع بينه وبين أهل تونس بعض مايقع بين[3] المسافرين فى سفرهم من مراجعة فانخزل عنهم ورجع إلى أهل بلده، أهل قسمطينة. وقد لقيته وتبركت به[4] واستجزته لنفسى ولمن ذكر فى الاستدعاء من الإخوان. وأجاز لى ولهم لفظاً، وهو يروى عن سيدى محمد التواتى[5] عن سيدى عبد القادر بن خدة عن الشيخ السنوسى - رضى الله عنه. ويروى أيضاً عن سيدى محمد السوسى[6] عن المنجور؛ ويروى أيضاً عن سيدى سليمان النقاوسى[7] عن الشيخ سالم السنهورى. وأسانيد الشيخ السنوسى والشيخ المنجور[8] والشيخ سالم السنهورى[9] معروفة فى محلها. وكتبت له يوم لقيته هذه الأبيات الثلاثة :

١ - للشيخ عاشور[10] الإمام الأمجد   حاوى الكمـالات التقى الأرشد

٢ - مدت يدى لتنال كل فضيلـة   علـما وذوقا من إمام مرشد

٣ - حاشى ترد يد إليك مددتهـا   ياحائزا أقصى[11] العلا والسـؤدد

---

(١) ح : كراريط

(٢) ط : النفاتى .

(٣) ح : منى

(٤) ط : « تبركت به » بدلاً من « وتبركت به » .

(٥) ح : النواتى

(٦) ط : السنوسى .

(٧) ط : النقارسى

(٨) ط : المنجورى .

(٩) « السنهورى » ناقصة فى ب ، ط

(١٠) ط : عاشوراء ، ب : عاشورا .

(١١) ح : ياحايزا أقصا .

واعتذر لى عن كتب الإجازة بضيق الوقت، ومزاحمة الأشغال لقرب السفر، فقبلت عذره. وقد كتبت من هنالك[1] كتباً[2] إلى أصحابنا بالحرمين الشريفين ومشايخنا : الشيخ عيسى الثعالبى، والملا إبراهيم بن حسن الكورانى، وصاحبنا الشيخ حسن بن على العجيمى[3] المكى. وكتبت إليهم بإجازات[4] المشايخ لهم. وكتبت إلى شيخنا الملا إبراهيم استنجزه الوعد فى شرح قواعد الشيخ زروق، وبعثت له[5] نسخة من القواعد وكتبت على ظهرها هذه الأبيات. وأخبرت بعد ذلك أن ذلك[6] كله سرق من حامله ولم يصل . ولنذكر الأبيات:

١ - قواعد هذا الفن صونٌ قواعد	يئسن[7] نكاحا ينتظرن قواعدا
٢ - قواعد صدق من إمام محقق	بشرح لمعناها يكون مساعدا
٣ - فيرجعن بعد اليأس يخطبن رغبة	يواصلها[8] من كان قبل مباعدا[9]
٤ - يبين منها مشكلا ويزيح معضلا فيعدن للعفات موائدا[10]	
٥ - تمد لدى أبوابكم كف فاقة	وتبسط للشكوى ذراعا[11] وساعدا
٦ - قواعد فى الأعتاب يبغين فضلكم	فقوموا لها حتى تكون قواعدا
٧ - فقد جمعت علم السلوك وحكمة	وفقها صحيحا واسعا وعقائدا
٨ - وذى كلها هى التصوف[12] فاجتهد	لتودعها من كل فن فوائدا[13]
٩ - وأستوهب التوفيق من ربنا لكم	وعونا على القدر الذى كان زائدا
١٠ - بجاه رسول الله أفضل من غدا	إلى الخير هاديا وللرشد قائدا
١١ - عليه صلاة الله ثم سلامه	يدومان مادام المهيمن[14] واحدا

---

(١) ط : هناك
(٢) « كتب » ناقصة فى ط .
(٣) ح : حسن العجيمى ، ب : بن على العجيمى
(٤) ط : بإجازة .
(٥) ح : إليه
(٦) « أن ذلك » ناقصة فى ب .
(٧) ط : ينشن
(٨) ح : يواصلكا .
(٩) ط : مساعدا
(١٠) ح : ليعدن للعفات مواجدا .
(١١) ط : دراعا
(١٢) ح : التصدق .
(١٣) ط : من كل فرد فرائدا
(١٤) ط : المهيم .

وقد كثر تطلبى[1] من علماء الوقت شرح هذا الكتاب فلم ييسر الله ذلك على يد أحد منهم مع كون هذا الكتاب ليس مثله مما يترك ويهمل[2]، ولا هو مستغن عن[3] الشرح فيؤخذ على ماهو عليه ويحمل، لوجازة لفظة ودقة معناه مع استمداده من علوم كثيرة يتوقف تحقيقها[4] على مشاركة تامة فى جميع العلوم، واطلاع عظيم على نوادر العلوم وغرائبها. وقد وعد شيخنا الملا إبراهيم بشرحه وهو بذلك حقيق[5] إن وفق إليه وأعين – والله خير معين. وكتبت من هناك أيضاً كتاباً لأصحابنا المجاورين فى المدينة المشرفة، أوصيهم فيه بالدعاء، شاكياً إليهم أمر ما وقع فى الغرب[6] من الفتن، خصوصاً بلادنا [7]، وسائلاً منهم أن يرفعوا أمرها إلى حضرة الرسالة ومعدن الجمال والجلالة – ﷺ . وقد ظهر – والحمد لله – أثر ذلك فى الوجود ظهوراً لايشك فيه من علم بالحال، وميز[8] ما كان عليه الأمر وما إليه آل ، خصوصاً فتنة العصابة[9] الناجمة ببلادنا من أهل الغواية، المنتهكين لحرمة[10] الشرع، المسددين سهام إذايتهم لأهل الدين خصوصاً، ولكل من لم يتابعهم على ضلالهم[11] عموماً. فقد أكثرت[12] التأكيد على أصحابنا المكيين والمدنيين فى رفع الشكاية إلى الله بمتبوعهم الذى ثلم فى الإسلام ثلمة لايسدها إلا الذى فيه عيّناه. وقد[13] رأى بعض الفقراء فى واقعة منام إثر وصول الكتاب إليهم أن النبى – ﷺ – فى دار والناس يدخلون عليه فيها[14] أفواجاً . فسأل الرائى عن ذلك ، فقيل له إن

---

(1) ب : تطلابى
(2) ح : يسهل .
(3) ح : مستغنى على
(4) ح : فى تحقيقها .
(5) ح : جدير ، وهى ناقصة فى ب .
(6) ط : المغرب .
(7) ط : بلدنا
(8) ب : وميز بين .
(9) « العصابة » ناقصة فى ب
(10) ب : لحرمات .
(11) ح : ضلالتهم
(12) ط : أكثر .
(13) ط : ومن
(14) « فيها » ناقصة فى ط .

النبى – ﷺ – يبايع الناس على البراءة من فلان. ومن ذلك اليوم أخذ ذكره فى السقوط وأمره فى الهبوط، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون »[١].

وفى ضمن الكتاب[٢] الذى بعثته للمجاورين ثلاثة[٣] أبيات أمرتهم بإلصاقها حذاء المكان الذى كنت أجلس فيه بالمسجد النبوى، يكون[٤] ذلك تذكرة لهم[٥] بقائلها، فيقسموا له من دعواتهم فى أشرف الأماكن. وقد كتبوا إلى أنهم فعلوا – والحمد لله كثيراً على مامن به من ذلك – وهى هذه :

أجيران خير الخلق منوا بدعوة — لمن ناب عنه فى الخطاب بنانه

لئن غاب عنكم شخصه ففؤاده — لديكم رهين[٦] لايفك رهانه

فإن خفتم نسيانه فكتابه — يذكركم به وهذا مكانه

نسأل الله تعالى بجلال وجهه العظيم، ووجاهة نبيه الأكرم الكريم ، أن يرزقنا العود إلى تلك الأماكن المطهرة، وينعم قلوبنا وقوالبنا بالتقلب فى تلك البقاع المنورة، ويحشرنا فى زمرة أهلها أحياء وأمواتاً، ويجعل محبة سكانها لأرواحنا أقواتاً ؛ إنه جدير بالإجابة، قريب لمن وهب[٧] فى دعائه الإنابة[٨]، آمين، آمين.

وممن لقيته بطرابلس مفتيها الشاب الظريف، الأريب العفيف، الفقيه المشارك، سيدى محمد المكى[٩]. بيتهم بيت علم ورياسة دينية[١٠] من لدن

---

(١) قرآن كريم : سورة آل عمران ، آية ١٦٠.

(٢) ب : الكتب .

(٣) ح : ثلاث

(٤) ح : لهم تذكرة.

(٥) ط : ويكون

(٦) ح: رهان .

(٧) ح : واضب

(٨) ح : إلا عليه .

(٩) ب ، ط : المكنى ، وقارن ، فيما سبق، ص ٢٤ وهـ ٥.

(١٠) « دينية » ناقصة فى ح .

إسلامهم[1] إلا أنه لم تكن له رحلة فى طلب العلم. وقد حج مع أبيه فى صباه، ومات أبوه قبل أن يستفيد منه، فقرأ على شيخنا ابن مساهل وعلى بعض متفقهة البلد، فأعانته الحظوة والذكاء ونباهة الذكر[2] وإقتناء الكتب الكثيرة على ولاية منصب الفتوى، بعد عزل شيخنا ابن مساهل؛ وقد تقدم شرح ذلك فى أول هذا الكتاب[3]. وقد شاهدت منه حسن أخلاق، يدل على طيب أعراق. وقد استعرت منه كتباً فما بخل بإعارتها بل استعار لى من غيره كراريس من شرح المختصر، لشيخنا الأجهورى، مست الحاجة إليها لتكميل جزء ناقص عندى. فتوسط لى فى ذلك توسط أمثاله، ولم يقصر عما يقتضيه مجده من رتب كماله، فأوجب ذلك على[4] أن كتبت[5] له بعد إتمام الجزء[6] أبياتاً ثلاثة، أشكر صنعه وأشيد ذكر نعمته التى بذل فى إتمامها وسعه ، لأن الكتاب[7] كان بيد[8] من يضن به عن ملاقاة الهواء ومماسة الهباء، لولا الاستعانة[9] بوجاهة من ذكر وجلالة من شكر[10]؛ وهى هذه :

١ - سأشكر إحسانا بدا[11] منك سيدى وأشكر فعلا منك قد صدق القولا

٢ - ولشكرك الشرح الذى تم نقصـــه لولاك كان النقص قطعا بــه أولى

٣ - وقد قيل من لم يشكر الناس لم يكن ليشكر رب الناس فى كل ما أولى

لطيفة : الحديث شجون سيما عند إرادة تكثير الفوائد وجمع الفنون؛ والشئ بالشئ يذكر، ووصل فائدة بمشابهها لاينكر. وذلك أنى ضمنت الأبيات

---

(١) ط : أسلافهم
(٢) ح : الفكر .
(٣) هامش - أنظر أول الكتاب
(٤) ح : عى ذلك .
(٥) ح : أكتب
(٦) ط : بعد إتيان الجزء لى .
(٧) ب ، ط : الكتب
(٨) ط : بيدى .
(٩) ط : استعانة
(١٠) « من شكر » ناقصة فى ط .
(١١) ط : بذى .

الثلاثة قصيدة بعثتها إلى بعض الفضلاء من الإخوان[1] النبلاء، كنت استعرت منه شرح المواقف[2] للنسخ، فمطلت[3] برده حولا وقد كان الوعد شهراً أو شهرين. فكتبت إليه معتذراً، ولأغضائه منتظراً؛ وقد كنت كتبت في حال الاستعارة قصيدة ليست معانيها من غيرها[4] معارة. فأجاب عنها بأفضل منها ونص ما كتبت [5]:

١- أمولىً غـدا حُرّ الكلام له مـولى ... وبحر[6] ندى لم يخش وارده[7] هـولا

٢- ومَنْ نظمه يسبى العقـول رحيـقه ... سـوى إنه لا إثـم فـيه ولا غـولا

٣- سأشكر إحـسانا بـدا منك سيدى ... وأشكر فـعلا منك قد صدق[8] القولا

٤- ويشكرك المتن الذى تـم شرحـه ... ولولاك كـان النقص قطـعا به أولى

٥- فقد قيل من لم يشكر الناس لم يكن ... ليشكر رب النـاس فـى كل ما أولـى

٦- تطولت حتى طلت غيرك ثم لـم ... تدَعْ لسـواك اليوم طـُولا ولا طـوَلا

٧- فمثلك من أوْلى الجـميل وسوّغ الـجزيل ولـم يطلـب على فعـله قولا[9]

٨- فقد حزت إرث الأولـين وأدْخَلت ... فضـائلك الغرا[10] علـى مـن أتى عوّلا

٩- وعذرا فقد أخلفت وعدى ممـاطلا ... ولم أر شهـرا قبله قد غـدا حـولا[11]

١٠- على أنـها الأيام تعرض تـارة ... وآونـة ترنـوا بعـين لـها حوّلا

١١- فتبـرم[12] أمرا والمقـدر غـيره ... فلا قـوة للعبد فى[13] ذا ولا حـولا

---

(١) ط : إخوان
(٢) ب : المراقب.
(٣) ط : فبطلت
(٤) ط : غير .
(٥) ط : ما كتبت له
(٦) ط : ونحرا .
(٧) ب : واردوه
(٨) ط : صادق .
(٩) ح : قوله فعلا، ط : فعله نزلا
(١٠) ط : الغراء .
(١١) ط : جوّلا
(١٢) ب ، ط : فيبرم .
(١٣) « فى » ناقصة فى ط .

وقد أجاب عن هذه القصيدة بقصيدة له طنانة، ضربت فى الإبداع بسهم مصيب، وحازت من رقة اللفظ وجزالة المعنى أوفر نصيب. بيد أنه تحامى روى قصيدتى لقلته، بل لتعذره وعزته، سيما مع لزوم ما لا يلزم . على أنه قد أتى من بديع النظم بما هو أحزم [١] . ونص قصيدته التى أجاب بها :

١- قواف كأسلاك[٢] العقود على النحر	بها الشعر قد أبدى فنونا من السحر
٢- وطبع يحاكيه النسيم[٣] لطافة	وقد عنبرت أذياله نفحة الزهر
٣- ومجد يُنَبّى عن محاسن من مضى	كما أنبأ الإسفار عن صادق الفجر
٤- أرب المعالى والقوافى ومن غدا	له الفضل مسطوراً على صفحة البدر
٥- أتانى شعر[٤] هذب الطبع لفظه	كما هذب الصواغ صافية التبر
٦- غدا فتنة العقل الرصين كأنما	به قد نفثت السحر فى[٥] عقد الفكر
٧- ومالت بأفكارى[٦] حلاوة لفظه	كما مال سكران على نشوة الخمر
٨- وقلدنى مجدا[٧] وعزا وسؤددا	يرى مثل عقد الدر فى لبة البدر[٨]
٩- حنانيك إن الفكر أدهاه حادث	بهول[٩] وهم قد تلجلج فى الصدر
١٠- ولولا نظام منك أيقظ فكرتى	لكنت بليدا عن نظام وعن نثر
١١- وهبنى صغت الشعر تاجاً مرصعا	ببدر[١٠] الدجا والشمس والأنجم الزهر
١٢- أأرضاه للمجد الذى راع[١١] فضله	وأخرس[١٢] أرباب الفصاحة بالشعر
١٣- عليك سلام من محب تباعدت	به الدار مثل المسك أو عنبر الشحر[١٣]

(١) ب : أحرم
(٢) ح : لأسلاك . (قولة).
(٣) ح : النسيج
(٤) ط : شعرا .
(٥) ح : من
(٦) ط : بأفكارِ .
(٧) ح : فخرا
(٨) ط : الدهر .
(٩) ح : لهول
(١٠) ح : لبدر .
(١١) ح : ذاع
(١٢) ب : أخرص .
(١٣) ب ، ط : الشخر .

ثم كتب بإثر هذا النظام[1] نثراً ، وهو هذا :

حمدا لدهر أطلع فى فلك المعالى شمسك، ولزمان أزهر فى روض السيادة غرسك[2]. لقد اتحفنى[3] منك يتيمة[4] ليس لها إلا نفوس الأحرار قيمة. وأقسم بحسن زين العقود على النحور[5] وأخجل البروق بمباسم[6] الحور، وصير النيرات قنائص[7] أقلامك، والدر والياقوت معادنهما بحور كلامك[8]. لو قدرت لصيرت للك النترة نثراً، والشعر شعراً، فضلاً عن القريض. ولكن كيف[9] حال المريض فليقبل سيدى ما أنا برئ من[10] عهدته، ومتفص[11] عن عقدته، إذ هذه عجالة الإرتجال[12] مع توالى الأحوال[13] وضيق المجال. ولولا الحرص على إرضائك والاعتماد على إغضائك ما سطرت ما[14] إن لحظته لفظته - والله يبقيك وعلى معارج الاصطفائية يرقيك؛ ويعلم الله، وهو المطلع، أنى[15] وإن تناءيت عنك شخصاً فإن قلبى قد صار بحبك مختصاً. فليدع سيدى لأخيه[16] لعل الله أن ينير لنا ما أدلهم ، ويفرج ما أهم، وأن لا يروع سر بنا ولا يكدر شر بنا بجاه المصطفى - ﷺ . أ. هـ. ماكتب.

ولعمرى وماعمرى على بهين إن الإذعان لهذا المعجز من القول على كل بليغ لمتعين. فوالله ما أدرى أى كلاميه أبلغ، وأى ثوبى براعته أسبغ : أنظامه

---

(1) ط : النظم

(2) ب ، ط : عرشك .

(3) ح : اتحفتنى ، ب : اتجعنى

(4) ح : بتميمة .

(5) ط : النحر

(6) ح : بمباسيم .

(7) ب : قلائص

(8) ط : من بحور كلامك .

(9) « كيف » ناقصة فى ب ، ط

(10) ط : عن .

(11) ط : متفق

(12) ح ، ب : ارتحال .

(13) ح : الأوحال

(14) ب : من .

(15) ح : وافى

(16) « لأخيه » ناقصة فى ط .

الذى رقت ألفاظه فراقت[1] معانيه، وضاقت عن استقصاء[2] محاسنه طاقة الفكر لدقة مبانيه، أم نثره[3] المزرى بنثار المسك الفتيق، المتلاعب بالعقول ولا كتلاعب الخمر الرحيق[4]، ما تأملته إلا أبدى لى من محاسنه ما لم أعهد ولا عاودته[5] النظر إلا أشهدنى ما لم أكن أشهد. كأنه روض تلاقت[6] أزهاره، وسالت أنهاره[7] فما عسى يد الناظر فيه[8] أن تقتطف ومن أين لها من كل ألوانه أن تختطف. كلما استجاد شيئاً[9] عاقه عن اجتنائه[10] أجود، وكلما عاود النظر كان العود بالفائدة أعود. وبالجملة فالمنصف اللبيب لا يمترى أنه السهل الممتع[11]، ولا يرتاب أنه الشافى الكافى والقليل المقنع[12]. وما بعد العيان من بيان.

وربما تشوقت نفس الأديب وتطلعت أمنية اللبيب[13] إلى سماع[14] القصيدتين اللتين أوجبتا ذكر ماقبلهما وكانتا فى الحقيقة أصلهما، والكلام يقود بعضه برسن بعض، ومسالكه تتشعب بالطول والعرض، وتتسع بالرفع والخفض، وتتمايز بالقبول والرفض. والأديب لايمل فيها الترداد بل لا يزال نشاطه مع الترداد يزداد. فنذكر[15] القصيدتين وسببهما، وذلك أنى كتبت إليه[16] أولاً نثراً لا بأس به، فرجع الرسول واضعاً إحدى يديه على الأخرى

---

(١) ط : فرقت
(٢) ح : وضاقت على استحسان، ط : الاستقصاء .
(٣) ب ، ط : أنثره
(٤) ط : الرشيق .
(٥) ط : عادته
(٦) ح : تأنفت، ب : تآلفت.
(٧) « وسالت أنهاره » ناقصة فى ح ، ب
(٨) ح : منه .
(٩) ح : استزاد شما ، ب استزاد شيئاً
(١٠) ب : احتياجه .
(١١) ح ، ط : السهل الممتع، ب : المنهل الممتع .
(١٢) ح : القليل المنقنع، ب : القليل المنقع.
(١٣) ح : أمنية السالى اللبيب
(١٤) « إلى » ناقصة فى حد .
(١٥) ط : فلنذكر
(١٦) ح : له .

راضياً من الغنيمة[1] بالإياب، محتسباً فى ذهابه أجراً. فرددته إليه بقصيدة بائية ملحاً فى الطلب ثانية [2]، وهى هذه :

١- أنـا لك المجـدَ موروثـا ومكتسـبا ... زكاءُ أصـل وفـرع أثمـر الحسـبا

٢- ماء الصبا ووقار العلـم إذ[3] مزجـا ... بوجهـك اكتسـبا نورا به التهـبا

٣- هدى إلى بابك الآمـال فيضُ نـدا ... منك سقى من نأى عـنك ومن قربـا

٤- وقد سمـا أمـلى إليـك يقدمـه ... ظـن جمـيل فلا تردده مكتـئبا

٥- وجهت وجه سؤالـى لك حين غـدا ... وجهـك قبلة من فى الخير قد رغـبا

٦- ما كان ظنى أن الوفـد من أملـى ... ومن كتـابى يعودان كـما ذهبـا

٧- حتى أتى رائدى سفر اليـدين وقـد ... غـدا بخفى حنين منك[4] محتـقبا[5]

٨- فعاتبـتنى وساوس الصـدور فلـم[6] ... أعـبأ بهـا فرددت الوفد منقلـبا

٩- فقلت عـودا علـى بدء فعـد أملـى ... إن الجـواد إذا استوهبتـه[7] وهـبا

١٠- [8]وللمـقادير[9] أوقات قربتـما ... صادفت غيث نـداه اليـوم منسكـبا

١١- قد يخلف النـوء أحيانا فيعقـبه ... غيـث يكون لـذاك النوء[10] منتسـبا

١٢- فإن يعد ثانيـا مـن دون رغبـته ... فـلا أردنـه[11] بالرغـم محتسـبا

١٣- حتى أنال المنى أو يقضى[12] الناس من ... فعلـى وفعلكـم[13] فى ذلك العـجبا

١٤- بأن يقولوا وحاشا الجود غاص[14] وقد ... أبلـى[15] الفتى العـذر فيما فيه قد دأبـا

---

(١) ط : « بالغنيمة » بدلاً من « الغنيمة ». (٢) ب : ثانيا .

(٣) ط : مذ (٤) ب : بخفى عينى عنك .

(٥) ط : مقتحبا (٦) ط : الصدر فلم، ب : الصدور ولم .

(٧) ب : استوهبه (٨) ب : ولى المقادير، ط : وللمقادر.

(٩) ح : النداء

(١٠) ح: هذا البيت يأتى بعد الذى يليه وهذا الأخير ناقص فى ب.

(١١) ح : فلا أرددنه، ط : فلاردته. (١٢) ط : « ويقضى » بدلاً من « أو يقضى » .

(١٣) ط : أو فعلكم (١٤) ح ، ب : غاض .

(١٥) ط : أبى .

١٥- وإن يعد بالمنى فسوف أنشر ما يملأ أسماع من يهواكم طربا

١٦- أشدوا بشكركم[١] واستعين على أداء واجبه إخوانى الأدبا

١٧- أودعه الكتْب[٢] منظوما[٣] وأنشره بين المحافل أقضى[٤] منه[٥] ما وجبا

١٨- لكى يقول بنو[٦] الآداب[٧] أبلغ فى شكر[٨] كما أكثر الإلحاح إذ طلبا[٩]

١٩- وإننى بكلا الأمرين مضطلع لو مسنى وصب[١٠] لا أشتكى[١١] نصبا

٢٠- وقد وجدت مكان القول ذا سعة كما وجدت لسانا قائلاً دربا[١٢]

فلما بلغته القصيدة بعث الكتاب[١٣] ومعه جوابها من بحرها ورويها، وهو هذا :

١- ما روضة جادها[١٤] مزن قد انسكبا والفجر ينثر[١٥] من عقد الرجا[١٦] شهبا[١٧]

٢- فافترّ زهر أقاح[١٨] الروض من طرب والشمس ما رشفت من ثغره الشنبا

٣- ولا الكؤوس ولو لاحت أشعتها كأن حمرتها خدّ قد التهبا

٤- على أغان غوان[١٩] فى دجا سحر تصبى الوقور[٢٠] بشدو يبعث الطربا

---

(١) ب : أنت وأنشدك
(٢) ح : الكتب.
(٣) ب : شعريا
(٤) ب : اقضوا .
(٥) ط : عنه
(٦) ح ، ب : بنى .
(٧) ط : الأدب
(٨) ط : شكراً .
(٩) ط : والطلبا
(١٠) ح : نصب .
(١١) ب : لا شكى
(١٢) ط : ذربا .
(١٣) ح : بالكتاب
(١٤) ح ، ب : زادها .
(١٥) ط : ينشر
(١٦) ب : الرجا .
(١٧) ط : الشهبا
(١٨) ح : زهر اللقاح، ط : زهر القاح.
(١٩) ب : أغار غوار
(٢٠) ب : الرمور .

٥- ولا وصـــال حبيـــب زار عن شَحَــط ... فرد للجســـم روحـــا كـــان مغـــتربا

٦- عندى بأحســـن من شعـــر ينمقـــه ... من قد[1] غدا علمـــا فـــى الشعـــر للأدبا

٧- النــــاثر الدر فى طـــوق المـــها روان ... خـــطّ وأبلـــغ من أملـــى ومن كتـــبا

٨- ذو مقول ترهب الكتـــاب[2] صولتـــه ... تخاله من غـــرار الســـيف محتـــضبا[3]

٩- شمس العلوم تبـــدت فى سمـــا دول ... تزيح أنوارهـــــا الأحـــلاك والحـــجبا

١٠- وافت خليلـــك أبيات[4] خجلت لها ... تبدى اعتـــذاراً و تخفى تحته غضـــبا

١١- إن صدرت هفوة من خلكم سفهـــا ... يظل ماعـــاش منـــها الدهـــر مكتـــئبا

١٢- فجد بعفـــوك إن العفـــو من كرم ... والعفو من أحسن الأشيالمن[5] غلـــبا

١٣- لِمْ لا أنيلك ما ترجـــوه من أمـــل ... وأنت تولـــى لراجيـــك الذى طلـــبا

١٤- وكيـــف أمنـــع من إدراك بغيـــته ... من بلـــغ الطـــالبين الســـؤل والأربا

١٥- كل يساء بمـــا يعطـــيه من نشـــب ... يامـــن يسر بمـــا يعـــطى إذ وهـــبا

١٦- لاتلزمنى ذنبا[6] ساقـــه قـــدر[7] ... أدهى[8] وأغرابنـــا[9] الأحـــداث والـــنوبا

١٧- وبينـــنا ذمم ترعـــى[10] شرائطهـــا ... فكيف نهجـــر منك العلـــم والأدبـــا

١٨- هذا جوابـــى عن أبيات شعركـــم[11] ... ومـــن يساجل بحـــراً مـــاج واضـــطربا

١٩- لازلت تحيى[12] رسوما للعلا اندرست ... ماقبّلـــت وجـــنات الورد ريـــح صبا[13]

---

(١) « قد » ناقصة فى ب

(٢) ط : الكتب .

(٣) ح ، ب : مقتضباً

(٤) ط : أبيات .

(٥) ط : الأشياء

(٦) ط : ذنب .

(٧) ح : القدر

(٨) ب : أدعى .

(٩) ط : بناء

(١٠) دهم لم نرع .

(١١) ط : شعرك

(١٢) ب: محى .

(١٣) القراءة فى ب « الرود صبا » .

ومن جملة ما وصل إلينا من المكاتيب [١] من المغرب كتاب من صاحبنا الأريب الأديب[٢] سيدى عثمان بن على ، ومن جملتها قصيدة له فائية [٣] أردت إثباتها هنا ، وهى هذه . وقبلها نثر بليغ وهو [٤] :

من ترك الجسم رهنا واللب وهنا ، وأصلى الفؤاد بنار البعاد ، وأعرض ولم يبال وأسلم إلى وبال ، وأغاب وأطال ، وأذاب[٥] وصال . فلولا[٦] التعلل بلقائه لم يحقن[٧] من الحب فضل دمائه . المعنى بهذا التغزلُ والمْطلوب منه التفضل بالتوصل ، فقد طال على الكئيب أمد الهجران وأمضه التأسف والهوان ، فقال منشدا ، ولبعض لهب [٨] الأسى مخمدا [٩] :

١ـ أهاجــــرة بعد الوصـــال لها إلـــفا	وغـادرة من كان أوفى لها ألـــفا
٢ـ ومحرمة جنبـــا له خـــير مضجـــع [١٠]	ومانعة للظلـم من ظَلْمهــا رشــفا
٣ـ أجاج[١١] الهوى جوانح الصب مُذْهَبـا	إذا رام فتحا منك أتحفته[١٢] حتفا
٤ـ رقـدت هنيئا إذ قـــدرت على النـــوى	وجفن محب من بعادك لا يغفا[١٣]
٥ـ وأضرمت[١٤] جمرا فى الحشـا ورجمته	فرجمك لا يتقى[١٥] وجمرك لا تطفا
٦ـ وأزمعت صـرما دون [١٦] عفـــو كأنني	قرفت من الأوزار ما عنه لا يعفا[١٧]

---

(١) ط : من المكاتب .

(٢) ط : الأديب الأريب .

(٣) ط : فائتة .

(٤) م : «وهو» ناقصة فى ط .

(٥) ح : وأذال .

(٦) ب : قبوله .

(٧) ب : يحق ، ط : يبق .

(٨) «لهب» ناقصة فى ط .

(٩) ط : محمدا .

(١٠) ب ، ط : مضطجع .

(١١) ح : أزاح ، ب : أحاح .

(١٢) ط : تحفا .

(١٣) ط : وجفن محب من جهادك لا يقضا ، ب : ومن محب من عبادك لا يغفا .

(١٤) ط : فحمرك لا ينفى ، ب : فرجمت .

(١٥) ب : وأضمرت لا يبقا .

(١٦) ط : دون رفق ، ب : وورمن .

(١٧) ط : لا يخفا .

٧ـ حكيت صديقى فى خلائق[١] تقتضى   مواصلة الأحزان [٢] والبشر لا يلــفا
٨ـ إخالكمـــا حسبتمـــا ان جفــوهـــا   تركت الهوى كلا فلم أفضض الطرفا
٩ـ صدود كما أغرى[٣] الفــؤاد وماســـلا   بحقكما عن صد صاحبكما كفا [٤]
١٠ـ صلانى أغيثانى ذمامى[٥] أبقيا فإنى   وإن[٦] طال الجفا [٧] ارتجى [٨] العطفا
١١ـ صديقى ثـدى الأنس أرضـع مرضيـــا   به القلب[٩] منى قبل ثم ارتضى الحيفا[١٠]
١٢ـ فأعقب أنـــس بالتناســـى ومـا درى   بأن الردى فى الطرد كيف به كيفا[١١]
١٣ـ وأشرع رمح الهـجر بالصـــد جاهـراً   وسل إلى قتــلى بجفــوته ســـيفا
١٤ـ فإن كان عمرو عن صديقى ســـائلا   فذا ابن جـلاء فى الأحبة لا يخفــا
١٥ـ هو العرف[١٢] واعدد من عداه منكرا   وعند أولى العـرفان ما أظهر العــرفا
١٦ـ أبو ســالم[١٣] لازال دهر[١٤] مسالما   له أبـدا ولا عـدمته لى إلـــــفا
١٧ـ أبا ســالم [١٥] أفجعتنـــى بتخـــلف   وصيرتنى ذا غربة للأسى حلـــفا
١٨ـ أبا ســالم شــوقى للقيـــاك شـــفنى   فهل منكم وصل يزيل الذى شفا[١٦]
١٩ـ أبا ســالم أوحشتنـــى وتركتنـــى   مريضا فهل طب بطبك يستشفى[١٧]
٢٠ـ أبا سالم عهدى بكم أرأف[١٨] الورى   فما بالكم[١٩] عدتم أفضهم أجفا
٢١ـ أبا سالم أجرحت صـــدرا لودكـــم   صديقا[٢٠] وقط لا يرى يقبل الصرفا

(١) ط : فى خلائقى .   (٢) ب : الأحرار .   (٣) ب ، ط : أغر .
(٤) ب : بخلكما عن صاحبكما كفا ، ط : بحفكما عن حبكما كفا .
(٥) ب : دمائى ، ط : دماء .   (٦) ب : ولو ، ط : فلو .
(٧) « الجفا » : ناقصة فى ط .   (٨) ح : ارتجفنى .
(٩) ط : فى القلب .   (١٠) ب ، ط : الجفا .
(١١) ط : فانسنى بالتاسى ومادرا بان الود فى الطرُ كيف به كيفا .
(١٢) ح : المعرف .   (١٣) ح : أبا سالم .
(١٤) ط : دهرا .   (١٥) ط : أبو سالم .
(١٦) ط : شرقا .   (١٧) ح : يشتفي .
(١٨) ح ، ب : اراو .   (١٩) ح : فمالكُم (وهى مستقيمة وزنا ومعنى) .
(٢٠) ب ، ط : صدر لود لكم صدقا ، ص : صدرا لودكم صديقا .

٢٢ـ فلولا المبيــح للتخــــلف والنـــوى لما صافحت كفى لكم فى اللقا كفا

٢٣ـ ولكن أجبت[١] فى مجــاورة الـذى لإكرامه أعيت محاســنه الوصــــفا

٢٤ـ بلغت الذى تنسى الأحبـــة عنــــده ويرمى بكل الأهل من أجله خلــــفا

٢٥ـ أرحت فؤادى[٢]إذ أزحت[٣] عناءه بمكث لدى من كان فى شدة كهفا

٢٦ ـ شفيت جنانا بالحضور[٤] وطـالما[٥] بغيبته[٦] على شفا الهلك قد أشـفا

٢٧ـ ومتعت نفسا فى بقـــــاع شــريفة ونزهت دون الريب فى حسنها الطرفا

٢٨ـ هنيئا لك الجـــوار بعد زيــــــارة لسيد كل الخلق من عدم الألفا[٧]

٢٩ـ أعلل نفسى والتعـــــلل باطــــــــل وهيهات لا يجدى[٨] لعل ولا سوفا

٣٠ـ تمنى ولــو[٩] أن التمنى حاصــــل أسير مع الركبان يحصل لى الزلفـــا

٣١ـ ولكن حبسى[١٠]عن رفاق[١١]مقـدر وهمى فى التدآب لا يقبـل الكشفا

٣٢ـ فعندى من الأثقال[١٢]ما يمنع السرى[١٣] وعندى من الأوزار ما يوجب الخوفـــا

٣٣ـ وأســأل[١٤] ربى أن يمـــن بتـــوبة تخفف وزرى علنى أنـزل الخيفـــا

٣٤ـ وأزكى صـــلاة اللـــه معْهَـــا تحيـــة على أحد تنهـلّ كالمُزْنة الوَكْــفا

٣٥ـ وأهدى ســلاما وافـرا ناميــــــا إلى أبى ســالم لا زال من همه يكــفا

ومن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدى محمد بن العلامة[١٥] الفهامة ، الناسك الخاشع الجامع بين علمى الظاهر والباطن ، سيدى عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون[١٦] القسمطينى ـ رضى

(١) ب : أحبت ، ط : أصابت .

(٢) ح : فؤادا .

(٣) ط : أزحت .

(٤) ط : بالحظور .

(٥) ب ، ط : وظالما .

(٦) ط : بغينيه .

(٧) ط : الأكفا (مقصود الأكفاء) .

(٨) ح : لا يجذى .

(٩) ب ، ط : « لو » بدلا من « ولو » .

(١٠) ح ، ط : حسبى .

(١١) ح : وفاق .

(١٢) ط : الاتقان . .

(١٣) ب : الاسرى .

(١٤) ح : وأسأل إلا .

(١٥) « بن العلامة » ناقصة من ط .

(١٦) ط : الفكونى .

الله عنه ونفعنا به ـ ، قدمها حاجا وهو أمير ركب أهل الجزائر[1] وقسمطينة وتلك النواحي على نهج أبيه وعادته[2] في ذلك ، محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة والحلم والوقار ، فأحبته القلوب ومالت اليه النفوس . ولم يطلع أميرا إلا في هذه السنة وقبل ذلك إنما كان[3] يطلع بالركب والده ـ رضه . فلما توفى قام ولده هذا مقامه في ذلك ـ أعانه الله وسدده ـ وكانت وفاته ـ رضه ـ عشية الخميس السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٠٧٣ شهيدا بالطاعون ، وكانت لنايه ـ رضه ـ وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججنا[4] معه في سنه ٦٤ [١٠] . وقد قال لى[5] ـ رضه ـ لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته إني أقول لك كما قال الإمام الشاذلي ـ رضه ـ « لك ما لنا من الحرمة [6]، وعليك ما علينا من الرحمة » ، وكان ـ رضه ـ في غاية الانقباض والإنزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرسوم ، بعد ما كان إماما يقتدى به فيها . وله في كثير منها تآليف[7] شهد له فيها بالتقدم أهل عصره . فألقى في قلبه ترك ذلك ، والعكوف على حضرته بالقلب[8] والقالب ، والتردد إلى الحرمين الشريفين ، مع كبر السن [9]، وكان يقول إذا ذكر له شيء من هذه العلوم : قرأتها لله وتركتها لله [10]. وقنعت منه ـ رضه ـ بالكلمة التى قالها لى لما علمت حاله ، وخشيت أن أثقل عليه وأكلفه مالاتطيب [11] به نفسه، فإنه ـ رضه ـ من أهل القلوب . ومروياته ـ رضه ـ مستوفاة في فهرسة شيخنا أبي مهدى عيس الثعالبي ، فنحن نروى عنه جميعها بواسطته [12]. فلما لقيت ولده هذا تقربت له وانتسبت له بمعرفة والده ، فوجدت عنده بعض علم

---

(١) ب : الحجاير .
(٢) ط : وعاداته .
(٣) « كان » ناقصة في ب ، ط .
(٤) ح : حججت .
(٥) « لى » ناقصة في ب .
(٦) ح : الخدمة .
(٧) ط : وله منها كثير تأليف .
(٨) « بالقلب » ناقصة في ط .
(٩) ط : ش .
(١٠) ط : قرأناها لله وتركناها لله .
(١١) ط : أو أكله بما لا تطيب .
(١٢) ط : بواسطة .

بى. وقال لى: أنت[1] الذى وصل إلى الوالد كتبك[2] المبعوث[3] من وادى ريغ[4] قبل موته بعام ؟ فقلت : نعم . ورحب[5] بى ، وهش وبش وآنس ، ووجدت عنده عدة[6] من مؤلفات والده وبعضها بخطه ـ رضه ـ فأعارها لى مدة إقامته هناك ولم تطل إقامته[7] . فمنها شرحه على أرجوزة المكودى فى التصريف ، وهو مجلد أجاد فيه غاية الأجادة ، وأحسن كل الإحسان ، وأعطى النقل والبحث فيه حقهما ، ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفظ المشروح ومعناه إلا تكلم عليه وأجاد كما هو شأنه فى تآليفه .

وأول خطبته : الحمد لله الذى أجرى تصاريف المقادير[8] بواسطة[9] أمثلة الأفعال ، وأوضح بيان افتقارها إليه بتغير حالتها من حركة وصحة واعتلال، ونوع أشكال عين وجودها إلى ضم الإنضمام إليه ، وكسر الانكسار لديه ، وفتح الانفتاح فى مشاهدة العظمة والجلال . ولا يخفى عليك[10] ما اشتمل عليه هذا المطلع من براعة الافتتاح ولطيف الإشارة إلى أنواع الإعراب والتصريف . وقد فرغ من تأليفه أوائل صفر من عام ١٠٤٨هـ [١٦٣٨م] . وشرحه هذا أوسع نقلا ، وأكثر بحثا ، وأتم تحريرا من شرح العلامة سيدى أبى عبد الله محمد[11] المرابط الدلائى . ولا أدرى أيهما سبق إلى شرحه . ومن تآليفه ـ رضه ـ ديوانه فى مدح النبى ـ صلعم ـ المرتب على حروف المعجم . وكتب عليه مما يمدح به[12] عند الغمة وساعة الغياهب المدلهمة . والتزم أن جعل مبدأ كل سطر حرفا من حروف « الهى[13] ـ بحق الممدوح اشفنى ؛ آمين » . وجملة ذلك خمس

(١) ح : وقال : أما أنت .

(٢) ح : وصل إلى كتابك للوالد .

(٣) ط : المبعوث .

(٤) ط : ربع .

(٥) ط : فرحب .

(٦) « عدة » ناقصة فى ط .

(٧) « ولم تطل إقامته » فى ح .

(٨) ب : المقارد .

(٩) ب : واسطة .

(١٠) ط : عليه .

(١١) « محمد » ناقصة فى ح .

(١٢) « به » ناقصة فى ب ، ط .

(١٣) ط : اللهى ، ح : الاهى .

وعشرون حرفا ، ففى كل قصيدة مثلها أبياتا ، فلنذكر بعضها تبركا . فمنها فى روى الهمزة :

١ـ أبدرا بدت[1] فى الخافقين ســـعوده ونورا به الألوان أضحت تـــلألأ

٢ـ له فى العلى أعلى المراتب رتبة[2] وفى[3] مراقى ذرى[4] العرفان قدما مبوأ[5]

٣ـ أضاء وجود الـــكائنات ببعثـــه وطلعته الغرا من الشمس أضـــوأ

٤ـ هو الغيث أحيا[6] الأرض بعد مماتهـــا وخاتم كل الرسل ثمت مبـــدأ

٥ـ يرى ذا لواء[7] الحمد فى الحشر إذ غدا مكينا وفى الأهوال للخلق ملجـــأ

٦ـ بمولده للأرض فخرا[8] على الســما وحق لها بالفخـــر وهـو المنبــأ

٧ـ حوى ليـلة المعـــراج كل فضيـلة وأم بها نعـم الإمـــام المــبرأ

٨ـ قرير العين[9] عاد بالسؤّل والمـــنى وتوّجه المولى بما هو أهنـــأ

٩ـ أتم له بالفـرض أشـــرف خلعـــة وأخدمه الأملاك والحجب توطـــأ

١٠ـ له المعجزات الغر أسطع[10] نورهـــا وأرفعها قدرا مدى الدهر يقـــرأ

١١ـ مكين أمين صادق القول مرتضـــى به القلب يجلى عنه ما كان يصدأ

١٢ـ مآثره محمودة فـــوق ما أتـــى[11] به من بديع الذكر للعرف منشأ[12]

١٣ـ دعا فاستجابت[13] فى المعاد أدخارهـا أراح بها كلا فللجمـــع تخبـــأ

١٤ـ وكم له من آى كـــرام[14] شـــهيرة أصابعه أروت إذا الجيش يظمـــأ

---

(١) ط : بدى .

(٢) ح : أعلى العلى رتبة ، ب : الملا أعلى العلى رتبة.

(٣) « فى » ناقصة فى ط .

(٤) ب ، ح : ذوى .

(٥) ط : هبوأ .

(٦) ب : أغيا .

(٧) « يراد لواء » فى ب ، ط .

(٨) ب : بمولده الأرض فخر .

(٩) ح : لعين .

(١٠) ط : مطلع ، ب : سطع .

(١١) ب : «التربه» بدلا من «ما أتى به» .

(١٢) ب ، ح ينشأ .

(١٣) ح : فاستجاب .

(١٤) ح : كريم .

١٥ـ حنين لجذع وانقياد لدوحـــــــة [١] كما قمر قد شق نافيه يشـــنأ [٢]

١٦ـ إشارة كف عندما الشمس فاخـــــرت قضى طمسها فالضوء لابه يعبأ[٣]

١٧ـ شكا جمل أشكاء[٤] والضب إذ لجـــا بذعر فنال الأمن والذعر مــــدرأ

١٨ـ فلله كم قد[٥] حاز من معجز وكــــم له من[٦] سنى القدر والله يــكلأ

١٩ـ بنى له الجـله العظيم فمــن أتـــــى حماه نجا والهون لاعنه يطـــرأ

٢٠ـ ينادى الحمى يا من يلــــوذ ببابنـــا له الأمن والأوصاب[٧] تشفى ويهنأ

٢١ـ أيا خير[٨] خلق الله أنهيت قصتــــــى إليك فإن الجسم بالسقم يـــرزأ

٢٢ـ أنلنى المنى من جود طَـــــــوْلك أننى على ظمأ من منهل العذب أمـلأ

٢٣ـمنادى الشفا مما به الجسـم مبتلــــــى تشفع فذو الآلام ينجـــو ويبـــرأ

٢٤ـ يمين جرت من ناظـــم عــن تيقـــن بأن لك جاه ليس داعيه يخســـأ

٢٥ـ نظمت وقد أهديت أبغى الرضى غــــدا وما هو فى الأبيات للصدر مـبرأ

قافية الباء [٩] :

١ـ أحبتنا إنى[١٠] كلـــفت بحـــب مـــن له العـــز قدما والرســـالة منصب

٢ـ لدا نوره الأنــــوار تخبـــوا وكيف لا ومنه استمدت والشواهد [١١] تكتب

٣ـ أيا ســـيدا فـــاق النبييــــن كلــــها وبـــــدر له فـــوق المراتب مرتب

٤ـ هديت نفوسا بعدما[١٢] ضل ســـعيها ومولدك الأسنى به القلب بطـــرب

---

(١) ب : وانقباد لروحه .

(٢) ط : يشأ .

(٣) ب : يا أضوء لا به يعبأ .

(٤) ب : أشكى .

(٥) « قد » ناقصة فى ط .

(٦) ط : « سنى » بدلا « من » .

(٧) ب ، ط : الأوصاف .

(٨) ط : أخير .

(٩) القصيدة البائية ناقصة فى ط .

(١٠) ح : نى .

(١١) ب : والشواهد .

(١٢) « بعد » ناقصة فى ب .

٥ـ يفوح ذكاء[١] المسك من ريحك التى بها طابت الأكوان والريح أطيب

٦ـ بطلعتك الغـراء أشرقت الدنيـا وأضحى عن الاشرك للناس مهرب[٢]

٧ـ حللت من العرفـان كل محلـة بذا كانت الأرسال تنبى وتخطـب

٨ـ قرأت سطور السر لما سريت إذ تقدمت عن جبريل تدنى[٣] وتقرب[٤]

٩ـ أتاك النّدا يا أفضل الخلق أقبـلن[٥] فكنت[٦]كقاب القوس بل أنت أقرب

١٠ـ لك البغية العظمى فسل تعط وارغبن أبحْنا لك الأكوان إذ فيه ترغب[٧]

١١ـ منحناك قربا لا لغيرك مطمـع إليه وأعطيناك ما أنت[٨] تطلـب

١٢ـ هناك سراح الطرف متّع تطـولا أزلنـا عن الأبصـار ما كان يحجب

١٣ـ دنوت وحيدا إذ دعيت لحضـرة بها الأين والآثـار[٩] تفنى وتذهب

١٤ـ وتُوِّجت يامحبوب[١٠] تاج كرامـة وبالكاس من بحر المعارف تشـرب

١٥ـ حظيت بما حُلّيت من خلعة البهـا وطوقت فرضـا بالمهـابة يُرقـب

١٦ـ أتيت كليم الله[١١] بعد تـردد إليه بتخفيـف لما كان يصعـب

١٧ـ شكوت له[١٢] إذ ما وما لك دعـوة بقدر الحيـاء والجـلالة أرهـب

١٨ـ فنزهت فى الفردوس نفسا بهيـة وفى ملكـوت الله طـرا تقـلب

١٩ـ نهضت لهذا السر فى بعض ليـلة رجعت من المسرى وما الليـل يذهب

٢٠ـ يروم العدا التنقيص عند سمَاعهـا فما كان إلا والبراهين تضـرب

٢١ـ أتى العير بالتصديق مرأى ومخبـرا وفى المسجد الأقصا دليـل يرتب

---

(١) ب : ذكى .

(٢) ح : للباس مرهب .

(٣) ب : تدنا .

(٤) « تقرب » ناقصة فى ب .

(٥) ب : افعلن .

(٦) ب : فكانت

(٧) ب : يرغب .

(٨) ب : كنت .

(٩) « الآثار » ناقصة فى ب .

(١٠) ح : يامحبوبا .

(١١) ح : كلام الله .

(١٢) ب : لك .

٢٢ـ أيا مالك الأوصاف فقت الورى فمــا   به خصّك المولى من الذكـر أعجب

٢٣ـ معالم دين الله قــد ســطرت بـــه   وأنباء صدق والأماثل تقـــرب

٢٤ـ ينادى عليل الجسم غوثا ببابكـــم   فيشفى كما الأسقام عن ذاك تسلب

٢٥ـ نهضت بمدحى[١] مستغيثا وطالبــا   فلاحا[٢] وما فى أول السطر يجلب

قافية اللام :

١ـ أعينى جــودا[٣] بالدمـــوع تأســفا   لصب نحيل الجسم زايـله عقـل

٢ـ لدى غصنى[٤]لفح من الحب فانمحت[٥]   محاسن وجه ذاب[٦]إذ بقى الشكل

٣ـ أذاعت شهود الوجد كامن[٧] دفقـــه   فأضحى المحيا كاسفا ضاء من قبـل

٤ـ هللت لنيران النوى سر[٨] أضلـــع[٩]   فياليت كان الوصل وانتظم الشمل[١٠]

٥ـ يبيت من الأشواق قلبى معـــذبا[١١]   كملدوغ رقط[١٢] أو تناصله النبـل

٦ـ بناظر[١٣] عينى لاح ساطع نـــوره   على روضة الخضراء حيث بدا الوصـل

٧ـ حوت غبة لم يخلق اللـــه مثلهـــا   ولا شابهته الأنبياء ولا الرســـل

٨ـ قراه[١٤] بها مسك يفوح لنا شـذا[١٥]   وغرته الأنوار كلا بها تجـــلو[١٦]

٩ـ أتت به أخبار مضت كتبها بهـــا[١٧]   هواتف صدق بان من وصفها الفضـل

---

(١) ب : بمدح .
(٢) ب : بلاغا .
(٣) ط : جود .
(٤) ط : لذا عضه .
(٥) ح : فانتحت .
(٦) ط : ذات .
(٧) ب ، ط : كان .
(٨) ح : النواتس .
(٩) ط : أطلع .
(١٠) ط : الشعل .
(١١) ط : معذب .
(١٢) ب : لقط .
(١٣) ب : فناظر .
(١٤) ب : فداه ، ح : نداه .
(١٥) ب ، ط : شدا .
(١٦) ط : تجلى .
(١٧) ح : كتب بها .

١٠ـ لمولده الأسنى تـــدلت كـــواكب وحفت به الأملاك وازدحم [١] الحفل

١١ـ مزاياه عند الوضع جاءت شـــهيرة فقد حضرته العين لما انقضى الحمل

١٢ـ مكارمه إذ ذاك أبـــــدت فضـــائلا لذا[٢] جاء مسرورا بكَحْل الهدى كُحْل[٣]

١٣ـ دنت شـــرفا للها شمـــى محمـــد ملائكة تسعى بخدمته [٤] تعـــلو

١٤ـ وقد صانه الرحمن من كشف سـوءة توالد مختونا فليـــس له مثـــل

١٥ـ حوى الطست والإبريق أيدى مـلائك[٥] كما حوت المنديل من سندس تجـلو[٦]

١٦ـ أزالوا من المنديل خاتم صـــــدقه به ختموا ظهرا فقد كمل النبـــل

١٧ـ شريف المحيـــا غســـله قـد بـدا إذا بماء من الإبريق نائـــله جـــزل

١٨ـ فألقوا عليه جفنة خـــوف أن يـــرى بسبق لجدّ[٧] إذ تلاحظه الأهـــل

١٩ـ تريد فأملاك[٨] له الطـــرف نَزّهـت لدى ملكوت الله والسر لم يخـــل

٢٠ـ يحجبون أقطارا[٩] وقد كتبـوا اسمـه على ورق الأشجار والشيم[١٠] الغفل

٢١ـ أيا نخبة لم[١١] يخلق اللـــه مثلها جنّيت[١٢] وبالأوزار ينهكنى الثقـل

٢٢ـ أتيت ذليلا خائفا بابـــك الـــذى به أمن المذعور وانقشع المحـــل

٢٣ـ محلك غوث والعليل به التجــــا تريح من الآلام كى يذهب الشكل

٢٤ـ يحن طبيب للمصـــاب وأنت لى طبيب ومنك الطب إذ[١٣] ما بدا السؤل

٢٥ـ نسائلك التخليص من كل عاهـــة وفوز الرضى والسؤل من مبدأ يجلو[١٤]

---

(١) ب : وارحم .

(٢) ط : رذا .

(٣) ط : المكحل .

(٤) ط : بخدمته .

(٥) « ملائك » ناقصة فى ب .

(٦) ط : تحلو .

(٧) ب : مجد ، ط : فجراء .

(٨) ح : بأملاك .

(٩) ب : يحومون أقطار .

(١٠) ب ، ط : واستيم .

(١١) ب : من لم .

(١٢) ط : جنت .

(١٣) ب : إذا .

(١٤) ح : يجل .

قافية الياء :

١ـ أيا باهر الإشراق يا غايـــــة المنـــــى	ومن حاز فى تشريفه الرتبة العــــليا
٢ـ لوجهك يا بدر الكمال تلألـــــــؤ	وغيث به الأكوان إذ ما بدا تحيــــا
٣ـ أزحت[١] ظلام الشرك بالطلعـــة التى	أضاءت كما أوليت من نورها هديا
٤ـ هداك صـــــــــراط مستقيم من اقتفى	مراشده استهدى وقد جانب الغيا[٢]
٥ـ ينجى من العاهات معتصمـــا بــــــه	وقد جاء بالبشرى كما يدفع الخزيا
٦ـ به فاز من قد فاز ياخير مرشـــــــد	لذا [٣]ورث الفردوس إذ ورث الوحيا
٧ـ حوى كل علم سابقا ومؤخـــــــرا	وأهدى إلى من قد[٤] يناضله العيا
٨ـ قوارعه[٥] من نظمه قدّت [٦] الحشـــا	فما [٧]وجدوا طعنا ولا أظهروا اليا
٩ـ أيا من سما فوق السموات والعــــلا[٨]	وجاوز كل الحجب يرقى إلى البغيـا
١٠ـ لقد[٩] جئت ياذخرى[١٠] وكنزى وعدتى[١١]	ليوم تعاد[١٢] الخلق فيه كما هيـا[١٣]
١١ـ مصينا من الزلات ضارع علـــة[١٤]	توالت على من نابذ الكفر والخزيا[١٥]
١٢ـ مدحتك والتقصير شأنى[١٦] وشيمتـى	وقد خفت من ربى إذا جئته حيـــا
١٣ـ دعانى الصبا للهو حتى أقامنـــــــى	مقاما ترانى قد خبثت به السعيا[١٧]
١٤ـ ولعت[١٨] بآثامى زمـــان شبيبتـــى	وحَمّلها الأهواء ما حسنت رأيا[١٩]

---

(١) ط : أرحت .
(٢) ب : العليا .
(٣) ب : قد .
(٤) « قد » ناقصة فى ط .
(٥) ط : قد ارعه .
(٦) ط : قرت .
(٧) ب . ما .
(٨) ب : والعليا .
(٩) ح : وقد .
(١٠) ب ، ط : يا دخرى .
(١١) ب ، ط : وعمدتى .
(١٢) ب ، ط : تمادى .
(١٣) ب : قصيا ، ط : نصيا .
(١٤) ح : غلة .
(١٥) ب : توالت على من نابد الفكر ، ط : توالت عن مد ذا بذا الفكر .
(١٦) ط : شيمى .
(١٧) ط : سعيا .
(١٨) القراءة فى ب تحتمل « تعبت » أو « وعبت » .
(١٩) ط : وحملتها ... وما حنت ريا ، ب . وحملها ... وما حنث ريا .

١٥ـ حللت محل الجود والفضل[١] ابتغـى نوالا يزيح الذنب كي يكسب[٢] المحيا

١٦ـ أغثنى إذا ما الموت أحكم سـكرتى بحضرتك الحسناء[٣] تصلح لى الوصيا

١٧ـ شفاعتك العليا أراعى بمحشـرى لتستر زلاتى وتسقط لى البغيـا

١٨ـ فظنى جميل فيك يا أكرم الـورى عطاء بث[٤] جزلا كما تحسن الرعيا

١٩ـ نريد حوار الخلق معك[٥] وفى الدنا فلا تحرمنى ما به مصلحتى تحيـا

٢٠ـ يحقق أمالى ويدفع كربتـى مديحك يا مختار أكرم به ربـا[٦]

٢١ـ أما والذى أحيا بك الكون إننـى ببابك راج ما تلبثت[٧] فى الدنيـا

٢٢ـ ألم يك للمهدى جزاء يسـره على من له أهدى بشرعك ذى الفتيا

٢٣ـ مواهبك الفضلى طلبت لمنبتـى جزاء على مدحى[٨] وأنعم به البغيـا

٢٤ـ يمن عظيم الجود من سيح بحـره بتحقيق أمالى كما يكرم اللقيـا

٢٥ـ تثاب بنظمى[٩] رؤية الله فى غـد وسؤلى وما بالبدء من ذى وذى ثنيا[١٠]

ولنقتصر على هذه القصائد تبركا بمن قيلت فيه ، وبنفس هذا الشيخ المبارك ـ رضه ـ وأخرها بخطه : تم بحمد الله وحسن عونه هذا المديح فى المصطفى المليح الفصيح ، فى ليلة الجمعة وقت العشاء منها ، ليلة ٢٣ من جمادى[١١] الأخرى[١٢] من سنة ١٠٣١هـ[٧مايه ١٦٢١م] ـ عرفنا الله خيره، وكفانا شره ـ بجاه رسول الله وأصحابه وأوليائه. وأسأله[١٣] بحرمة المديح والجاه أن يعجل بالشفاء الذى لا سقم معه ، ويتحف بالمطلوب وما هو لى فيه مرغوب ، إنه سميع مجيب مع عقب صالح ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(١) ط : ذو الفضل .
(٢) ط : يحسب .
(٣) ط : الحما .
(٤) ط : عطاءت أبت .
(٥) ب ، ط : فيك .
(٦) ب : رأيا .
(٧) ط : تلبثت .
(٨) ح : مدح .
(٩) ح : بتظم .
(١٠) ب ، ط : وسولى وما بالبدء من ذى ريا .
(١١) ط : جماذى .
(١٢) ح : الأخيرة .
(١٣) ب : وأهلة .

ومن تآليفه ـ رضه ـ **جزء في تحريم الدخان**، سماه : محدود[1] السنان في نحور إخوان الدخان . وهو في عدة كراريس مشتمل على أجوبة عدة من الأئمة ، وقد لخصنا بعضه بحسب ضيق الوقت ، ولنذكر ذلك هنا[2] تتميما للفائدة ، وهذا نص ما قيدته :

الحمد لله ، سئل الأجهورى من علماء المالكية بالقاهرة المحمية ، من علماء العصر ، عن حكم الدخان ؟ فأجاب : الدخان المذكور ليس مسكرا قطعا، لأن المسكر ما غيّب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب . وهذا إن سُلّم أنه يغيب العقل ، فليس معه[3] نشوة وطرب ، كما هو مشاهد وأخبرنا به جمع[4] كثير ممن يفيد خبرهم العلم الضرورى . وإذا لم يكن من المسكر ، وسلمنا أنه يُغيب العقل ، فيجرى على حكم المفسد والمرقد ، فيُحرَّم على من يغيب عقله ولا يحرم على من لا يغيب عقله [5]. وهذا يختلف بأختلاف الأمزجة وكثرة الاستعمال وقلته ، لأن المفسد هو[6] ما غيب العقل دون الحواس لامع نشوة وطرب . والمرقد هو ما غيب[7] العقل والحواص جميعا ؛ صرح ائمتنا بأنه يجوز للشخص أن يستعمل منهما القدر الذى لا يغيب العقل ولو لغير ضرورة .

وممن ذكر ذلك القرافى صاحب الذخيرة ، والشيخ خليل فى توضيحه ، وابن غازى فى تكميل التقييد وغيرهم هـ . وعليه مؤخذات . فقول الشيخ المذكور : « الدخان ليس بمسكر قطعا » يؤذن بأن علة التحريم عموما منوطة بالإسكار حتى يصح له الاستدلال ، وعليه فحَذَف الكبرى من المقدمتين للعلم بها ، والسياق يرشد إليها ؛ والتقدير فيها « وما ليس بمسكر فليس بحرام »

---

(1) ح ، ب : محدد .
(2) « هنا » ناقصة فى ح .
(3) ب : مع .
(4) ط : وأخبر جمع .
(5) ط : عليه .
(6) الأصول : وهو .
(7) ط : يغيب .

وهذا[١] غير صحيح ، لأن التحريم غير خاص بما [٢] فيه الإسكار، وهو[٣] أوضح من أن يوضح . ولا يعتقد فى المجيب إرادته إلا أنه[٤] اقتضاه اللفظ والكلام على مقتضى الألفاظ .

فإن قلت لا نسلم أنه مقتضى العبارة إلا لو كان المحذوف المقدر ما قدرتموه ، وليس كذلك ، لأن الثانية [٥] من المقدمتين هى ما أشعربها قوله بعد ذلك : « وإذا لم يكن من المسكر[٦] وسلمنا أنه يغيب العقل ». قلت فهم هذا من كلامه بعيد لمن وقف مع ظاهر الألفاظ التى هى قوالب المعانى ، وذلك لأن قوله[٧] : « وهذا إن سلم أنه يغيب العقل » دليل عنده على أنه لا يغيبه[٨] بقرينة أن الشكية الداخلة على فعل سلم فإذن[٩] التسليم الواقع على طريق الجدل وقوفا مع الأداة[١٠] وظاهر اللفظ . وإذا حكم بمتضاه فهو عنده لا يغيب العقل ولم[١١] يتضح فى المقدمة الثانية إلا ما قررناه لعدم الجامع بين المقدمتين ، وهو اشتراكهما[١٢] فى الحد الوسط . لا يقال فعل[١٣] التسليم الداخل عليه إن هو تسليم انقطاع لا تسليم جدل حتى يلزم ما ذكرتم ، بل ليس عنده إلا ما ذكر من كونه مغيبا للعقل ، وحينئذ لا يصح أن يكون قوله بعد ذلك « وإذا لم يكن مسكرا » هو المقدمة الثانية [١٤] . لأنا نقول : حمل الكلام على هذا يورث ركاكة ونفورا لسماعه لذوى الألباب ، فلا ينبغى أن يتأول[١٥] لهذا الشيخ المجيب[١٦] مثله.

---

(١) ط : هذا .

(٢) ط : وهذا .

(٣) ب ، ط : لما .

(٤) ب ، ط : ولا أنه .

(٥) ط : لأى ، ب : لأن .

(٦) ب ، ط : وإذا لم يكن مسكرا .

(٧) « لأن قوله » يقابلها بياض فى ط .

(٨) ب : لا يغيره .

(٩) ح : فإن .

(١٠) ب ، ط : الأذات .

(١١) ب ، ط : لم .

(١٢) ط : اشتراطهما .

(١٣) ب : فعلم .

(١٤) ح : مقدمة الثانية .

(١٥) ط : يتناول .

(١٦) ح ، ب : المحب .

وأيضا ذكره في بيان تعْليل نفى أن[1] المسكر ما غيب العقل ينافيه ، إذ لو كان عنده مغيبا للعقل[2] لاقتصر[3] فى نفس الإسكار عنه على الصفة الخاصة به[4] فقط . فإن قلت فى الكلام حذف دل عليه أمران : أحدهما قوله قطعا ، فهو يؤذن بأن المنفى قطعا إنما هو الإسكار ، وغيره ليس محقق الانتفاء بل هو معروض لتطرق الاحتمال وهو كونه مغيبا للعقل . والثانى ما يفهم من قوله « وسلمنا أنه يغيب العقل » وحينئذ فكأنه قال ليس بمسكر قطعا ، وهو مغيَّب احتمالا ، أى[5] أن الدخان مقطوع بنفى اسكاره ومحتمل لتغييب[6] العقل . وإذا لم يكن مسكرا وسلمنا تغييبه العقل فيجرى الخ ..، فيمكن إذن أن يكون نظم[7] الدليل على هذا النمط ؛ قلت لا يخفى ضعفه . أما أولا [8] : فلأن طريق أهل المناظرة أن الدعوى المسلمة فى شأن[9] حال على طريق[10] الجدل مرجوحة، والراجح اعتبار عدمها [11] . وإنما سلمت لإقناع الخصم وتدريجه[12] إلى ما هو أجلى فى نظره ، وعلى هذا فيبطل ادعاء[13] كون قوله ، « إذا لم يكن مسكرا » مقدمة . وأما ثانيا : فلأنه أخلاها من دليل يدل على كونه مغيَّبًا ، سلمنا كونه مقدمة ثانية ، فيرِد عليه ما ورد أولا من أن علة التحريم ليست[14] منوطة بالاسكار وتغيب العقل ، ولا إشعار لنفى الأخص بنفى الأعم ، سلمنا ذلك . فقوله « فتجرى على حكم المفسد والمرقد » غير صحيح . أما أولا : فلاقتضائه الشك فى كونه مرقدا وليس كذلك ، لأن المرقد ما غيب العقل

---

(1) ط : بأن ، ب : فان .

(2) « للفعل » ناقصة فى ح .

(3) ح : اقتصر .

(4) « به » ناقصة فى ط .

(5) ح : أبى .

(6) ح ، ب : لتغيب .

(7) ط : نظم .

(8) ط : الأول .

(9) ح ، ب : ثانى .

(10) ب : عن طريق عن طريق .

(11) ح : والرجح عدم اعتبار عدمها .

(12) ح : وتدريبه .

(13) ط : دعاء .

(14) ب ، ط : ليس .

والحواس ، وهذا لا غيبة معه للحواس بالمشاهدة . وأما ثانيا : فلما فيه من مجارات الشيء على حكم نفسه . فإن قلت ، هذا غير لازم لأنه أحال على ما هو أعم من المسألة ، فهو أمر بأن يجرى فى الإباحة وعدمها على ما ليس بمسكر مما وافقه فى صفته . وإنما يلزم ما ذكر أن لو حكم فيه بحكم المفسد تعيينا ثم أجراه عليه . قلت : لما نفى عنه أن يكون مسكرا من حيث انتفاء النشوة والطرب ، تعين أنه سليم الحواس . وتسليمه تغييب[1] العقل مع ذلك حكم عليه بأنه مفسد لدخوله فى تعريف المفسد من الأقسام الثلاثة ، فاتضح[2] ما ذكرناه لمن أنصف واتبع الحق ولم يتعسف .

ثم لجأ المجيب فى صحة الصغرى بدعوى نفى الإسكار إلى دليلين : الأول[3] المشاهدة والثانى الأخبار المفيدة[4] العلم الضرورى . وكلاهما لا ينهض حجة على ما أدعاه . أما الأول فلأن المشاهدة إنما يحكم بمقتضاها فيما هو متعلق لها ، وإنما يصح ذلك أن لو كان مدلول الإسكار عربدة الساكر وتمايله[5] ورقصه وغير ذلك مما تتعلق به لمشاهدة[6] ، وليس كذلك ، وسيأتى إن شاء الله . وإنما الاسكار نشوة وطرب يتعلق أمره بالقلب فتارة يعظم فينتشر أثره[7] على الجوارح فيحصل معها ما ذكر ، وتارة تقتصر[8] على فرح قلبى وزهو لبى ولذا كثيرا ما نشاهد متناول الخمر[9] : لا يحصل منه ما يظهر على جوارحه من العربدة ونحوها ، وهو[10] سيما بعضهم بل لا يكون سكره إلا قاصرا على حالة الباطن . فَهِمْ فى ذلك باعتبار الأشخاص والأمزجة والطبائع . وإذا ظهر لك ما قررناه علمت بطلان ما ذكره المجيب من كون المشاهدة دليلا على عدم السكر.

---

(1) ب : وتسليم تغيب .

(2) ط : فلا تصح .

(3) ط : أولها .

(4) ب ، ط : المقيد .

(5) ح : وتماثيله .

(6) ح : مما يتعلق بالمشاهدة .

(7) ح : فينتشر أمره .

(8) ط : تقصر .

(9) ح : وهذا كثيرا ما يشاهد من متناول الخمر .

(10) « وهو » ناقصة فى ح .

فإن قلت هذا مسلم إلا أنا لم نشاهد من أصحابه دلالة ظاهرة على سكره ولو نادرا ، ألا ترى الخمر وإن كان لا يميل[١] بعض الناس عيانا فقد[٢] شاهدنا منهم من يعربد ويظهر أثرها للمشاهدة [٣]. قلت إذا عرفت ما ذكرناه في[٤] الإسكار ظهر لك الجواب عن[٥] هذا الايراد فيمكن أن يكون سكر الدخان مما لا يبلغ ظهور أثره للحس والمشاهدة [٦] ، وإنما هو منوط بالباطن فقط ، ولا يشترط في حقيقة الاسكار[٧]ما تشاهد من حال بعضهم في عرابيده كما أشرنا إليه قبل ، وسيأتي تمامه إن شاء الله .

وأما الدليل الثاني فهو الذي يعبر عنه بالتواتر ، وهو معارض بخبر من أثبت[٨] له نشوة وطربا ، وكثيرا ما سمعنا ممن يتناوله أنه يجد لنفسه معه نشوة وطربا ، وأن منهم من أقلع عنه ونبذه لذلك الحال الوجداني ، ومنهم من أسر على ذلك والعياذ بالله . ويدل لما ذكروه من النشوة والطرب استغراق أربابه الأزمنة في شربه ، وتفويت ما لديهم من الأموال في جلبه [٩] ، ونسيان ما سواه من منافعهم حالا ومآلا عند شربه ، وعدم التفاتهم إلى لوم لائم وعذل عاذل ، وماذاك إلا لما استغرقوا في شربهم إياه من السرور والنشوة،وبهذا استدل الشيخ[١٠] سيدي عبد الله المنوفي على أن الحشيشة ذات نشوة وطرب حسبما ذكره تلميذه الشيخ[١١] خليل ـ رحمه الله ـ في توضيحه على أن الخبر الذي أراده إن كان مستنده أصحاب[١٢] شربه فلا ينهض حجة لما فيه من الاتهام . وقد اعتبروا

---

(١) ب ، ط : يبلج .
(٢) ب : قد .
(٣) ط : بمشاهدة .
(٤) ح : من .
(٥) ح : من .
(٦) ب ، ط : للحس المشاهدة ، ح : الحس المشاهدة .
(٧) ح : « حقيقته » بدلا من « حقيقة الاسكار » .
(٨) ط : أتيت .
(٩) ح : « لشربه » بدلا من « في شربه » .
(١٠) ب : جبله .
(١١) ما بين « الشيخ » و « الشيخ » ناقص في ط .
(١٢) ب : أصحابه .

شرط[١] نفي الاتهام فيما اعتبر من عدد التواتر حسبما نقله الأصوليون . وذكر التفتازاني[٢] في كتاب التلويح في اشتراطهم[٣] في التواتر أن لا يمكن[٤] تواطؤهم على الكذب ، أن هذا الشرط عند المحققين تفسير للكثرة بمعنى أن المعتبر في كثرة المخبرين بلوغهم حدا يمتنع عند العقل تواطؤهم/على الكذب حتى لو أخبر جمع غيرمحصور بما يجّوز توافقهم على الكذب فيه لغرض[٥] من الأغراض ، لا يكون متواترا . وأنت خبير بما في تلقي نفي[٦] السكر منهم من الغرض الفاسد الموجب الاتهام في بقائهم على ما هم عليه من تناول ما أغتبطوه، واستمرارهم عليه .

فإن قلت : المقرر عند أهل الأصول عدم اشتراط العدالة فيمن يفيد خبرهم العلم ، بل حكموا بافادته العلم ولو كانوا ذوى فسق . قلتُ : يفيد ذلك بما إذا لم يخبروا[٧] عما لهم[٨] فيه أرب وبغية . وأما ما لهم[٩] فيه أرب وشهوة كهذه المسألة ، فلا كما تقدم قريبا . فإن قلت : ما حملت عليه كلامه يخالف[١٠] ماقرره القرافي في تنقيحه حيث جعل ما مدركه الوجدانيات في فصل غير فصل التواتر ، فهو مما أفاد العلم ضرورة بطريق غير طريق التواتر ، وكلام المجيب يوافقه حيث قال : وأخبرنا به جمع عظيم ممن يفيد خبرهم العلم الضروري . قلتُ : تنقده[١١] التادلي قائلا بعد أن ذكر تمثيل القرافي له بإخبار كل واحد منهم أنهم وجدوا الطعام الفلاني شهيا ـ أو كرها أنه راجع إلى التواتر المعنوي ، ثم هذا[١٢] كله إن كان المعتمد في نفي الاسكار خبر من أمر بتركه وأباه ، كما

---

(١) ط : شروط .

(٢) ب ، ح : التفتراني .

(٣) ط : اشتراطه .

(٤) ط : لا يكون .

(٥) « لغرض » ناقصة في ب .

(٦) ح : السعي .

(٧) إذا لم يكونوا يخبروا .

(٨) ب ، ط : أعمالهم ، ح : بما لهم .

(٩) « حالهم » ناقصة في ط .

(١٠) ط : بخلاف .

(١١) ط : تنقله .

(١٢) ط : إن هذا .

شاهدناه من أهل بلدنا ، وما هم عليه فيه من التعصب الجاهلى [١] . وأما من[٢] ليس بهذه المثابة فيكفى فى تضعيفه ما قررناه قبل من[٣]معارضته بقول من أثبته.

فإن قلت : نا فى الإسكار هم من الكثرة بحيث يبلغ من قبول الخبر والصدق مبلغ الضرورة ، ومثبته على ما زعمت أفراد [٤]، فلا يعدو[٥] خبر الواحد ، فيسقط التعارض . قلت : حيث ما ثبت الإسكار ثبت التحريم ، وانتفاؤه فى بعض الأشخاص أو جلها لا يبيحه لما تقرر من : « درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة » . بتقديم المحذر[٦]على المبيح على أن خبر الواحد إذا احتفّت[٧] به قرائن أفاد العلم كما تقرر فى فن الأصول ؛ وقد قدمنا ما هو قرينة لذلك . وإذا ضعف المدرك الثانى للمجيب ضعفت قطعية نفى الإسكار المأخوذة من دليل[٨] إباحة شربه .

وقوله فيحرم على من يغيب عقله ، ولا يحرم على من لا يغيب عقله يقتضى بحسب الظاهر أن حكم المرقد والمفسد كذلك . ولم يذكر العلماء ذلك فى المفسد والمرقد بل أطلقوا[٩] القول بتحريمه فى عموم الأشخاص . نعم على ماذكره القرافى حسبما نقله عنه وعن تابعيه يحرم ما يغيب العقل منه دون مالا يغيب معه . وعليه فصواب العبارة [١٠] : فيحرم استعمال قدر ما يغيب العقل منه ، ولا يحرم استعمال القدر الذى لا يغيبه . وفرق بين العبارتين[١١] لم يلزم على عبارته من جواز تناول من لا يغيب عقله القدر الذى يغيب العقل معه فى غيره ، وذلك فاسد لثبوت تغيب العقل معه فى ذلك ــ فيحرم ولو تخلف .

---

(١) ح : الجهلى .
(٢) ط : ما .
(٣) « من » ناقصة فى ح .
(٤) ط : افزاز .
(٥) الأصول : يعدوا .
(٦) ط : المحضر .
(٧) ب : اجتمعت .
(٨) ح ، ب : فى دليل .
(٩) ط : أطلقوا له .
(١٠) ط : ما بين « العبارة » والعبارتين » ناقص فى ط .
(١١) ط : كما .

فإن قلتَ : يلزم مثله فيما إذا كان قدرا لا يغيب معه العقل لأن تلك الذات فى الجملة تثبت لها التغييب فيحرم تناوله مطلقا ، وهو باطل لما[1] نص عليه العلماء من جواز تناول القدر الذى لا يغيب معه العقل كما تقدم . قلتُ : القدر المذكور لم يثبت له وصف التغييب قط ، فهو سالم من موجب الحظر[2] بخلاف ما ثبت له وصف التغييب فى صورة ، فقد وجب فيه الحكم بالتحريم . فحيث ما وجد ذلك القدر وجب إبعاده ، صاحبته[3] تلك الصفة أم لا . وقوله هذا يختلف باختلاف الأشخاص .. الخ تسليم منه لكونه يغيب العقل كما أشرنا إليه قبل ، وإقرار بعدم انضباطه فى شخص معين ، وقدر مبين ، وهو بعينه معتبر فى الإسكار بدلالة[4] المخبر عن[5] إثباته ، فلا يكون إفادة[6] خبر الجمع عن نفيه ضرورة بالإطلاق . وإذا جاز إسكاره وعدم إسكاره بتعدد المحال[7] والمقادير ، صح امتناع تناوله لما قدمناه سدا للذرائع[8] المبنى عليه[9] مذهب مالك ـ رضه ـ ولقدم تيقن أن هذا الشخص المأذون له فى تناوله ممن لا يسكره ؛ ولما ورد فى الصحيح : ما أسكر كثيره فقليله حرام . إذ العلة الإسكار ، وحيثما ثبت[10] لذات[11] وجب تحريمها فلا فرق فيه إذن بين ما أسكر منه وغيره ، كما هو معلوم بين الأئمة وعلماء الأمة . وقوله : لأن المفسد وهو ما غيب العقل والحواس ... الخ، دليل على إرادة الاحتمال الأول من الاحتمالين اللذين ذكرنا، وهو ينافى فحوى كلامه من أن الدخان لا يغيب الحواس كما قررناه . وقوله : «صرح أئمتنا بأنه يجوز للشخص ... الخ » ، هو مع تيقن القدر الذى لا يغيب

---

(1) ط ، ب : مما .

(2) ب ، ط : الحضر .

(3) ح ، ط : ضاجعته .

(4) ح : بدليل .

(5) ح : عن .

(6) « فلا يكون إفادة » ناقصة فى ط .

(7) ب : الحال .

(8) ح : من سد الذرائع .

(9) ح ، ب : عليها .

(10) ح : وحيث ثبت ، ط : حيثما ثبتت .

(11) ب : لذاب .

العقل [١]. وأما مع نفي ذلك فلا ؛ فإذا ظن الغيبوبة أو شكها فكما لو تيقنها في طلب مباعدة المباعدة[٢] من تناوله . وقوله : « ممن ذكر ذلك القرافي .. الخ» ، من[٣] نسب إليهم سوى القرافي ليس ما ذكر قولالهم ، وإنما هم[٤] نقلة عن القرافي[٥] بلفظه ، إلا أن يقال حكايتهم له عنه ، وتسليمهم إياه[٦] له يتنزل منزلة القول به ، وهو مسألة خلاف .

وكنت أطلعت أول ما فشا شربه ـ أعني الدخان ـ بهذه البلدة على جواب فيه يذكر أنه لمفتي القيروان ، خدم به حضرة أمير إقليمه إذ ذاك ، طال عهدي به[٧] ولم آخذ فيه بالحزم حتى أحفظه أو أنسخه[٨] تهاونا بشأن المسألة إذ ذاك ، لما[٩] لم أظن يصير أمر الدخان إلى ما شاهدته [١٠]. ثم نقل كلاما في تحريمه لصاحبه الأستاذ المقرى أبي عبد الله محمد السوسي[١١] المتوفى بالجزائر سنة ١٠٢٣هـ [١٦١٤م] ، وبحث[١٢] معه في استدلاله ، ونقل ما استحضره من كلام جمال الدين مفتي القيروان وأبطله . ثم نقل أجوبة في تحريمه منظومة لبعض الفاسيين ، ولمفتي القسنطينية[١٣] أبي محمد سعد الدين . ثم قال فاعلم أن الكلام على اجتناب الدخان من ثلاثة أطراف : من حيث ذاته ، ومن حيث صفته [١٤]، ومن حيث عوارضه . وقدم مقدمة في أن المؤمنين أمروا بما أمر[١٥]

(١) ط : العقل معه .

(٢) ط : في طلب مساعدة .

(٣) ط : ممن .

(٤) ح : هي .

(٥) « عن القرافي » ناقصة في ط .

(٦) « له » ناقصة في ح .

(٧) « به » ناقصة في ط ، ب .

(٨) ط : حافظه وأنسخه .

(٩) « لما » ناقصة في ط .

(١٠) ط : ما شاهدناه .

(١١) ح : الاستاد أبي عبد الله محمد السوسي المغربي ، ب : الاستاذ المقرى أبي عبد الله محمد السنوسي .

(١٢) ط : يبحث .

(١٣) ح : قسنطينه ، ط : القسطنطينة .

(١٤) ط : صفاته .

(١٥) ط : بما أمروا .

به الرسل : من أكل الطيب ، وهو المستلذ ورجحه أو الحلال [١] . وإن الدخان ليس بمستلذ[٢] طبعا ، وليس بمباح لأنه كريه الرائحة . والنبى مأمور باجتناب خبيث الرائحة وكريهها [٣] ؛ وكذلك المؤمنون لأمرهم بما أمر به الرسل . فعلى هذا فهو[٤] مطلوب الترك . أما على وجه التحريم أو الكراهة ، فانتفت[٥] الإباحة؛ والإدمان على المكروه حرام .

ثم قال : الطرف الأول فى اجتنابه من حيث ذاته لنا عليه أدلة . أحدها أن نقول : الدخان خبيث الرائحة كريهها وكل[٦] ما كان كذلك فالشرع طلب إجتنابه ، بيان الصغرى واضح لذى طبع سليم ، وبيان الكبرى ما فى المقدمة من أن المراد بالطيب ، الحلال أو المستلذ ، وبه[٧] أمر الرسل وأمر المؤمنون بما أمر به الرسل . ولا شك أن النبى مأمور باجتناب كريه الرائحة وكان يكرهها ولا يحسن[٨] بمسلم أن يحب ما يكرهه الرسول إلى أن قال : ولا يخطر ببال[٩] من يألف جنس الدخان من الطبائع فى الحيوان البهيمى ، فضلا عن أرباب الألباب ؛ حتى أن النحل[١٠] تترك ما كابدت عناءه لأجله .

ثم ذكر وقعة الجراد الوارد فى سنة ١٠٢٣هـ [١٦١٤م] ، ١٠٥٤ هـ [١٦٤٤م] حتى عم الأفق كثرته ، وأجدب[١١] السهل والجبل وطأته ، حتى كان قنطرة على الوادى يجوز الناس على متنه ، ويرمى بأضخم حجر فيمسكه متنه عن الوادى ، وتغير منه ماء الوادى ما يزيد على شهر ، وصار كالقطران ولا

---

(١) ط : « والجلال » بدلا من أو الحلال .
(٢) ط : مستلذ .
(٣) ط : وكريهه .
(٤) ح : وهو .
(٥) ب : وانتفت .
(٦) « كريهها » ناقصة فى ح .
(٧) ب : « به » بدلا من « وبه » .
(٨) « كان يكرهها » ناقصة فى ح .
(٩) ب : فى الحال ، ط : بالحال .
(١٠) ط : النحيل .
(١١) ط : وأجذب .

يشرب منه [1]؛ ففقد الماء وغلا واستعانوا على تنفيرها[2] بالدخان وذلك حين اشتهار[3] أمر هذا الدخان ، وكأن الله عاقبهم عليه بهذا الجراد ، وتنبههم بنفورها منه وهم لا يبصرون .

ثم قال حيثما تقرر بالدلائل طلب اجتنابه تعين أنه غير مباح ، فرأيه[4] بين التحريم والكراهة ؛ وقد قيل بالقولين في الثوم ونحوه ، لأن التحريم لأهل الظاهر . ثم ذكر أن المستلذ في الآية لا يمكن أن يفسر بحساب طبائع[5] جميع الناس ، فوجب اعتبار طبائع[6] العرب الذين بعث فيهم الرسل ، فكل[7] ما يستطيبه العرب فهو حلال ، والمحرم[8] الخبيث[9] لا يستطاب عند الشافعي .

وأما الطرف الثاني فأدلته أن الدخان نار والنار يجب اجتنابها لباطن الجسد، فالدخان يجب اجتنابه لباطن الجسد . أما أنه نار فلأن حقيقته على ما قال الأطباء أجزاء هوائية ممتزجة بأجزاء نارية . وذكر رؤيا ، وهي أن رجلا[10] كان يشرب فرآه الشيخ في النوم في دار يكثر الترداد إليها ، ولامه على الدخان . قال ، وقلت له إنه[11] يثقل اللسان عن[12] الموت عند ذكر الشهادة ، ولم أطلع على من وصفه بذلك . فقضى الله بعد ذلك أن وقع للرجل سبب أوجب كثرة دخوله لتلك الدار فظهر[13] تصديق الرؤيا .

انتهى ما قيدت منه مستعجلا لضيق الوقت[14] وقد كثر خوض المتأخرين من علماء هذا القرن في أمر هذا الدخان ، بين مبيح ومحرم [15]، والأكثر على

(1) «منه» ناقصة في ح .
(2) ب : وكان تنفيرها ، ط : وكان من تنفيرها .
(3) ط : اشتهر .
(4) ح : فما أبه .
(5) ط : طباع .
(6) ح : وكل .
(7) ط : والحرب ، ح : والحرق .
(8) ب : الخبيث الذي .
(9) ب : وذكر رديا كان يشربه ، ط : وذكر رديا من كان يشربه .
(10) ط : إنما .
(11) ح : عند .
(12) «على» ناقصة في ب .
(13) ط : فأظهر .
(14) «لضيق الوقت» ناقصة في ح .
(15) «ولائم» بدلا من «ومحرم» .

التحريم . منهم علامة زمانه الشيخ ابراهيم اللقانى ، وشيخه المحقق الشيخ سالم السنهورى . وممن ألف فى اباحته الشيخ أبو الحسن الأجهورى ، وكلامه هو النقى[1] رده الشيخ الفكون . ومنهم الشيخ سيدى حمد بابا التنبكتوى[2] السودانى . وقد أخبرنى شيخنا سيدى أبو بكر السجتانى ـ رضه ـ أنه راجعه فى كثير من أدلته التى استدل بها على الإباحه[3] كما راجع شيخه اللقانى فى مثل تلك من أدلة التحريم فلم يجد عنده تحقيقا ايضا . قال : وقصارى ما قال لى أنها ليست من أخلاق الصالحين ؛ و سدنا تنفير[4] الناس عنها . قال لنا[5] شيخنا المذكور : قد[6] رأيت فى شأنها نحوا من ثلاثين تأليفا بين محلل ومحرم ، ولا أرتضى شيئا منها ، وكان ـ رضه ـ يقول [7] : مذهبى فيها التوقف[8] وعدم الجزم فيها بتحريم أو تحليل ، لأن إحداث حكم من أحكام الشرع فى نازلة من دون برهان واضح من البلاء العظيم[9] الموقع فى الدين شديد [10] أمره من الله ومن[11] أظلم ممن قال إن الله[12] حرم هذا أو أحله بدون نص من الشارع أو قياس مقبول مسموع ، جار على أصول الشرع وقواعده ، إلا أنه كان يجزم بوجوب تركه من جهة أخرى وهو أنه مجهول الحكم ؛ ولا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . وهنا الأمر قد جهلنا حكم الله فيه فى هذا الوقت وإلى الآن لم يتضح فيه شىء يثلج له الصدر ويبين[13] فيه الأمر . وقال لى ـ رضه[14] ـ : وقد رأيت قصيدة فى تحليلها للعشابى الدرعى تزيد على

---

(1) « النقى » ناقصة فى ب .

(2) « سيدى » ناقصة فى ح .

(3) ط : التبكتوى .

(4) ح : إباحته .

(5) ح : ما بين تحقيقا وتحقيا ناقص

(6) ط : ما بين « أدلته » وأدلته ناقص .

(7) ط : يتنفير .

(8) ب : لى .

(9) ب ، ط : وقد .

(10) « يقول » ناقصة فى ب ، ط .

(11) ط : التوقيف .

(12) ب : من الله العظيم ، ط : من الله العظيم .

(13) ب : شديد ، ط حديد .

(14) « من الله » ناقصة فى ح .

مثين من الأبيات . قال [1] : وقد عارضتها بمثلها ، وكتبت فى آخرها ما معناه : لست ممن يذهب فى هذا إلى التحريم ولا إلى التحليل ، وإنما أردت أن يعلم الناظر فى القصيدتين[2] أن كل واحد منا يتكلم بهوى نفسه ، وليس على يقين فيما يقول .

وقال لنا ــ رضه ــ : وأبلغ واعظ رأيته فى شأنها يدل على تحريمها لو كنت ممن يعتمد المرائى وأشباهها فى التحليل والتحريم . وذلك أنى كنت بدرعة[3] أول ما ظهرت هذه العشبة ، وأنا حديث السن فى أوائل الاشتغال بالطلب . فبينما نحن ذات ليلة والطلبة مجتمعة فى ليلة خميس ، كما هو شأنهم فى ليالى تعطيل القراءة ، فأتى بعضهم بهذا الدخان فتناولوه فيما بينهم إلى أن[4] جاءت إلى فتناولتها وأخذت منها[5] نفسا أو نفسين . فلما نمت جاءنى فى عالم نومى ، رجلان بيدهما حرب من حرب السودان وما كنت رأيتهما قبل[6] ذلك . فأخذا[7] يضربانى ويعذبانى ويقولان لى لم[8] تناولت الدخان ، وأنا أعتذر لهما وأقول لاعلم لى بشأنها ، ولم يقبلا عذرى وعذبانى عذابا شديدا حتى استيقظت ، ووجدت أثر الضرب فى جسدى ظاهرا أتألم منه ألما شديداً . وبقيت مريضا من أجل[9] ذلك نحوا من سبعة أشهر . قال لنا ــ رضه ــ : وأنا لا أشك فى صدق الرؤيا ، ومع ذلك فأنا متوقف عن الحكم[10] بالتحريم لما فى الحكم[11] من الخطر . ولم أخبر شيخنا اللقانى بهذه الرؤيا خشية أن يعتمدها فى التحريم . انتهى ماذكر لنا شيخنا وغالبه بمعناه .

(1) ب : فقال .

(2) ح ، ب : القَصْدين .

(3) ب : بزرعة .

(4) أن ناقصة فى ط .

(5) ط :

(6) ح ، ب : رأيتها .

(7) ح : فأخذ ، ب : وأخذ .

(8) ب ، ط : لما .

(9) « أجل » ناقصة فى ط .

(10) ط : متوقف على الحكم .

(11) ب : التحكيم ، ط : التحكم .

قلت والذى أرتضيه[1] ما ذكره شيخنا هذا ـ رضه ـ من الوقف[2] مع الميل[3] القوى إلى التحريم . وغالب المتورعين من الفقهاء ، ومعهم جميع الصوفية[4] أرباب البصائر[5] الصافية ، يصرحون بالتحريم . والذى أعتقده أن الفقهاء إذا اختلفوا فى حكم ، وكانت الصوفية[6] فى جانب واحد ، فالحق[7] معهم . لأن الله مؤيدهم[8] وهوى النفوس[9] مفقود منهم ، فلا ينطقون إلا عن حق وصواب .

وقد سألت شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكورانى[10] الكردى ثم المدنى عن قول شيخنا قطب زمانه ، الجامع بين العلمين ، صفى الدين القشاشى ـ رضه ـ فى شأن هذا الدخان ، فقال لى : سمعناه مرارا يقول بكراهته ولا يبلغ به التحريم[11] ، وعامة فقهاء المشرق متساهلون[12] فيه فضلا عن عوامهم . وقد رأيت[13] كثيرا ممن يستعمله فى المساجد ولا يتحرجون . وهو[14] أمر شنيع لا ينبغى أن يختلف فى امتناعه لكراهة رائحته وخبثها ، ومنافاة تعاطيها للتعظيم والوقار المطلوبين فى المساجد حتى أنه يحرم كل ما يخل بتعظيمها ويقتضى إهانتها ، حتى الثوم والبصل ، مع الاتفاق[15] على إباحتهما ، لو[16] اضطر إليهما الآكل لدواء . إلا أن أهل المشرق فى الغالب مخلون بتعظيم المساجد ، يأكلون فيها ويشربون ، ويحلقون رؤوسهم وينامون .

---

(١) ط : ارتضاه .

(٢) « من الوقف » ناقصة فى ب ، ح .

(٣) ط : الميل الى .

(٤) من « الصوفية » إلى « الصوفية » ناقصة فى ط .

(٥) ب : « القلوب » بدلا من « البصائر » .

(٦) ط : الحق .

(٧) ح : يؤيدهم .

(٨) ب : النفس .

(٩) ح ، ب : بن حسن الكردى .

(١٠) ب : « التحريم » بدلا من « به التحريم » .

(١١) ط : يتساهلون .

(١٢) ح ، ب : رأينا .

(١٣) ط : وهذا .

(١٤) ط : تفاق .

(١٥) ح ، ب : ولو اضطر ، ط : واضطر .

(١٦) انظر السجتانى فيما قبل ص .

وأما شيخنا علامة الوقت أبو محمد عبد القادر الفاسي ـ رضه ـ فطريقه فيه كنحو طريق شيخنا السكتاني[1] أو أشد[2] منه ، فإنه يميل[3] كثيراً إلى التحريم ، ويصوب أدلة قائله[4] ويرجحها ما أمكن . ومع ذلك لا يصرح بالتحريم إلا أنه يبالغ في التنفير منه ، والتقبيح لشأنه ، وذلك رأى شيخه وعمه العارف بالله تعالى سيدى عبد الرحمن الفاسي ـ رضه ـ .

قلت : وأحسن سؤال وجواب رأيته في شأنها سؤال العلامة سيدى العربى الفاسي وجواب عمه العارف بالله سيدى عبد الرحمن . فقد بالغ السائل في السؤال وحقق المناط في ذلك حتى أنه لو وقع عليه جواب مطابق لجميع فصوله لانفصلت القضية . وجواب عمه فيه بعض اختصار غير مناسب لاطناب السائل مع ما فيه من التحقيق ، وهو مائل الى التحريم . ولولا الإطالة لكتبناهما معا تتميما للفائدة ، وفي الإشارة ما يغني اللبيب عن إطالة العبارة .

ذكر ارتحالنا من مدينه طرابلس ـ أمنها الله[5].

كان ارتحالنا منها بعد ارتحال الأركاب كلها : المشرقة والمغربة[6]، يوم الأثنين ٥ من شعبان . وافترق الركب من هناك . وذهبت طائفة منهم مع الحاج محمد نين[7]، والطائفة الأخرى مع الحاج محمد بن عمران والحاج محمد بن مؤمن وهم جل الركب . وشيعنا من هناك صاحبنا سيدى محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي ، وصاحبنا سيدى أبو راوى[8] وجماعة من الطلبة[9] إلى جانزور[10]، ودخلنا المدرسة التى هناك ، ووجدنا بها صاحبنا الناسك الخاشع

(١) انظر السجتاني فيما قبل ص ١١١ .

(٢) ب : وأشد .

(٣) ح : كثيرا يميل .

(٤) ط : قايلة .

(٥) « أمنها الله » ناقصة في ح .

(٦) ح : المشرقية والمغربية .

(٧) ط : تبين أو بتين .

(٨) « سيدى » ناقصة في ح .

(٩) الحمل من « الطلبه » الى م « الطلبة » ناقصة في ب .

(١٠) ح : زترون وهى مصحف زترور حسب النطق المغربي .

سيدى محمد بن بلقاسم الغرياني [١] ، وتلقانا الطلبة[٩ سابقا] بالترحيب وأطعمونا. وهذه المدرسة من[٢] أحسن المدارس التى فى تلك السواحل . وقد زرنا على بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد ، أظن أنهم ذكروا أنه يعرف بالعريفى [٣]. وأخبرنى من أثق به بحكاية[٤] وقعت لبعض الناس مع صاحب هذا القبر فى شأن الدخان ، تدل على قبحه وخبثه . وذلك أنه كان عند قبره زيتونة كان يجلس إليها فى حياته ، فجاء رجل بعد موته فجلس فى ذلك المحل وشرب فيه الدخان ، وكان من أكابر البلد . فلما نام فى الليل ، جاءه ووقف عليه وضربه على رأسه ؛ وقال[٥] له : يا فلان مكان[٦] كنت أجلس إليه فجئت إليه فنجسته ؛ فأصبح الرجل أعمى . أخبرنى بذلك من أخبره الأعمى . وبات الركب هناك قريبا من جانزور [٧]، وبات معنا أصحابنا .

وفى الغد ارتحلنا ومررنا ضحى بقرية هناك ، قريبة[٨] من الزاوية الغربية ، فيها رجل من الصالحين يزار ، وكل من جاءه ضربه بين كتفيه ثلاث ضربات ، ودعا له . وأخبرونى أنه كان هناك رجل من الصالحين قبله يفعل مثل ذلك[٩] ؛ وكان هذا غير معروف . فلما مات أصبح هذا الرجل يفعل مثل ذلك [٩]. ونزلنا ذلك اليوم بالزاوية الغربية ، وكان قد تقدم إليها صاحبنا الحاج عبد الرحمن غريط[١٠] المكناسى ، وله عند أهلها[١١] مزية عظيمة ، ويعتقدون فيه اعتقادا كبيراً، ويرون أنه من أهل التصريف . فكل من له حاجة طلبها منه وأتاه بصدقة ، ولا يذهب عنه[١٢] إلا وهو[١٣] يعتقد أنه ظفر بحاجته . وربما قضيت حاجة

---

(١) ط : العرياني .

(٢) « من » ناقصة فى ح .

(٣) ب : العريعى ، ط : العزيقى .

(٤) ط : بحكايته .

(٥) ح ، ط : فقال .

(٦) ط : مكانى .

(٧) ح : زترون ، ب : زنزور (حسب النطق المغربى.

(٨) ح : قريبا .

(٩) الجمل ما بين « ذلك » و « ذلك » ناقصة فى ط .

(١٠) ط : غرمط .

(١١) ط : أهله .

(١٢) ب : منها ، ط : منه .

(١٣) « هو » ناقصة فى ب ، ط .

بعضهم ، وربما اتفق له الإخبار بشيء فيقع كما أخبر ، وهو رجل عامي تُعلم[1] طويته وعلانيته ، خال من كل ما يتوهمون فيه . وإنما أعانهم على ذلك حسن اعتقادهم وبركة إخلاصهم ؛ فأضافوا الركب تلك الليلة ضيافة كبيرة يتقربون[2] بذلك إلى مرضاة الشيخ عبد الرحمن .

وفي الغد ارتحلنا ومررنا قرب[3] الزوال بقرب[4] ولى الله تعالى سيدى راشد الكاليلى ، وتؤثر عنه كرامات كثيرة . ونزلنا قريبا منه وزرناه ، ومن هناك ودعنا صاحبنا سيدى محمد بن أحمد بن عيس اليربوعي ، ورفيقه سيدى أبو قطاية[5] من نسبه ، ولم نبت إلى مقابلة زوارة [6] .

وفي الغد نزلنا الزاوية[7] الشرقية بعد المغرب ، ومنها . إلى برج الملح ، ومنه إلى قرب السواني . ثم مررنا بالسواني في المكان المسمى ابن كردان [8] ، قرب الزوال ، ونزلنا دون حاسي السلطان . ثم نزلنا [9] بينه وبين وادى السمار ، ثم نزلنا قرب عرام ، ثم زريق . واجتمعت بصاحبنا سيدى محمد الصالح بن سيدى عبد الله بن عبد العزيز الحمرونى ، وأدخلنى الى محل تعبد والده ، وبتنا هناك عنده ، وأضافنا ، وأجزل القرى جهده . ووجدت عنده جملة من الكتب ، وفي جملتها مختصر معالم الإيمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان للشيخ ابن ناجي ، وهو كتاب ممتع في سفرين ؛ والأصل لأبي زيد الدباغ القيرواني . وقد ذكر البلوى في رحلته أنه لقى صاحب هذا التأليف وأثنى عليه وعلى تأليفه هذا . ولأجل اغتباطى بهذا الكتاب سهرت عليه معظم

---

(١) ح : نعلم ، ط : يعلم .

(٢) ط : فيقربون .

(٣) ح : قبل .

(٤) ب : تعبر .

(٥) ط : أبي خطابه (بالباء) .

(٦) ح : زواغة ، ب : زواغة .

(٧) ب : الزوارة .

(٨) ط : من كردان .

(٩) « نزلنا » ناقصة في ط .

الليل ، وطالعت جله في تلك الليلة ، وقد ذكر فيه خبر القبر المنسوب الى أبي لبابة ـ رضه ـ في مدينة قابس . وقد فحصت عن خبره كثيرا ولم أجد من ذكره إلا ابن ناجي في هذا الكتاب ، فقد أطال في خبره وذكر أن قبره مما تواتر عند أهل بلده . وذكر أنه سأل شيخه[1] البرزولي[2] . عنه[3] قال له مثل ذلك ، وإن تواتره دليل على صحة ذلك . وذكر أن من لم يذكره ممن ألف في أسماء الصحابة وأمكنة وفياتهم فلأنه لم يبلغه العلم به ، والتواتر المذكور مقدم على ذلك ، وكاف في إثبات أن ذلك قبره . وكنت قبل ذلك ربما لحقني[4] فتور في العزم عند زيارته لاستبعاد ذلك من غير أن يكون منصوصا عليه ، فلما رأيت ما في هذا الكتاب زال ما في قلبي[5] من ذلك ، وقويت نيتي في زيارته ـ رضه ـ وقد بنى عليه أمير تونس حمود[6] بنيانا عظيما ـ أثابه الله على قصده الجميل.

ومما نقلته من هذا الكتاب أنه لما فشت[7] البدعة[8] بخلق القرآن في القيروان[9] شكوا ذلك إلى سحنون ، فقال لهم لا يروعنكم ذلك فإن الله تعالى إذا أراد قطع بدعة أظهرها وأفشاها ، فكان الأمر كذلك ـ انتهى بالمعنى .

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مدينة قابس ضحى وزرنا أبا[10] لبابة ـ رضه ـ ، واجتمعت بقاضي البلد سيدى عيسى[11] بن علي العبدى الدكالي المغربي . وهش وبش وبالغ في الإيناس[12] ولاطف جهده ، وله وجاهة تامة في البلد

---

(1) ح : وذكر أن . شيخه .
(2) ح ، ب : البرزلي .
(3) ح : رضي الله عنه بدلا من عنه .
(4) ط : زعفني .
(5) ح : ما بقلبي .
(6) ح ، ب : حموا .
(7) ط : ثبت .
(8) ن : الدعة .
(9) ح : بالقيروان .
(10) ح : ونزلنا بأبي لبابه ، ب : ونزلنا أبا لبابة .
(11) ى : سيدى عبد عيسى .
(12) ب : الا يناس .

وعند أميرها تربى[1] على علمه بأضعاف مضاعفة . وليس عنده[2] من التحصيل في فن من الفنون ما يستحق به أدنى من تلك الخطة ، ولا بدع في ذلك فإن البلد شاغرة من العلوم . وسألته عن قراءته وأشياخه وعمن أخذ فلم أجد عنده ما يغبط فيه ، وأخبر أن قراءته إنما كانت بتونس ، وأنه قدم من المغرب وهو صغير .

وفى الغد ارتحلنا وشيعنا القاضى إلى الحامّة .... [أ . هـ] .

---

(١) ح : تربوا .

(٢) ط : وليس له .

أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

أسماء البلاد والمدن والمواضع

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

المحتوى

الصفحة

٣ - الفهارس التحليلية :

رقم ايداع ٧٨٥٣ / ٩٦
ترقيم دولى ٥ ـ ٠٢٢٩ ـ ٠٣ ـ ٩٧٧

مركز الدلتا للطباعة
٢٤ شارع الدلتا - اسبورتنج
تليفون : ٥٩٥١٩٢٣

